

خطب نهج البلاغة

دراسة توصيلية

كلية التربية-جامعة بابل

فاتن فاضل كاظم

العبيدي

اقرار المشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

اشهد ان إعداد رسالة الطالبة (فاتن فاضل كاظم العبيدي) الموسومة بـ (خطب نهج البلاغة دراسة توصيلية) قد جرى تحت اشرافي، في قسم اللغة العربية في كلية التربية-جامعة بابل وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في آداب اللغة العربية.

المشرف على الرسالة:
الاسم: د. قيس حمزة فالح الخفاجي
الدرجة العلمية: استاذ مساعد
الامضاء:
التاريخ:

بناء على التوصيات المتوافرة ارشح هذه الرسالة للمناقشة:

رئيس قسم اللغة العربية:
الاسم: د. عامر عمران الخفاجي
الدرجة العلمية: أستاذ مساعد
الامضاء:
التاريخ :

إقرار لجنة

المناقشة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن أعضاء لجنة المناقشة: نشهد اننا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة (خطب نهج البلاغة دراسة توصيلية) التي أعدتها الطالبة (فاتن فاضل كاظم العبيدي) وقد ناقشنا الطالبة في محتوياتها وفيما له علاقة بها. وهي جديرة بالقبول بتقدير () لنيل شهادة الماجستير في آداب اللغة العربية.

عضو اللجنة:
الاسم : د. هناء جواد عبد السادة
الدرجة العلمية : أستاذ مساعد
الإمضاء:
التاريخ:

عضو اللجنة :
الاسم : د. محمد عبد الحسين الخطيب
الدرجة العلمية : أستاذ مساعد
الإمضاء:
التاريخ:

رئيس اللجنة:
الاسم : د. عباس محمد رضا
الدرجة العلمية : أستاذ
الإمضاء :
التاريخ :

عضو اللجنة : (المشرف)
الاسم : د. قيس حمزة الخفاجي
الدرجة العلمية : أستاذ مساعد
الإمضاء :
التاريخ :

أصادق على ما جاء في قرار اللجنة المناقشة

عميد كلية التربية
الاسم : د. لؤي عبد الهاني السويدي
الدرجة العلمية :
الإمضاء :
التاريخ :

ABSTRACT

The present thesis is devoted to the orations Al-Imam Ali-Bin-Abi-Talib (peace is upon him) from Nahj ul-Balagha as a conduction study.

The progress of Arab oration such as all science fields are associated with Al-Imam Ali orations, his oration are considered as the beginning of these science such Syntax science or at least the main exciting of people minds for reaching to deferent science.

The conduction theory that was started at recent critical is not new with regard to Arab, its origins are extended to Al-Bayan & Al-Tabyeen book. This book contains the elements of the conduction theory.

The ancient studies are based on Al-Imam Ali orations because of the clarification of the operation from these orations, the operation is represented by the sending extremities.

In this thesis, chapter one is concerning on studying the sending extremities. The first extremity of oration is sender who was very clear through that oration, this clarification is attributed to the several factors such as the sending role that is devoted to him, the characteristics of sender that made him possessing alone, and the supports that helped to address his oration. The sending role is active and its effects are great.

Al-Imam Ali was climbed the sending platform and addressed to his addressees in a period of time that characterizes with deviation of society and this problem cannot be solved without the truth voice, Al-Imam orations were reflected the characteristics of that society.

Chapter two is talking about the sending oration of Al-Imam Ali that was built in a compact manner unifies its parts and made him immortal along years.

Chapter three concerning the eloquence of orations of Al-Imam

Ali we found the speech characterizes with incompatible summarization, infinite deepness, high ability of understanding to his addressees which cannot be obtained in the society of Al-Imam and any other society.

Al-Imam Ali orations were sent to the hearts of his addressees without their ears throughout a sending science that dose not found to any one except him. These characteristics give spiritual immortal oration along years.

These orations have great effect on selves and proved the conductivity task that was closed the Prophecy. Al-Imam Ali was left by the prophet Mohammed for people as a leader light and a guide lead the people to the deathless life of the self.

Fatin Fadhil Al-Obaidi

المحتويات

الموضوع	الصفحة
أ - المقدمة	هـ
د: الخطاب	التمهيد
٣١-١.....	والتوصيل
الفصل الأول: طرف الإرسال	١٠٧-٣٢
مدخل: الدور الرسالي	٣٨
٣٣-.....	المبحث الأول: المرسل
٣٨	٧٤-٣٩
س: مات الإمام	وفضائله
٥٣-٤٠.....	مرتكزات الإرسال
٥٤-.....	٧٤
المبحث الثاني: التوجه الخطابي	١٠٧-٧٥
منبر الإرسال	٨١
٧٦-.....	الصوت الرسالي
٨٢-.....	٨٩
وصف المخاطبين	١٠٧
٩٠-.....	الفصل الثاني: الخطاب الرسالي
١٠٨-١٩٩	

مدخل: الإمامة نظام محكم.....	١١٢
١٠٩-	
المبحث الأول: أجزاء الخطب	١١٣-١٤٧
أجزاء الخطب.....	١١٥
١١٤-	
ابتداء الخطب.....	١٢٣
١١٦-	
غرض الخطب.....	١٢٨
١٢٤-	
المحاجة.....	١٣٩
١٢٩-	
خاتمة الخطب.....	١٤٧
١٤٠-	

المبحث الثاني أنواع الخطب ١٤٨-١٩٩

أنواع الخطب ١٤٩
الرسالي..... ١٧١
الخطب الديني..... ١٥٠

الخطب السياسي..... ١٧٢
الخطب الجهادي..... ١٨٨
الخطب الجهادي..... ١٨٩
١٩٩

الفصل الثالث: التوصيل الرسالي ٢٨٤-٢٠٠

مدخل: الإمامة قدرة وهداية..... ٢٠١
٢٠٣

المبحث الأول: بلاغة الخطب الرسالي ٢٤٤-٢٠٤

بلاغة الخطب الرسالي..... ٢٠٤
٢٤٥

المبحث الثاني: المهمة الرسالية ٢٨٦-٢٤٦

تلقي الخطب..... ٢٤٧
٢٦٦

الإمامة والتوصيل..... ٢٦٧
٢٨٦

الخاتمة..... ٢٨٧
٢٩١

قائمة المصادر..... ٢٩٢
٣٠٤

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير المرسلين وعلى اله الطيبين الطاهرين والدعاء بتعجيل الفرج لصاحب العصر والزمان (عجل الله فرجه) وأن يجعلنا الله تعالى من أنصاره الأخيار يوم يملأ الأرض قسطاً وعدلاً .

التوصيل غاية قام عليها النتاج الأدبي، وأساس قام عليه النتاج النقدي قديماً وحديثاً، وقد تجسدت هذه الغاية بوصفها عملية في النتاج النقدي القديم وبوصفها نظرية شكلية عند النقاد المحدثين، فالتوصيل حلقة ربطت النتاجين الأدبي والنقدي من جانب، والقديم بالحديث من جانب آخر، والدين بالأدب من جانب ثالث .

وقد كانت خطب الإمام علي (عليه السلام) خطباً متفردة لم يشهد لها مثيلاً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو إمام البلغاء وسيد الفصحاء وكلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، وبه بلغت الخطابة أوجها ومن نوره تجلّت الحقائق كلها، فان كان القرآن شاملاً لعلوم لم يصل العلم الحديث لحد الآن إلا لجزء يسير منها، فان الإمام (عليه السلام) مستشار تلك العلوم ومفتاحها وإن كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مدينة العلم فالإمام علي (عليه السلام) بابها والسبيل الموصل لها .

وقد حاولت منطلقاً، من عدم امتلاك مبادئ النقد لقوة القوانين ولا لاحتمة العلوم التجريبية بما يمكن تجديدها أو تجاوزها أو التوفيق بين متناقضاتها، ومن إمكانية اعتماد قصد المؤلف

خاصة (في حالات يتواءم قصده مع ما يشته النص)، دراسة خطب الإمام (عليه السلام) التي جمعها الشريف الرضي في كتاب (نهج البلاغة) دراسة توصيلية بناءً على ارتباط عمليّة التوصيل بالخطاب، انطلاقاً من المهمة الرسالية التي خصّها الإمام (عليه السلام)، وذلك بالتزام المقاصد والأغراض التي يعلنها في خطابه، ولا سيما أن الإمامة مقام تجسّد في أبعاد خطاباته.

وقد واجهتني صعوبات كثيرة، وأولها المسؤولية الكبيرة التي تفرضها دراسة نصٍّ وإن عدّ دون النص السماوي مرتبة، إلا أنه لا يقل أهمية وما تتطلبه تلك الدراسة من صفاء نية وإخلاص طاعة لله عز وجل. وكانت المصادر صعوبة أخرى تواجه الباحث ولا عجب !!؛ لأن الإمام (عليه السلام) علمٌ هادٍ ونورٌ يستضيء به كل محب إلا أن اختلاف مياه السقيي التي روت تلك الكتابات ومنابعها قد اخفت زوايا مهمة من خطاب الإمام علي (عليه السلام) وأظهرت أخرى لذا كان لابد من معرفتي للإمام (عليه السلام) عن كثب قبل الكتابة عنه.

وقد جاءت دراستي بتمهيد وثلاثة فصول، فقد بدأت الدراسة بتمهيد حاولت فيه معرفة التوصيل بوصفه عملية ارتبطت بالخطابة عند اليونان ومثلها عند العرب في أولى المؤلفات النقدية، ثم تحولت إلى دراسة التوصيل بوصفه نظرية بنوية اكتملت أطرافها على يد جاكسون أحد رواد المدرسة الشكلية، والإشارة إلى امتداد الخيوط التي تجمع القديم بالحديث.

وفي الفصل الأول تناولت طرقي الإرسال، فكان الدور الرسالي للإمام عليه السلام مدخلاً انطلقت منه لدراسة الطرفين فابتدأت بالمرسل لكونه يمثل المصدر الأساس للخطاب، فكانت سمات الإمام الرسالية ومرتكرات الإرسال في المبحث الأول منه ثم انتقلت إلى المبحث الثاني

لدراسة توجه الإمام (عليه السلام) لجمهور مخاطبيه بخطابه الرسالي، فكان منبر الإرسال الهدي الجامع لطرفي الإرسال لينطلق منه الصوت الرسالي الخالد متوجهاً بخطابه إلى الناس جميعاً ومحاولاً إصلاح المجتمع الإسلامي ليكون خطاب الإمام (عليه السلام) صورة لذلك المجتمع.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة الخطاب الرسالي للإمام، فكانت (الإمامة نظاماً محكماً) مدخلاً انطلقت منه لدراسة بناء الخطاب بوصفه نظاماً يجمع أجزاء الخطاب من (ابتداء وغرض وخاتمة) في المبحث الأول منه، ويوحّد أنواعه من (سياسي، وديني، وجهادي) في المبحث الثاني ليشكل نظاماً محكماً لا يخل به اقتطاع ولا يؤثر فيه تقسيم.

ثم تحولت في الفصل الثالث لدراسة التوصيل الرسالي فكانت (الإمامة قدرة وهداية) مدخلاً انطلقت منه لدراسة بلاغة الخطاب الإعجازية في المبحث الأول وتلقي ذلك الخطاب ومنه إلى استقصاء السلك الجامع بين النبوة والإمامة للوصول إلى المهمة الرسالية التي خص بها الإمام (عليه السلام) في المبحث الثاني، ثم انتهت إلى الخاتمة التي أوجزت فيها بعض ما وصلت إليه في دراستي.

ولأن الدراسة اعتمدت نص خطاب الإمام أساساً ودرست مهمة قائله (عليه السلام) من خلال فهم الخطاب نفسه، مع اعتماد بعض ما ورد في أقواله وكتبه، ولأن خطاب الإمام الرسالي منطلق للدراسات النقدية والبلاغية القديمة منها والحديثة كافة، فقد تجاوزت العديد من مصادر الدراسة لكونها بنيت على خطاب الإمام (عليه السلام).

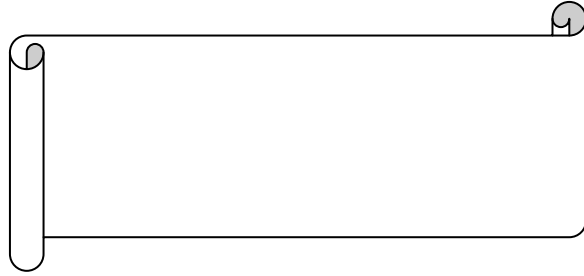
و لسهولة استخراج الخطاب فقد آثرت اعتماد كتاب (نهج البلاغة) الذي ضبطه د. صبحي صالح ، مع الاستعانة بما أورده من معاني لبعض مفردات الخطاب التي يصعب معرفة معناها ، وأخذت منه رقم الخطبة مرفقة مع الرمز (خ) ، سواء منها ما عنوانه الشريف الرضي بكلام أو ما ذكره بوصفه خطاباً ، ومثلها رقم الصفحة الذي ذكرته مرفقاً مع الرمز (ص) .

ولا بد من كلمة شكر وان كانت قاصرة أتوجه فيها إلى الباري عز وجل الذي لا تحصى الآؤه ولا تعد نعمائه مسبب الأسباب والهادي إلى الكتاب بسراجه المبين ووليّه الأمين، دليل المتحيرين وسبيل الناجين وإياه أسأل واليه ابتهل وارغب في تمام العافية ودوام المغفرة والرحمة وأن يوزعني من شكر نعمائه ما يبلغ بي غاية رضاه وأن يتجاوز عن سوء ما عندي بحسن ما عنده وأن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع الذي وفقني إليه بأحسن القبول وان يجعله لي عدة في حياتي ونجاة بعد مماتي وان يجعلني من محبيه الأبرار ونصرته الأخيار انه وليّ التوفيق .

وأقدم بالشكر إلى الأستاذ المشرف د. قيس حمزة الخفاجي الذي كان سبباً في انتقاء التوصيل موضوعاً لدراسة خطاب الإمام عليه السلام ، وإلى الأستاذ علي حسين الذي كانت ملاحظاته النيرة سبباً في الاهتداء إلى التوصيل الرسالي المستمر إلى آخر الزمان ، وإلى جميع أساتذتي في قسم اللغة العربية الذين كانوا لي قدوة قبل أن أصل إلى العلم الهادي المخصوص بالاعتداء حفظهم الله جميعاً وهداهم لحدمة العلم والسير بنهج الراسخين فيه .

وأتوجه بخالص الشكر والدعاء إلى عائلتي الكريمة القلوب الكبيرة والأيدي الممدودة لي بالدعاء وأستميحهم العذر في الانصراف إلى البحث والانشغال به دونهم ، وإلى كل من تفضل على

البحث وصاحبه فنال اهتماماً من سؤاله الكريم، جعلنا الله وإياهم من الأنصار الأخيار والمتقين
الأبرار ورزقنا حسن العاقبة في المبدأ والمآل إنه حفيٌّ بالدعاء قريب مجيب.



سمات الإمام وفضائله

لم تكن سمات الإمام عليه السلام سمات عادية، أو تخص خلقاً معيناً تخلق به شخصه الكريم، إذ يكفي منصب الإمامة دليلاً على ما تفرد به من مزايا وسمات وفضائل وكرامات، بما يؤهله ليكون خليفة الله جلّ وعزّ، والحامل لصفات المستخلف له، ووصي النبي ﷺ وخليفته من بعده.

لقد بلغ الإمام عليه السلام أعلى السمات الخلقية إذ كان متخلقاً بأخلاق الأنبياء، حاملاً لصفات الأوصياء^(١)، فكانت سماته إشعاعات رسالية ترد في بعض خطابه، لتعلن حقه و تشيد بفضله و أفضاليته و أهل بيته عليهم السلام.

وأول ما اجتمع للإمام عليه السلام شرف النسب مع كرم المولد، فقد ولد لأبوين هاشميين (وهو أول مولود هاشمي في الإسلام)^(٢)، فجمع بنسبه ما كان للهاشميين من أخلاق كريمة و خلال معروفة عند العرب جميعاً.

وقد اتفق ذلك مع ما فضله الله تعالى به فقد تفرد الإمام عليه السلام بكونه أول مولود تتشرف الكعبة بولادته فيها بعد شق جدارها ودخول والدته —عندما وافاها الطلق به— في جوف الكعبة ثم التئام جدار الكعبة بمعجزة ربانية^(٣)، وخروجها منه بعد ثلاثة أيام تحمل الإمام عليه السلام طفلاً، فيكون ذلك مفتتحاً لأوسمة تمنحها السماء لمولود الكعبة^(٤).

ويثنى ذلك بوسام الجذب والقحط الذي أصاب قريش ليحتضنه حجر الرسول ﷺ^(٥)، فيكون فطامه على الأخلاق الملائكية التي فطم عليها

(١) قال رسول الله ﷺ (من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه، وموسى في علمه، وعيسى في ورعه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب). شرح نهج البلاغة، ابن أبي حديد (٦٥٦هـ)، الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥ : مجلد ٢، ٤٠٢/٧.

(٢) ينظر: خصائص الأئمة، الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، تحقيق : محمد هادي الأميني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٤٠٦هـ : ٣٩.

(٣) ولد الإمام علي عليه السلام بمكة في الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد مولود قبله ولا بعده في بيت الله تعالى إكراماً وتعظيماً لمنزلته. ينظر : الإرشاد، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، الأعلمي، بيروت، ٥، ٢٠٠١.

(٤) ينظر : الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سيرة وتاريخ، محمد حسن آل ياسين، المكتب العالمي، بيروت، ط ١، ١٩٧٨ : ١٦.

(٥) فقد أنعم الله على الإمام عليه السلام بقحط أصاب قريش، وكان شديداً على أبي طالب عليه السلام لكثرة عياله، فتقدم النبي صلى الله عليه واله وسلم والعباس لمساعدته باحتضان بعض أطفاله، فتكفل النبي صلى الله عليه واله وسلم بتربية الإمام عليه السلام واخذ العباس جعفرأ. ينظر : تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق : نخبة من العلماء، الأعلمي، بيروت، دت : ٣١٣/٢.

الرسول ﷺ، والتي وصفها بقوله (وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَحْنٍ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْأَلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُمْ نَهَارُهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتَّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ)^(٣)، فكان الإمام عليه السلام ربيب رسول الله ﷺ وحببيه وأقرب الناس منه منزلة، حتى يصل إلى مخاطبته رسول الله ﷺ بالقول (أنت مني وأنا منك)^(٤).

وكان أسبق الناس إلى الإيمان بالله جلّ وعلا وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة خلفه فلم يعبد صنماً قط^(٥)، وفي ذلك يقول الإمام عليه السلام (إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَلْتَبَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ)^(١)، مثلما كان أسبقهم إلى الهجرة معه^(٢)، ثم كان الأخ الذي أبواه الرسول ﷺ لنفسه عند مؤاخاته بين الأوس والخزرج^(٣)، وخصّه بمناجاته^(٤)، وبتزويجه ابنته الزهراء عليها السلام زواجاً سماوياً فرحت به ملائكة السماء قبل أهل الأرض، فيخص الله تعالى بيته لطهارته بسد سائر الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باباً^(٥)، ثم يخص الله تعالى الإمام عليه السلام بذرية رسول الله ﷺ من بضعته^(٦)، ليكون الإمام نفس النبي ﷺ ومن يباهل به اليهود والنصارى مع أهل

(٣) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٤) خصائص أمير المؤمنين، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ)، تحقيق : محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة : ٨٨.

(٥) ينظر : الطبقات الكبرى : ٢١/٣.

(١) نهج البلاغة : خ ١٣١، ص ١٨٩.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٥٧، ص ٩٢.

(٣) ينظر : الطبقات الكبرى : ٢٢/٣.

(٤) يروى انه عندما أثر الأغنياء مناجاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغلبوا الفقراء على المجالس عنده، نهى الله المسلمين عن مناجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتصدقوا بقوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ)) (سورة المجادلة/١٢)، فخفت الأغنياء ولم يناجيه إلا الإمام عليه السلام متصدقاً بدينار كامل، ثم نزلت الرخصة، فبقيت الآية مخصوصة به عليه السلام. ينظر: سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ)، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ : ١٥٢/٥.

ولذا كان الإمام عليه السلام يقول عن هذه الآية (إن في كتاب الله تعالى لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي). مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، ابن طلحة الشافعي (٦٥٢)، دار الكتب، النجف، د.ت : ٨٨/١.

(٥) ينظر : خصائص أمير المؤمنين : ٧٣.

(٦) ينظر : م.ن : ١٢٣-١٢٤.

بيته^(٧)، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً^(١)، إذ يقول الإمام عليه السلام (أُسْرَتْهُمُ أُسْرَةٌ وَتَجَرَّتْهُمُ شَجَرَةٌ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ)^(٢)، وهو يلتقي مع رسول الله ﷺ بـ(الْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ)^(٣).

وبهذه القرابة يكون الإمام عليه السلام أولى بالناس من أنفسهم مثلما هو بالطاعة أولى^(٤)، إلا أن اختيار الإمام عليه السلام لمنصب الولاية لم يكن لقرابة تجمعهم برسول الله ﷺ أو منزلة تخصه – وإن كان أحد أسباب ولايته-، بل لسبق إلى طاعة الله تعالى وجدارة شهداها الجميع وفضائل خص بها.

ولو أردنا تعداد سمات الإمام عليه السلام لعجزنا عن إحصائها وتسميتها^(٥)، إلا أننا نرى الصبر هو السمة الأساس التي لازمتها فكانت أصل طاعته لله تعالى ودماء يجري في شرايين سماته الباقية التي يمكن عتقها أوجهاً عتقاً لعملة واحدة يندر وجودها إلا عند الإمام عليه السلام، فتارة نراه زهداً، وأخرى ورعاً، وأخرى شجاعة، وأخرى حلماء،...

(٧) يروى عندما جاء وفد نصارى نجران ليجادلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمر عيسى بن مريم، ونزول الآية ((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)) (سورة آل عمران/ ٦١) أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيد فاطمة ابنته والحسين أبنائه والإمام علي نفسه عليهم السلام، فترجع الوفد عند رؤية تلك الأقمار، وقد قال فيهم رسول الله ﷺ (اللهم هؤلاء أهلي). ينظر: سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ : ٢٩٤/٤.

(١) يروى بعد نزول قوله تعالى ((إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)) (الأحزاب/ ٣٣)، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر على دار الإمام علي وفاطمة عليهما السلام ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، فيناديهم للصلاة بهذه الآية. ينظر: سنن الترمذي : ٣١/٥.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٦١، ص ٢٢٩.

(٣) م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٤) في كتاب الإمام عليه السلام إلى معاوية (وكتاب الله يجمع لنا ما شدد عنا، وهو قوله سبحانه وتعالى ((أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)) وقوله تعالى ((إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين))، فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة). نهج البلاغة : كتاب ٢٨، ص ٣٨٥، (سورة الأنفال / ٧٥، سورة آل عمران / ٦٨) على التوالي.

(٥) لم يتضمن البحث إلا جانب من سمات الإمام عليه السلام، ولو أردنا إحصاءها مما تناقلته كتب التاريخ والسير لما وسعها بحث، إلا أننا حاولنا التشديد على ما يمكن عتق أصله تنفرع عنه السمات الأخرى.

فقد كان الصبر الذي يعد من الإيمان (كالرأس من الجسد) ^(٦)، سمة لازمت الإمام عليه السلام، وأولى دلائل طاعته لله تعالى، فقد خصّه الله سبحانه وتعالى بالولاية لما علم منه ذلك الصبر، فمقام الولاية "من أرفع المناصب الإلهية يتم بعد اجتياز مراحل الامتحان و الاختبار الشديدة" ^(١)، فكان صبر الإمام عليه السلام مبتدأ إيمانه بالله تعالى، ودليلاً عليه، ولا إيمان كالصبر ^(٢).

و قد وصل الإمام عليه السلام في إيمانه بالله تعالى إلى أعلى درجات الإيمان، إلى درجة اليقين التي يرى الله جلّ وعلا فيها في كل أمر، لذا يقول الإمام عليه السلام (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) ^(٣)، بل إلى أعلى درجات اليقين التي تجعله يرى الله رؤية قلبية، فيجيب من سألته عن رؤية ربه (أفأعبد ما لا أرى)، ويبدأ بوصف رؤيته القلبية (لَا تُدْرِكُهُ الْغُيُوبُ بَلْ سَلَّاهُ الْعَيْنَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ) ^(٤).

فالإمام عليه السلام أكثر الناس يقيناً بالله تعالى وصبراً على طاعته وابتغاء لمرضاته، إذ كان صبر الإمام عليه السلام شلاً لأزر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتخفيفاً له عن أعباء الرسالة التي كان المشركون يجابهونها بالإنكار والاتهام والسخرية لمن آمن به.

وأول صبر الإمام عليه السلام صبره على طاعة الله عزّ وجلّ ورسوله ^(٥)، إذ يقول الإمام عليه السلام (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُ وَنَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي لَمْ أَرِدْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ وَلَقَدْ وَاسَدْتُ بِرُفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا) ^(٦).

إذ لم يعص الإمام عليه السلام لله أمراً ولا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى وإن كان في ذلك الأمر تعد على إمامته وسلب لحقه فيها، وفيما ورثه عن رسول الله ﷺ، وحتى ولو تجاوز ذلك عاماً أو عامين إلى أكثر من عقدين من الزمان، إلى خمسة وعشرين عاماً.

^(٦) نهج البلاغة : قول ٨٢، ص ٤٨٢.

^(١) المظاهر الإلهية : ٢٧. وفي ذلك قوله تعالى ((وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)) (سورة السجدة/٢٤).

^(٢) ينظر : نهج البلاغة : قول ١١٣، ص ٤٨٨.

^(٣) مطالب السؤول : ٨٩/١.

^(٤) نهج البلاغة : خ ١٧٩، ص ٢٥٨.

^(٥) (الصبر صبران : صبر على ما تكره، وصبر عما تحب). م.ن : قول ٥٥، ص ٤٧٨.

^(٦) م.ن : خ ١٩٧، ص ٣١١.

فقد صبر على أذى قريش ومنازعتهم إياه في حقه واستئثارهم بالخلافة من دونه^(١)، ومنازعتة إيلها حسداً وظلماً، وإن كان ظاهر القول كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم^(٢)، لذا يصف الإمام عليه السلام مرارة ذلك الصبر فيقول (فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَنِي قَذَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَا أَرَى تُرَاثِي تَهْبًا)^(٣)، نزولاً عند وصية الرسول ﷺ^(٤)، وخوفاً على الإسلام والمسلمين، إذ "لم يكن سكوته سكوت استسلام عن حقه، بل كان مصابرةً وجلداً واحتساباً"^(٥).

وصبر الإمام سمة غالبية ومثال حيّ لعلاقة الإمام عليه السلام بربه ونفسه وبالناس جميعاً، ولذا فقد تجسد الصبر في علاقته بنفسه زهداً، وفي علاقته بالناس جميعاً تواضعاً وحلماً، مثلما كان في طاعته لله جلّ وعلا. فقد كان زهد الإمام عليه السلام في الدنيا صبراً عن ملاذ الدنيا وزينتها، ورغبة في الآخرة^(١)، بترويض نفسه^(٢)، وإخراجها من الجشع الذي يصاحب عادة حب الدنيا والتمسك بها، وتحريرها من كل قيد يحده عن طاعة الله سبحانه، إذ كان الإمام عليه السلام ممن لا تغرّه دنيا مخاطباً إيلها خطاب الصادقين عنها الزاهدين بها قائلاً (يا دنيا يا دنيا، إليك عني أبي تعرضت؟ أم إليّ تشوقت؟ لا حان حينك هيهات! غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها! فعيشك تَصَوِّ، وخطرك يسير، وأملك حقير، أه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم

(١) يقول الإمام عليه السلام (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغِيثُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَاهَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَوُوا إِلَهِي وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُكَرَّرَتِي حَقًّا كَذُّنَ أُولَى بِهِ مِنْ غَوِي وَقَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ نَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ نُمَازَهُ فَاصْبِرْ مَغْمُومًا أَوْ مُمْتًا مُلْسِفًا فَظَرُّ تَفَافُذٍ لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلَا ذَابُولٌ مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي فَضِدُّ تَبِيهِمْ عَنِ الْمُنْيَةِ فَأَعُضِدْ بِي عَلَى الْقَدَى وَجَرِّ عُتْرِي قِي عَلَى الشَّجَا وَصَبِرْ تَمِنْ كُظْمِ الْأَجْلِ عَلَى أَمْرٍ مِّنَ الْعَلَقِمِ وَالْمِ لِّلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّقَارِ). نهج البلاغة : خ ٢١٧، ص ٣٣٦.

(٢) ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ٢٨٩/٣.

(٣) نهج البلاغة : خ ٣، ص ٤٨.

(٤) إذ لم يجد نصرة سوى من أهل بيته ومن ثلاثة وهم (المقداد، وسلمان، وأبو ذر) وتبعهم عمار رابعاً ليبياع ويقتل شهيداً مع الإمام عليه السلام ولكن بمنزلة دون الثلاثة. ينظر : أصول الكافي : ٢/٢٧٠. ولذا كان الإمام عليه السلام يقول (لو وجدت أربعين ذوي عزم لقاتلت). شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني (٦٧٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ : ٢٣٧/١.

(٥) الإمام علي رجل الإسلام المخلد، عبد المجيد لطفي، النعمان، النجف، ١٩٦٧ : ١١٩.

(١) ينظر : نهج البلاغة : قول ١٠٤، ص ٤٨٦.

(٢) ينظر : م.ن : كتاب ٤٥، ص ٤٢٠.

(المورد)^(٣)، فكان خشن المأكّل والملبس، والثّبان ثوبه وهو يقول (نعم الثوب ما أستره للعورة وأكفّه للأذى)^(٤)، فاليابس طعامه، فما شبع من طعام يوماً^(٥).

لقد كان الإمام عليه السلام زاهداً في نفسه جواداً كريماً بكل ما في يديه، فهو المؤثر على نفسه وإن كان أخص بالفقر من سواه^(٦)، والمتصّق بخاتمه أثناء أدائه للصلاة^(٧)، والصائم وأهل بيته دون إفطار ثلاثة أيام متتالية لتقديم طعام إفطاره لمسكين ویتيم وأسیر^(٨)، ومن أعتق ألف مملوك بما كان يحصل عليه من مال مما عملت يداه^(٩)، فكان الزهد زينة زينه الله تعالى بها^(١٠).

وقد كان زهد الإمام عليه السلام دافعاً له للاستهانة بما ناله من تعب والصبر على ما واجهه من مصائب وأهل بيته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١١)، والتحول عن الخلافة التي كانت -حقه السليب- إلى الزهد فيما تنافسوا عليه من زخرف الحياة^(١٢)، وتجاوز ذلك إلى ما بعد عودة الخلافة إليه، فالدنيا بأسرها كما يصفها الإمام عليه السلام (أَزْ هَدْ عَزِي مِنْ عَقْطَةِ عَنَزِ)^(١٣)، حتى إن نعلًا قديمة لا قيمة لها أحب إليه من

(٣) م.ن: قول ٧٧، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٤) المناقب: ١٢٠.

(٥) ينظر: شرح ابن أبي حديد: مجلد ١، ١/ ٢٦.

(٦) في قوله تعالى ((ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)) (سورة الحشر/٩).

(٧) إذ يقول تعالى ((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) (سورة المائدة/٥٥).

(٨) ومصدق ذلك قوله تعالى ((ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً)) (سورة الإنسان/٨-٩).

(٩) ينظر: شرح ابن أبي حديد: مجلد ١، ٢/ ٢٠٢.

(١٠) وقد خاطبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (يا علي إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب إليه منها، وهي زينة الأبرار عند الله تعالى: الزهد في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك بشيء، فوهب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم اتباعاً، ويرضون بك إماماً). م.ن: مجلد ٣، ٧٤/٩.

(١١) ينظر: نهج البلاغة: قول ٣١، ص ٤٧٣.

(١٢) فقد رفض قبول الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب مشروطة إلا بالسير بكتاب الله وسنة رسوله وقال (لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ عَوِي وَوَاللَّهِ لَأُسِرْهُنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَصَّةٌ التَّمَاسُ لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ وَزُهْدًا فِيمَا تَقَسَّيْتُمُوهُ مِنْ زُخْرَفِهِ وَزُوجِهِ). م.ن: خ: ٧٤، ص ١٠٢.

(١٣) م.ن: خ: ٣، ص ٥٠.

الإمرة^(٧)، وهذا الزهد ليس بعيداً عم زهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي يصفه الإمام عليه السلام بأنه (قَدْ حَقَّرَ الثُّنْيَا وَصَغَّرَ هَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّاهَا وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوْاهُ عَدُوُّهُ اخْتِيَاراً وَبَسَطَهَا لِغَوْهِ اخْتِقَاراً فَأَعْوَضَ عَنِ الثُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ يَكْرَهَا عَنْ فَرْسِهِ وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِيَّتُهَا عَنْ عَيْنِهِ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً)^(٨).

وكان الإمام عليه السلام أشدَّ الناس تواضعاً لله ولرسوله ﷺ، وهي السمة التي يحبها الله ورسوله ﷺ لكونها سلاح المؤمن للوقوف بوجه إبليس وجنوده^(٩)، حتى كانت تسمية (أبي تراب) التي أطلقها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحبَّ تسمية إلى قلبه^(١٠).

وكان تواضعه مع الناس مما لا ينكره أحد، إذ لم تتغير أخلاقه بعد توليه الخلافة فلم يحجبه حاجب عن الناس، بل كان فيهم كأحدهم، لا يقبل بإطراء أو ثناء أحد عليه وهو الأحق به^(١١)، فيقول لمن أثنى عليه (إِنَّ مِنْ أَسَدٍ خَفِ حَالاً بِتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٌ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ وَاسْتِمَاعَ الذَّلِيلِ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لِلَّهِ سُدْبَةً عَنْ تَلَوُّلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْكِرْيَاءِ)^(١٢).

فالإمام عليه السلام لم ير مستحقاً لهذه المحامد والممادح إلا الله سبحانه^(١٣)، ولا أهلاً للتعظيم سواه^(١٤)، فعدل عن مدح الأدميين أو الرغبة فيه تواضعاً لله سبحانه وتعالى، فكان الدعاء الذي يتوجه به إلى الله تعالى يضعه مع سائر الناس على قدم المساواة ليكون دليلاً حياً على افتقاره لله وتواضعه له، إذ يقول (فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عِبْدٌ يَدْمَمُلُوكُمْ وَنَلِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

(٧) ينظر: م.ن: خ ٣٣، ص ٧٦.

(٨) م.ن: خ ١٠٩، ص ١٦٢.

(٩) ينظر: نهج البلاغة: خ ٩١، ص ٢٨٨.

(١٠) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ١٢٤/٢.

(١١) ينظر: نهج البلاغة: قول ١٠٠، ص ٤٨٥.

(١٢) م.ن: خ ٢١٦، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(١٣) م.ن: خ ٩١، ص ١٣٦.

(١٤) يروى أن جماعة من دهاقين الأنساب ترجلوا عند رؤيتهم الإمام عليه السلام وعظموه كما يعظمون أمراءهم فقال لهم الإمام عليه السلام (والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وأربح الدعة معها الأمان من النار). م.ن: قول ٣٧، ص ٤٧٥.

يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا مَلِكُ مِنْ أَنْفُ سَلَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَدْنَا عَلَّيْهِ
فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى^(١).

وقد جمع الإمام عليه السلام إلى التواضع، الحلم والصفح، فلم
يغضب على أحد ولم يشف غيظه بازاء أحد^(٢)، وعلى الرغم من ذلك
الحفاء الذي واجهه بعد وفاة الرسول ﷺ، فالففو هو ما قابلهم به عند أول
خلافته لو توقف الأمر على حقه قائلاً (وَلَوْ أَسْأَلْتُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ)^(٣).

والحلم الذي تعامل به الإمام عليه السلام مع المشركين^(٤)، هو ذاته
الذي تعامل به مع من ناصبه العداء وألب عليه وحاربه، فقد عفا بعد حرب
الجمال لا عن عائشة التي يصف سبب موقفها منه بأنها (أَدْرَكَهَا رَأْيُ
النِّسَاءِ وَضِغْنُ عُلَا فِي صَدْرٍ هَا كَمِرْ جَلِ الْقَنْيِ)^(٥) فحسب، بل تجاوز ذلك
إلى إعلان العفو عن الجميع بعدم الإجهاز على جريح أو إتباع هارب^(٦)،
فكان الصبر قوام زهده وتواضعه وحلمه والمحرك الأساس لذلك.

أما شجاعته عليه السلام فقد كانت الدليل الحي على ذلك الصبر، فقد
أخذ الإمام بأسباب الشجاعة وجمع ضروبها المختلفة وكان مضرباً للأمثال
في قوته منذ صغره والتي كانت باديةً من سماته^(٧)، وصفاته العقلية التي
اختلفت بصفاته النفسية والخلقية التي تخلق بها فطرةً واكتساباً بما رفع له
النبي ﷺ من أخلاقه بفضل التربية المحمدية له^(٨)، وامتزجت بقوة إيمانية
روحية، ونجدة يصفها الإمام عليه السلام بقوله (وَلَقَدْ وَاسَدَ يُهْدِي فِي
الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ
بِهَا)^(٩)، ليكون الأول في كل أمر، والسابق إلى كل نصر.

(١) نهج البلاغة : خ ٢١٦، ص ٣٣٥.

(٢) م.ن : قول ١٩٤، ص ٥٠٣.

(٣) م.ن : خ ١٧٨، ص ٢٥٧.

(٤) ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ١٩٤/٢.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٥٦، ص ٢١٨.

(٦) ينظر : الجمل، الشيخ المفيد (٤١٣ هـ)، تحقيق : علي شريفي، مكتب الإعلام الإسلامي،

إيران، ط ٢، ١٣٧٤ هـ : ٣٨٢.

(٧) ينظر : الطبقات الكبرى : ٢٦/٣.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩١، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٩) م.ن : خ ١٩٧، ص ٣١١.

فقد كان عليه السلام أول فدائي في الإسلام يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله^(٣)، وأول خليفة لرسول الله ﷺ يرد ودائعه ويقتاد النساء إلى المدينة^(٤)، مرة ثانية عند خروج النبي ﷺ إلى تبوك^(٥). وكان الإمام عليه السلام سيف الله المسلول على أعدائه في معارك الجهاد الحائز على أكثر من نصف عدد القتلى في أول لقاء مسلح بين الإسلام والوثنية^(٦)، والأخ المواسي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسيفه في أحد حتى سُمع هاتف في السماء:

(لا قتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار)^(٧).

فكان الإمام عليه السلام في معارك الجهاد حاملاً للواء الرسالة من جانب^(٨)، ولسيفه الناصر للإسلام من جانب آخر، متحدياً لشجعان العرب وأبطالهم^(٩)، حتى كانت قوته وشجاعته إعجازاً في مجتمع دفعته ظروف الطبيعة والترحال الدائم، وما تسبب عن ذلك إلى تعظيم القوة كونها إحدى مبادئ السياسة^(١٠).

وعلى الرغم من صغر سن الإمام عليه السلام واستخفاف المشركين به لهذا الأمر، وكانت شجاعته شلاً لأزر النبي ﷺ ونصرةً لدعوته، فكان الكرّار الذي يتوعد به الرسول ﷺ أعداء الإسلام^(١١)، إذ لا يتراجع عند انهزام القوم ولا يجبن أمام أمر.

(٣) فقد بات في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الليلة التي توجه بها إلى المدينة، وهو يعلم اجتماع القوم واتفاقهم على قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه. ينظر : الإرشاد : ٢٢، المناقب : ١٢٧.

(٤) ينظر : الإرشاد : ٢٣.

(٥) ينظر : فضائل الصحابة : ١٣.

(٦) ينظر : خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت : ٣٩٨.

(٧) ينظر : الكامل في التاريخ، ابن الأثير (٦٣٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ : ٥٥١/١.

(٨) ينظر : الطبقات الكبرى : ٢٣/٣، تاريخ الأمم والملوك : ١٢٣/٢.

(٩) مثل مبارزته لعمر بن ود العامري يوم الخندق. ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ٢٣٩/٢.

٢٤٠، وقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله أنها (أفضل أعمال أمتي إلى يوم القيامة). مستدرك الحاكم، النيسابوري (٤٠٥ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦ : ٣٢/٣.

(١٠) ينظر : حضارة العرب في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية

للدراسات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩ : ١٠٦.

(١١) ينظر : سنن ابن ماجه، القزويني (٢٧٥ هـ)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت : ٤٤/١.

ولم يكن السيف والسبق دليلاً على قوة الإمام عليه السلام وشجاعته فحسب، فالإمام هو المقتلح الأول لما لم يستطع جمع اقتلعه، فتارة باب خيبر التي لم يتمكن سبعون رجلاً من إعادتها إلى مكانها^(٣)، والتي قال عليه السلام عن قلعتها (ما قلعتها بقوة بشرية، ولكن قلعتها بقوة إلهية، ونفس بقاء ربها مطمئنة رضية)^(٤)، وأخرى (هبل) أكبر صنم في مكة الذي اقتلعه من أعلى الكعبة بعد أن أعلاه النبي ﷺ على ظهره إكراماً له وبياناً لفضله، وأخرى الصخرة العظيمة التي عجز جيش عن رفعها وانبط الماء من تحتها^(٥).

لقد كان الإيمان قوة اجتمعت بقوة الإمام عليه السلام الجسدية فأكسبته قوة ربانية، إذ كان يهرول في الحرب دون أن يهاب الموت، ويخرج للرجل الدارع حاسراً فيقتله، ولذا لم تخرجه قوته عن حق ولم تمل به إلى باطل، بل كانت قوته وضعاً للحق في مواضعه الصحيحة، وشجاعته تجسداً لأخلاقه العالية^(٦).

وقد كانت سمات الإمام عليه السلام المتفردة تعبيراً عن أخلاق إلهية رفيعة لمن تربي على الأخلاق المحمدية التي شهدها العرب جميعاً، ومنبعاً لسمات شتى تفرعت منها، وتأزرت مع مواقفه الإعجازية التي كان يسبق الجميع بها فكانت أسباباً مادية شهدها الجميع، وتساوقت مع نزول الآيات القرآنية التي تشيد بها وتباركها، وتثني على حاملها وتتحدى كل منكر عن الإتيان بها، وتشير لسبقه إلى كل فضيلة، بل كان الإمام عليه السلام منبع كل فضيلة والسابق إليها، وبه والأئمة من بعده عليهم السلام عرفت الفضائل^(١)، فيعلنها النبي ﷺ ويتوجها بأحاديثه الشريفة ويوثقها بأقواله، حتى كان يخاف على أمته من عدم تحمل ما وصف من شأن الإمام عليه السلام وإعلاء ذكره.

(٣) ينظر : السيرة النبوية، ابن هشام (٢١٣هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت : ٣/ ٣٤٩.

(٤) صحيفة الأبرار : ١/ ٣٤٤.

(٥) ينظر: شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ١٧/١.

(٦) ومن ذلك قوله لابنه الحسن عليهما السلام (لا تدعون إلى مبارزة، وإن دعيت إليها فأجب،

فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع). نهج البلاغة : قول ٢٣٣، ص ٥٠٩.

(١) يروى عن الإمام علي الهادي عليه السلام في قوله تعالى ((ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمّ من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)) (سورة الكهف/ ١٠٩) أنه قال (نحن كلمات الله التي لا تنفد ولا تدرك فضائلنا). تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ابن شعبة الحرّاني، رابطة أهل البيت، إيران، ١٣٧٦هـ : ٤٧٩.

ويشهد النبي ﷺ على منزلة الإمام عليه السلام من نفسه، فهو أخو رسول الله ﷺ ووليّه، وحبيبّه، وخائليّه، ومفخرته، وأمينه، ونظيره، ووزيره، ووصيه، وصاحبه، ورفيقه، ووارثه، وصفيّه^(٢)، ليوجههم إلى التأسّي به بعد النبي ﷺ والتزام صفّه، مثلما يؤكّد منزلته من الإسلام بوصفه بنعوت وأوصاف عدة تساوقت مع أفعاله المعجزة^(٣)، ولا سيما تسميته (أمير المؤمنين)^(١)، ودعوة الناس للسلام عليه بهذه التسمية^(٢)، ليكون تنصيب الإمام عليه السلام في غدير خم تتويجاً وإعلاناً لتوليه أمور المسلمين^(٣).

(٢) ينظر : الإمام علي في الأحاديث النبوية، محمد إبراهيم الموحّد، دار الأنصار، قم، ط ١، ٢٠٠٢، إذ يجمل فيه -من كتب التاريخ والسير- معظم أحاديث الرسول صلى الله عليه واله وسلم التي فردّ بها الإمام عليه السلام وأوضح منزلته من نفسه.

(٣) ينظر : إحقاق الحق وإزهاق الباطل، نور الله الحسيني المستري، المطبعة الإسلامية، إيران، ١٩٦٦ : ٤ / ٤ - ١٠.

(١) ينظر : الإرشاد : ٢٠-٢١، المناقب : ٤٠. وقد أصبحت هذه التسمية وصفاً عاماً يطلق على من يتولى أمور المسلمين. ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ٢٧٧/٣.

(٢) ينظر : الإرشاد : ٦٨-٧٠.

(٣) ينظر : فضائل الصحابة : ١٥.

التمهيد

الخطابة والتوصيل

الخطابة لغة : من خطب، يخطب، خطابة.
والخطبة هي اسم الكلام الذي يخطب به، فالخطبة عند العرب هي كلام منثور مسجّع "مثل الرسالة التي لها أول وآخر"^(١).
والخطابة فن نثري قديم عماده اللسان، نشأ مرتبطاً بفطرة الإنسان، ملبياً لحاجاته وحاجات مجتمعة في الدفاع عن النفس وجمع الرأي وتجاوز الخلافات ووحدة الصف، فهو "ركن من أركان الحياة الاجتماعية في كل عصر وفي كل أمة"^(٢)، لم تخل منه أمة من الأمم.
والخطابة هي "فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الاقتناع والاستمالة"^(٣)، وقوامه القدرة على الارتجال^(٤).
وارتباط الخطابة بفطرة الإنسان جعلها الأسلوب الأمثل لتبليغ الشرائع السماوية وتوصيلها إلى الناس بمخاطبتهم والتأثير فيهم واقناعهم ولذلك فقد لازمت الخطابة ظهور الأنبياء والرسل لاعتمادها وسيلة لأداء مهمتهم وتوصيل عقيدتهم، فالخطابة "هي خير ما يستعين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة والأنبياء والمصلحين في الدعوة إلى مذاهبهم وعقائدهم، لكونها الوسيلة المثلى للاتصال بالجماعات والتأثير فيها واستمالتها"^(٥).

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، دبت، مادة خطب .

(٢) التوجيه الأدبي، طه حسين، وزارة المعارف، مصر، ١٩٥١ : ٢٧.

(٣) م.ن : ٢٦.

(٤) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان، بدوي طبانة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦ : ١٤٣.

(٥) الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣ : ٣٠.

والتوصيل لغة : من وصل، "وهو كل شيء اتصل بشيء فيما بينهما وصلة وموصل البعير ما بين عجزه وفخذه" ^(٢)، واللفظة تقلبات عدة تدور جميعها حول فكرة واحدة هي علاقة تربط بين طرفين أياً كان نوعها، يصبحها انتقال وحركة، فمن دعوى ^(٣) إلى انتساب ^(٤)، إلى التثام وعدم انقطاع ^(٥)، إلى بلوغ وانتهاء ^(٦).

ومنه "وصله توصيلاً إذا أكثر من الوصل" ^(٧) أي ضمّه ولأمه، ووصل الشيء إليه "أنهائه إليه وابلغه إياه" ^(٨)، ومن هذين المعنيين أخذ معنى التوصيل، فالتوصيل تبليغ وإنهاء بموقف يضم طرفين مصحوباً بانتقال بينهما.

وتبليغ الرسالة توصيل لأقواله تعالى إذ قال ((هذا بلاغ للناس)) ^(٩)، "أي

تبليغ" ^(١٠).

والبلاغ "ما يبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب" ^(١)، فتوصيل القول: تبليغه، والبلاغة سمة هذا القول فقد "سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه" ^(٢) أي توصله، لذا لم يكن التوصيل هدف الرسالة السماوية فحسب، بل الوسيلة المؤداة بها، وذلك لاقتربانها

^(٢) العين، الخليل الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الميلاد، قم، ط ١٤١هـ، مادة و ص ل.

^(٣) ورد في الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق : احمد عبد الغفور عطا، دار العلم بيروت : مادة و ص ل، "وصل بمعنى اتصل، أي دعا دعوى الجاهلية، وهو أن يقول يا فلان، قال تعالى ((إلا الذين يصلون إلى قوم)) أي يتصلون"، (سورة النساء/٩٠).

^(٤) ورد في العين : مادة و ص ل (اتصل الرجل، أي انتسب فقال : يالفان).

^(٥) ورد في الصحاح : مادة و ص ل (وصله كلاهما : لأمه. وفي التنزيل ((ولقد وصلنا لهم القول)) (سورة القصص/٥١) أي وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض، لعلمهم يعتبرون). وفي أساس البلاغة : ٥١١/٢ (وصل الجبال وغيرها توصيلاً : وصل بعضها ببعض ومنه ولقد وصلنا لهم القول).

^(٦) ورد في اللسان : مادة و ص ل "وصل الشيء إلى الشيء وصولاً وتوصل إليه : انتهى إليه وبلغه، قال أبو ذؤيب : توصل بالركبان حيناً، وتولف الجوار، ويغشيها الأمان ربابها".

^(٧) م.ن : مادة و ص ل.

^(٨) م.ن : مادة و ص ل.

^(٩) (سورة إبراهيم/٥٢).

^(١٠) ينظر : كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)، دار الفكر

العربي، تحقيق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، ط ٢، دبت : ١٢

^(١) لسان العرب : مادة و ص ل.

^(٢) كتاب الصناعتين : ٣

بالبلاغة، فالبلاغة انتهاء ووصول من جانب وفصاحة وحسن قول من جانب آخر^(٣).

أما الخطابة فهي "عملية أداء وإيصال رسالة كلامية من متكلم إلى مستمعين بهدف التأثير والإقناع"^(٤)، ولذا فقد ارتبطت عملية التوصيل بأداء الرسالة السماوية في موقف واحد بين طرفي الإرسال، فهي تجمع أطرافاً ثلاثة في موقف خطابي واحد، مرسلًا ومخاطبًا ورسالة.

وعملية التوصيل هي الأساس الذي قام عليه النقد الأدبي بالنظر إلى الخطاب الأدبي كونه صادراً عن منتج يتوجه به إلى متلقٍ، فعمله بمنزلة رسالة لان المنتج لا ينتج العمل لنفسه بل يتوجه به لجمهور محاولاً إيصاله له، ولذلك فقد كانت الخطابة مفتحة لدراسة النقد عند الإغريق وفيهم نبوات بني إسرائيل، وعند الرومان وظهور المسيحية، وعند العرب وظهور الإسلام، في أولى المؤلفات النقدية في العالمين الغربي والعربي على السواء، ولكن بعد تطور تلك الخطابة التي وجدت عند الأنبياء من بلاغة إيصالية ارتبطت بخطابهم الموجه إلى الناس^(٥)، المتفرد بتكليفه بحسب عقولهم لإثارة دفائنها إلى فن تزويق شكلي يوجه لأغراض نفعية مادية لا لهداية رسالية - كما بدأت عند الأنبياء - وتحولها إلى مجموعة قواعد يلتزم بها الخطيب.

الخطابة عند اليونان والرومان

تطورت الخطابة عند اليونان بفعل تضافر عوامل عدة منها : سيادة حرية الفكر والقول^(١)، وانتشار العلم والفلسفة، واحتدام الجدل السياسي فيها^(٢)، واعتمادها أساساً للتصويت في المجالس السياسية^(٣)، وطموح

(٣) ينظر : البحث البلاغي عند العرب، احمد مطلوب، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢ : ٥.

(٤) فن الخطابة والتبليغ الإسلامي، شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ : ١١.

(٥) ينظر : التوجيه الأدبي : ٤٥ - ٤٦.

(١) ينظر : التوجيه الأدبي : ٢٨.

(٢) ينظر : فن الخطابة، احمد الحوفي، دار النهضة، مصر، ط٤، ١٩٧٢ : ٢٠٦.

(٣) ينظر : التوجيه الأدبي : ٤٥.

الشباب لشغل المناصب العليا التي يتم ارتقاؤها بالاعتماد على سلم الخطابة التي تمكنهم من اجتذاب الجماهير وقيادتها^(٤).

وقد كانت الحروب الخارجية التي خاضتها البلاد وحافزاً لهم علىلقاء الخطب لشحذ الهمم وإثارة الحماس^(٥)، مما أثنى إلى رقي الخطابة السياسية عندهم فقد كانت الخطابة وسيلة رئيسة للاتصال بالشعب، ومهنة تستهوي الأحرار، ولا سيما بعد ان أصبحت الصناعات الأخر مهنة للأرقاء^(٦)، بل إن هناك من يرى أن الكلمة نفسها (الخطبة) كانت عندهم

مساوية لكلمة (سياسة)^(٧).

فضلاً عن اعتماد الخطابة أساساً لإصدار الأحكام القضائية في ظل عدم تقييد القضاة بقانون معين، إذ كان يحظر على المتقاضين الاستعانة بمحام، ويحتّم عليهم الترافع بأنفسهم، مما حول الخطابة القضائية الى صناعة لفظية فاشية، وشجّع على اتخاذها مهنة بظهور المحترفين لكتابتها وإعدادها بأساليب بلاغية جميلة ومؤثرة، قادرة على إقناع العقول بحجج تثير المشاعر لا ببراهين وعلل منطقية.

وقد كان كل ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الخطابة وارتباطها بفن البلاغة، وتطور البلاغة بفعل ذلك، حتى كانت للبلاغة والخطابة كلمة واحدة تعبر عنهما وهي الريطوريقيا^(١)، فالخطابة عند اليونان إعداد لأفكار مقنعة للسامعين وتنسيقها بشكل متسلسل مترابط باستقصاء معنى ثم انتقال لغيره مع عنايتهم بالاساليب وإعدادها^(٢)، ولذا يمكن عدّ البلاغة مدينة للخطابة بتطورها واتساع قواعدها وفنونها^(٣).

(٤) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات، بغداد، ١٩٧٨ : ١٤٨.

(٥) ينظر : التوجيه الأدبي : ٢٨.

(٦) ينظر : فن الخطابة : ٦٧.

(٧) ينظر : الخطبة كنثر فني، عثمان بو غانمي، تونس، ١٩٧٨ : ١٤٥.

(١) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٤٧.

(٢) ينظر : فن الخطابة : ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٣٩.

ومما زاد في قوة الخطابة ظهور السفسطائيين^{*} الذين عرفوا بـ
(المعلمين) أو (الحكماء)^{**} ، فقد طافوا في البلاد ومارسوا الخطابة "ممارسة

عملية"^(٤) معتمدين عليها في بث افكارهم الفلسفية، ونشر آرائهم في اعتماد المنفعة وتقديمها على الحقيقة، وفي عدّ الخطباء صنّاع الكلام ومهندسيه فشغلوا الناس بجدلهم الذي اكسبوه طواعية بحمل ادق الأفكار، فجاء مملوءاً بالفصاحة والفنية في نسج الكلام، مكسواً بالجمال، مشحوناً بالتأثير الانفعالي^(٥).

وقد كان لذلك دور كبير في سموّ القول، حتى اصبح النثر الفني لا الخطابة وحدها- مديناً في رقيه للسوفسطائيين، مما أدى ذلك إلى ارتفاع منزلة الخطيب إلى منزلة العالم والفيلسوف، بل ربما حلّ محلّهما، وبلغ إجلالهم للخطيب درجة دفعت ببعضهم إلى إقامة تمثال لعدد من خطبائهم من الذهب الخالص في أحد معابدهم تخليداً لهم^(١)، فبرز عدد غير قليل من الخطباء، ومنهم لوسياس وجورجياس^(٢)، وديموتسين الذي يعد من أعظم خطباء أثينا.

وقد أهتم الخطباء بخطبهم وتوصيلها إلى جمهور السامعين، فقد حاول بعض الخطباء تجاوز بعض عيوبهم التي تحول دون وصول تلك الخطب، ومنهم ديموستين الذي عمد إلى تدريب نفسه برياضة شاقة لتجاوز عيوب لسانه بعد سماعه لسخرية سامعيه منه، فعكف على المطالعة بعد ان حلق نصف رأسه ليرغم نفسه على البقاء في منزله للتمرّن على الخطابة، وكان يضع حصاة في فمه ويخطب فوق امواج البحر متخيلاً

* السوفسطائي "معناها في الأصل العالم في فن أو مهنة، ثم اصبح معناها الرجل الحكيم، ومنذ منتصف القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت الكلمة تطلق على كل من يعلم البلاغة أو السياسة أو الرياضة نظير اجر"، ثم تطور المعنى فاصبح معيياً يطلق على "الرجل الجدل أو الولوع بالجدل". النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، دت : ٢٦.
** أطلق هذه التسمية السفسطائيون أنفسهم لأنهم يرون استحالة العلم اليقيني لذا فالخطباء والبلغاء اجدر بها. فن الخطابة : ٢٠٧.

(٤) م.ن : ٢٠٧.

(٥) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٣٩-١٤٠.

(١) ينظر : فن الخطابة : ٢٠٩.

(٢) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ٢٥.

نفسه في مواجهة الجمهور محاولاً فك عقدة لسانه وإصلاحها، بغية إيصال صوته لسامعيه^(٣).

وعلى الرغم من الخدمة التي أسداها السفسطائيون للخطابة والأثر الذي كان لهم في تطويرها، فقد أثار تزييفهم للحقيقة وتمويههم لها باقناع الجمهور بما كان وهماً، سعياً وراء هدفهم (المنفعة) وتعبيراً عن ميولهم وأهوائهم^(٤)، أثار ذلك سخط النقاد واغلبهم من كبار الفلاسفة الذين اندفعوا ولغاية أخلاقية – للتصدي لهم بتعقب آرائهم ومناقشتها وتقنيدها^(٥).

فقد أنكر سقراط الخطابة -بمعناها السوفسطائي لا جهلاً بأهميتها- لبعدها عن الحقيقة بوصفها عاملاً مشجعاً على الكذب ووسيلة للتمويه والتضليل وعاملاً مشجعاً على الكذب^(٦)، بلغة منمقة وبراهين خطابية خادعة وفن صوري بحث هدفه التشويه للتأثير في الجمهور^(٧)، لذا لم يعد سقراط الخطابة علماً فاللغة المنطقية وحدها سبيل الوصول إلى الحقيقة^(٨)، مثلما لم يعتّها فناً، فالفن غايته الخير، بل هي نوع من الجدل وعادة تكتسب بالمران^(٩)، لذلك فقد فضّل استخدام أسلوب الاستجواب.

وتبعه تلميذه أفلاطون الذي رأى ان معنى الخطابة هو "دراسة وجوه الكلام وكيفية تأثيره"^(١٠)، فالخطابة عنده غير كافية في إدارة سياسة الدولة، لأن محورها الفصاحة وقوة اللسان لا الحقيقة وحدها، وبذلك فهو لم يرفض الخطابة مطلقاً، إلا أنه حذر من إساءة استعمالها ودعا إلى تنقيتها من التمويه السفسطائي^(١١)، فالخطابة عند أفلاطون لازمة لنقل الأفكار الفلسفية وخدمة الحقيقة -والحقيقة برأيه هي الفضيلة- وطريق للوصول إلى المعرفة أو تشخيصها^(١٢)، ولذلك جعلها مادة تدرس في الأكاديمية التي أنشأها^(١٣).

(٣) ينظر : التوجيه الأدبي : ٤٨.

(٤) ينظر : دراسات في نقد الأدب العربي، بدوي طبانة، مكتبة الانجلو، مصر، ط٤، ١٩٦٥

: ١٤١.

(٥) ينظر : فن الخطابة : ٢٠٧.

(٦) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٥٥.

(٧) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ٦١-٦٢.

(٨) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ٦١-٦٢.

(٩) ينظر : الخطابة، أرسطو، تحقيق : عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠.

(١٠) النقد الأدبي الحديث : ٣٥.

(١١) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٤٢.

(١٢) ينظر : النقد الأدبي الحديث : ٣٥.

(١٣) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ٥٩-٦٠.

وظهر اهتمامه بفكرة التوصيل من خلال استخدامه أسلوب المحاوره واتخاذ سبيلاً للوصول إلى المعرفة، وعه الأسلوب الأمثل للوصول إلى الحقيقة ، ولذلك فضّل الكلام على الكتابة في التعليم والخطابة على الشعر^(٧).

وقد كان هذا الحوار "في شكل الحوار الحي الذي يتبادل المتكلم مع السامع أمامه"^(٨) مع أناس حقيقيين ذوي خبرة في الحياة^(٩). ثم توسّع في استخدامه المحاوره اعتماداً على المحاكاة، والمحاكاة عنده تدل "على العلاقة الثابتة بين شيء موجود ونموذجه"^(١٠)، ووسع هذه المحاكاة لتشمل مظاهر الوجود بأكمله وحقائقه بما فيها اللغة التي عدها "محاكاة لما ندركه من الأشياء التي بدورها محاكاة"^(١١)، بل إنها بفنونها المختلفة طريق للتأثير بين عالمي المثل والحس وأداة له.

ومن هنا يمكننا أن نلمح فكرة التوصيل عند أفلاطون في نظريته للعمل الأدبي بوصفه لا يقتصر على اللغة فحسب، بل يتعداها إلى وجود طرفين متحاورين أو متفاعلين. وقد كان موقف الفلاسفة من الخطابة سبباً في التقليل من شأنها وتجريدها من فضائلها مدة من الزمن، حتى جاء أرسطو - تلميذ أفلاطون- الذي نظّر للخطابة في كتاب سمّاها (الخطابة).

فقد درس الخطابة بوصفها ظاهرة أدبية جديدة بالدراسة^(١٢)، ووضع حدودها وربطها بعملية التوصيل، وعثا فناً قولياً وعلماً من علوم اللغة إلى جانب المنطق والشعر^(١٣)، محاولاً إظهار فائدتها منصفاً الخطابة والخطباء، في محاولته الرد على من يرى الخطابة سلاحاً ذا حدين، بأن الخطابة مثل أي عمل نافع قد تؤدي إلى الضرر إذا أسيء استعمالها، فالضرر الناتج لا يعود إلى الخطابة نفسها بل إلى سوء استخدامها^(١٤).

(٧) ينظر : النقد الأدبي الحديث : ٣٧.

(٨) م.ن : ٣٧.

(٩) ينظر : مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديماً وحديثاً، فائق متى اسحاق، مكتبة الانجلو،

مصر، د.ت : ٢٥/١.

(١٠) النقد الأدبي الحديث : ٣١.

(١١) النقد الأدبي الحديث : ٣٠.

(١٢) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٥٦.

(١٣) ينظر : النقد الأدبي الحديث : ٤٥.

(١٤) ينظر : الخطابة : ٢٨.

وعلى الرغم من متابعة أستاذه في بعض آرائه لم يقبل كل ما صدر عنه^(٥)، فالخطابة تتناسب مع الجدل في توجهها لمخاطبة الآخر أو إقناعه^(٦)، وفي كونها فطرة وسليقة عند بعضهم، وعادةً ومراناً عند بعضهم الآخر، وفي الدفاع عن القضية أو عكسها، وفي التوصل إلى نتائج متضاربة^(٧)، وفي ربط الخطابة بالجدل ربط بينها وبين عملية التوصيل بالإشارة إلى كونها فناً، يجمع طرفي الخطاب المتجادلين، فالخطابة هي "الكشف عن الطرق الممكنة للاقناع في أي موضوع كان"^(٨)، ومهمتها معالجة ما يستوجب المناقشة دون التقيد بقواعد معينة أو صنف معين من الموضوعات^(٩).

ويكون الكشف من خلال "تصديقات"^(٣) أو أدلة، فالخطابة عنده تقوم على البرهان بحجج غير فنية يستعين بها الخطيب، ويحصرها في خمسة أنواع (القوانين، ومركز الشهود، والعقود، والاعتراف القسري المنتزع، واليمين)^(٤)، وحجج فنية رئيسة يحاول الخطيب استخراجها بوسائله وتظهر فيها براعته ونجاحه في اقناع الآخرين، ويتصل هذا النوع من الحجج بكل عنصر من عناصر الخطبة^(٥)، والخطبة أربعة أقسام وهي (الاستهلال، والعرض، والدليل، والخاتمة)^(٦).

ويحدد أرسطو لكل خطبة عناصر ثلاثة وهي (الخطيب، وموضوع الخطبة، والسامع)^(٧)، وهي تشكل في الوقت ذاته أطراف عملية التوصيل التي يشير إليها بعد الخطابة جدلاً، ثم ينسج علاقات تربط بين هذه الأطراف وما يتصل بها، فيصنّف الخطابة تبعاً لغايتها التي تتصل بالعنصر الثالث (السامعين) مع مراعاة عامل الزمن الى ثلاثة أنواع:

مشورية: يتقدم بها الخطيب لسامعيه ناصحاً أو محذراً في أمور مستقبلية.

(٥) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٤٩.

(٦) ينظر : م.ن : ٢٣.

(٧) ينظر : م.ن : ٢٧-٢٨.

(٨) الخطابة : ٢٩.

(٩) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٥٠.

(٣) الخطابة : ٣١.

(٤) ينظر : م.ن : ٩٣-١٠١.

(٥) ينظر : م.ن : ٢٩.

(٦) ينظر : م.ن : ٢٣٤.

(٧) ينظر : م.ن : ٢٩.

قضائية: يتوجه فيها الى الاتهام او الدفاع في امور ماضوية.

استدلالية: مدحاً أو ذمماً في أمور حاضرة قد يعود فيها الخطيب الى الماضي أو يتجه إلى المستقبل^(١)، والقضائية اكثر الأنواع شهرة عند اليونان ولذلك يشدد أرسطو على "إبعاد المؤثرات الخطابية والانفعالية الخاصة عن القضاة، وإلا جانببت أحكامهم العدالة" ^(٢).

أما غاية الخطابة فهي الإقناع بتحريك الافكار واثارة المشاعر معاً، مع تشديد أرسطو على الغاية الخلقية، فلا يكون الإقناع بما يصاد الأخلاق، موضحاً اعتماد براهينها على المنطق في اغلب الأحيان^(٣)، وارتباطها به إذ تعد الخطابة عند أرسطو " فرعاً من المنطق ومن علم الاخلاق والسياسة " ^(٤).

ويمكن عدّ كتاب أرسطو الأول في تأصيل علم الخطابة ودراستها على وفق أسس متينة، ووضع أصول وقواعد لها بما يجعله "دستورا للخطابة" ^(٥)، وفي ربطها بعملية التوصيل بذكر عناصر الخطبة ونسج علاقات بين بعضها البعض من خلال هذا الفن.

إلا أن اعتماد الخطابة اليونانية على الاعداد والكتابة مسبقا اكثر منها على الارتجال جعلت كتابه - اذا ما استثنينا منه ما يخص مواجهة الخطيب لجمهوره ومراعاته لانفعالاتهم لمعرفة وسائل التأثير فيهم- ينطبق على الأدب النثري بأجمعه لا الخطابة حصراً^(٦)، وفي معالجته لصياغة الأفكار في الجمل والعبارات دون فرق بين الشعر والنثر^(٧) خير دليل على ذلك .

أما الرومان -الذين بزغ نجمهم في الخطابة بعد أفوله عند اليونان- فلم تكن الخطابة عندهم بأقل حظاً من اليونان فقد كانوا تلامذتهم في العلوم والفنون^(٨)، إلا أن الخطابة كانت أول أمرها ضعيفة؛ "لانصراف همتهم إلى الحروب" ^(٩)، وعدم توفر الحرية الكافية^(١٠)، ثم قويت بعد

(١) ينظر : الخطابة : ٢٣.

(٢) النقد الأدبي عند اليونان : ١٥٤.

(٣) ينظر : النقد الأدبي الحديث : ٩٤ - ٩٦.

(٤) م.ن : ٤٣.

(٥) فن الخطابة : ٢٠٨.

(٦) ينظر : النقد الأدبي عند اليونان : ١٤٣.

(٧) ينظر : النقد الأدبي الحديث : ١١٢.

(٨) ينظر : فن الخطابة : ٢١١.

(٩) علم الخطابة، لويس شيخو، الآباء اليسوعيين، بيروت، د.ت : ٢٢٩/٢.

ضعف اليونان واستيلاء الرومان على أثينا عام ١٤٦ ق.م، وإخضاعها لهم حضارياً وأدبياً بعد استعمارها عسكرياً وإدارياً، ثم انتقال المثقفين اليونان إليها.

لقد ظهر التأثير الأثيني على الرومان بعد ان وجد الفرصة مواتية في قوانينهم التي تسمح للمحامي بالدفاع عن المدعى عليه، فكان وجود مهنة المحاماة والدراسة على ايدي خطباء اليونان^(٣)، ثم الحروب الأهلية التي جرت فيها اثر احساس العامة بسوء حالهم والثورة على الطبقة الارستقراطية^(٤)، فضلاً عن العناية بمدارس البيان ومناهجها، وحصر التربية العالية في الخطابة لكونها وسيلة للرقى الى مجالس الشيوخ^(٥).

وقد كان لذلك اثر واضح في تطور الخطابة السياسية والقضائية عند الرومان، وتأثرها بالثقافة القانونية وتميزها بالاستنباط والقياس عن اليونان الذين تأثروا بالقضايا الفلسفية ودراساتهم فيها معتمدين على الأدلة، فالخطابة عند الرومان صياغة معانٍ معدة وأفكار مدروسة بأساليب تلائم السامعين بعد تنسيق هذه المعاني ووصل بعضها ببعض^(٦).

وقد كان ظهور المسيحية ونزاعها مع الوثنية عاملاً مهماً في رقي الخطابة بعد ضعف انتابها، وسبباً لظهور الخطابة الدينية ونبوغ خطباء الكنيسة لنشر دينهم والدفاع عنه^(٧)، وتشديداً على ارتباط الخطابة بعملية التوصيل.

وعلى الرغم من ازدهار الإبداع الأدبي عند الرومان، ولا سيما في المجال الخطابي، انصبّ جلّ اهتمامهم في مؤلفاتهم على العلوم المتصلة بهذا الإبداع من نحو وبلاغة وبعض بذور النقد "لم يكن للنقد مؤلفات خاصة به"^(٨)، لذا لم يضيف الرومان شيئاً فيما وجد من النقد متفرقاً في عدد من المؤلفات إلى ما عرفه اليونان.

ومن ملاحظة أحوال الخطابة عند اليونان والرومان نجد ان الخطابة عندهم لم تمض على وتيرة واحدة ولم تنفصل عن مجتمعها الذي ولدت فيه، فهي شديدة الارتباط به تضعف بضعفه وترقى برقيه، وانها كانت

(٢) ينظر : التوجيه الأدبي : ٤٩.

(٣) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٥٩.

(٤) ينظر : التوجيه الأدبي : ٤٩.

(٥) ينظر : فن الخطابة : ٢١١.

(٦) ينظر : م.ن : ٢١٢.

(٧) ينظر : الخطابة، نقولا فياض، إدارة الهلال، مصر، ١٩٣٠ : ١١٩.

(٨) مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا : ٣٦.

تلقى بعد إعداد وتنقيح وتنميق لاساليبها قبل إلقائها، فكانت الكتابة عاملاً في الحفاظ على خطبهم والحيلولة دون ضياعها.

الخطابة عند العرب

لم يكن للخطابة عند العرب الشأن نفسه عند اليونان مقارنةً بالشعر، فعلى الرغم من ارتباط الخطابة بالفطرة، وعدم خلو مجتمع منها، إلا أن طبيعة الصحراء القاسية وانقسام العرب إلى قبائل متعددة، يسودها التعصب القبلي ويميزها الطابع الفروسي وكسب العيش بالغزو والقتال جعلت الشعر أكثر تطوراً وانتشاراً من الخطابة في العصر السابق للإسلام.

وقد كان الشاعر مقدماً على الخطيب في العصر السابق للإسلام، إذ كان لسان القبيلة الناطق معبراً عن حاجاتها؛ ومسجلاً لمآثرها، ومخلداً لفرسانها، ومهولاً لأعدائها، فكانت حاجة القبيلة إلى شعره سبباً أساساً للاحتفاء به^(٢).

لقد كانت العرب في الجاهلية "تحيا حياة بدوية صحراوية تمتاز بالفقر والخشونة والضرب في جوانب هذه الفياقي وبالعصبية القبلية، والحروب المطردة، والبداة الثقافية، فكان الأدب أو الشعر الجاهلي خشن الألفاظ، بدوي الخيال، يتخذ عناصره من الجبال والوعول والدواب والرمال، أولي العواطف، سطحي الأفكار"^(٣)، متجانساً مع طبيعة الحياة العربية التي لا تتناسب مع طبيعة النثر الذي يعتمد على العقل أكثر منه على العاطفة، ولذا لم تبرز من ألوان الخطابة الجاهلية إلا ما اتصل بحياتهم القبلية من مناظرات ومفاخرات، وحض على قتال، أو إصلاح ذات البين، وما كان مرتبطاً بالديانة الوثنية من سجع الكهان^(٤).

ولم يتعدّ ما وصل إلينا من الخطب كونها فقرات قصيرة، وعبارات موجزة، وجمالاً منفصلة يغلب عليها التكرار، حتى غدت أمثالاً سائرة^(٥)، وخواطر متقطعة يغلب عليها التعميم والإطلاق، تعبر عن طبيعة حياة العرب البسيطة الساذجة البعيدة عن التعقيد "لضالة نصيب الجاهليين من

(٢) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ، (١٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المجمع

العلمي، بيروت، د.ت: ٢٤١/١.

(٣) أصول النقد الأدبي، احمد الشايب، النهضة، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤: ٨٤.

(٤) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ٩-١١.

(٥) ينظر: البيان والتبيين: ٢٧١/١.

الثقافة الفكرية"^(٣)، لذا لم يكن لخطبهم سنناً واضحة أو تقسيمات محددة، إذ كان الخطيب يباشر كلامه دون تقديم مسبق، وينهيه دون ختام، إذ لم تكن له تقاليد ثابتة يسير عليها، ولكن بما لا يخلو من الصنعة التي تتجاوز أسلوب الخطبة إلى طريقة إلقاء الخطيب وعاداته في الأداء بعيداً عن البداهة والارتجال، وهذه بعض المزايا التي أمكن التوصل إليها بالحكم على الخطب القليلة التي وصلت إلى عهد التدوين وساد الشك في صحة أكثرها^(٤)، ولا سيما مع ما أضفي على العرب من موهبة سحرية كانت الرغبة في الرد على الشعوبية دافعاً وسبباً مباشراً لإضافته عليه^(٥).

أما في العصر الاسلامي فقد كان بزوغ شمس الاسلام ببعثة النبي الاكرم محمد ﷺ ودعوته للدين الحنيف إيذاناً ببداية عهد جديد في الخطابة، فقد احدث الإسلام انقلاباً جذرياً في الحياة و"نهضة ادبية وجهها القرآن الكريم، وقومتها احاديث الرسول، وكتبه، وخطبه"^(٦) مما أدى إلى تغير في مناحي الفكر والقول.

لقد كان لنزول القرآن الكريم المعجز للعرب بفصاحته وبلاغته، وما أحدثه الوحي من نقلة كبيرة في الحياة من المحسوس إلى المجرد^(٧)، وتأثرهم بأسلوبه البليغ المتماسك المحكم وميلهم للاحتذاء به في عصر سمي عصر القرآن، اكبر الأثر في الأدب عامة وفي الخطابة بشكل خاص، فقد أذكى الإسلام الخطابة لما استدعى في بث الدعوة ونشرها^(٨)، فقد كانت ثورة النبي الأعظم ﷺ ثورة فكرية عقلية قبل ان تكون ثورة سياسية، وقد كانت الخطابة الوسيلة الرئيسة المعبرة عنها.

لقد أزاح الإسلام ما كان قائماً بين العرب من تنافر وتفاخر بالاحساب والأنساب وغزو وثأر، وقضى على أضغانهم وأحقادهم -بعد جعله الولاء للدولة محل الولاء للقبيلة التي كانت سائدة عندهم- بمعان سامية من (حرية وعدالة ومساواة... الخ) باعثها الأول الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، وغايتها الأساس الارتقاء بالإنسان العربي والسمو به لما فيه صلاحه وإصلاحه في الدنيا والآخرة.

(٣) الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ١٨.

(٤) ينظر : م.ن : ١٤.

(٥) ينظر : م.ن : ١٦-١٧.

(٦) النشر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بليغ، الاستقلال، مصر، ط٣، ١٩٧٥ : ٧٠.

(٧) ينظر : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٤ : ١٩٥.

(٨) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٧١.

فكان ذلك مدعاة لحرب خطابية اثر النزاع القائم بين قديم ألفه العرب وجديد خارج عنه، ولاسيما بعد اتخاذ الخطابة أداة لنشر الدعوة الإسلامية، وذلك بالوعظ بتعاليمها تارة، وتشريع أحكامها تارة أخرى، والجمع بين الاثنين تارة ثالثة لتنظيم المجتمع الإسلامي^(٢)، مع تقرير وتأييب العاصين^(٣)، وجعل الخطابة ميزاناً لانتقاء رسله إلى الملوك والأمراء لنشر الدعوة فكان لذلك اثر في تطور الخطابة، وتأييد معانيها ببيانهم وفصاحتهم.

وقد حدّ الدين الإسلامي ألوان الخطب الجاهلية من سجع الكهان المرتبط بالوثنية، وخطب المنافرات والمفاخرات، وإن كانت الخطب التي شهدتها السقيفة بعد وفاة الرسول ﷺ لم تخل من مفاخرات جاهلية مختلطة بمعانٍ إسلامية^(٤).

وقد ازدادت أهمية الخطابة بعد هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث جعل الخطابة فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والاعياد ومواسم الحج مشدداً على أهميتها في جمع المسلمين وتوحيد صفهم . وقد كان الرسول ﷺ أعظم خطيب عرفه التاريخ الإسلامي، فكلامه هو "الكلام الذي ألقى عليه المحبة وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، فلم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار"^(١)، وقد خطّ الرسول ﷺ نهجاً جديداً للخطابة، فما إن يخطب حتى تستحوذ خطبه على صدور سامعيه، وتمتلك قلوبهم.

ومع قلة ما وصل إلينا من خطب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم كان وقعها على معاصريه وأثرها في تطور الخطابة، وطول مدة نزول الوحي، الذي كانت الخطابة سبيلاً لإيصال أكثره خير شاهد على كثرتها إلا أن انعدام التدوين، إلا لآيات القران، وإدراج بعض ما وصل من تلك الخطب في صلب الأحاديث، وعدم تدوين تلك الأحاديث حال دون وصول أكثرها^(٢).

(٢) ينظر : الفن ومذاهبه في النثر، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٥ : ٦٣.

(٣) ينظر : فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، دت : ٧٧.

(٤) ينظر : الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ٣٣.

(١) البيان والتبيين : ١٧/١.

(٢) ينظر : الخطبة كنثر فني : ١٠٨.

ويمكننا تلمس بعض أساليب خطب الرسول ﷺ في خطب من جاء بعده، فعلى الرغم من عدم قدرتهم على الوصول إلى بلاغة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حاولوا السير على خطاه، بتضمين بعض الآيات القرآنية في خطبهم لمضاعفة تأثير أقوالهم في السامعين^(٣)، والسعي لاحتذاء النهج الذي اختطه ولا سيما في ما جاء من خطبه، بلغة تشريعية^(٤)، بعد أن كانت الخطب الجاهلية صيغاً وجمالاً متناثرة، أصبحت ذات موضوع واحد تدور حوله^(٥)، وقد اتسعت معاني الخطابة في هذا العصر وتسلسلت أجزاؤها متخذة طابعاً لا تحيد عنه^(٦)، فكان التطور في موضوعاتها واغراضها أكثر وضوحاً منه في أسلوبها وأدائها^(٧)، أي "كان تطورها من الناحية الشكلية"^(٨).

أما عملية التوصيل عند العرب فإننا نجدها بعد أكثر من قرنين من الزمان في أولى المؤلفات النقدية المتقدمة زمنياً، ومن المدخل ذاته عند اليونان (الخطابة)، ولكن بالصنعة نفسها والأداء والتنقيح والتجويد والإعداد والتحرير الذي شهدته خطب اليونان، أي بعد تحول البلاغة الرسالية عند المعتزلة إلى صنعة خطابية كحالتها عند السفسطائيين^(٩).

ولا نعدم وجود مؤشرات أولى لفكرة التوصيل في النتاج السابق لتلك المؤلفات اتضحت في جهد الرواة واللغويين والنحويين في القرن الثاني في ضمن محاولاتهم لجمع اللغة والتوسع في قواعد النحو - العلم الذي افتتحه الإمام عليه السلام - واستنباطها على وفق وجود المتكلم والسامع وبناء الكلام وتكييفه تبعاً لموقع أحدهما من الآخر، والزمّن الذي يجمعهما والمكان، ورغبة المتكلم في الكلام ومثله المخاطب في الإقبال على السماع.

وخير مثال على ذلك ما جاء في كتاب سيبويه - أول كتاب للنحو - في النداء وتنوع حروفه بحسب انتباه المخاطب، غفلته أو تراخيه، وبحسب مكانه وحالته النفسية، ومثله الاستفهام، فقد كان سيبويه "عميق التأمل في

(٣) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب : ٨٥.

(٤) ينظر: م.ن : ٨٧.

(٥) ينظر: الفن ومذاهبه : ٦٣.

(٦) ينظر: فن الخطابة : ٢١٨.

(٧) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ٣٢.

(٨) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : ١١٠.

(٩) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ٢٣٩-٢٤٢.

حال طرف الكلام الآخر وهو المخاطب، يتراءى أمامه في أوضاعه المختلفة، يدقق في أحواله ويتخيلها بسعة خيال ليبين ما كان منها من غفلة أو نسيان أو انشغال أو نوم أو إعراض أو غير ذلك، وتفسير كثير من الاستعمالات اللغوية وطرائق البناء في الجملة العربية وحالات الإعراب المختلفة في ضوء ما يكون عليه المخاطب" (٤)، فكان اللغويون اسبق في القول بمراعاة الأحوال المحيطة بطرفي الخطاب.

ويلي ذلك جهد البلاغيين والنقاد في القرن الثالث، الذي كان عصر جمع وتدوين العلوم العربية والإسلامية، بعد اكتمال جمع المادة الأدبية ورفي الذوق الأدبي، واتساع الثقافة العربية واختلاطها بثقافات أخرى، وتحول الأدب إلى فن وصناعة (١)، وتطور الحركة العلمية في البصرة، وما شهدته من نشاط خطابي مكتوب قوامه علم الكلام "وهو نقطة تقاطع الثقافات الإسلامية عقيدةً وتشريعاً ومنطقاً" (٢).

وقد كانت أولى ثمرات هذا الجهد صحيفة مكتوبة لبشر بن المعتمر (٢١٠هـ) -وهو أحد المتكلمين المعتزلة- دفعها إلى معلم للخطابة، تباينت الآراء في كونها تقنياً لأصول البلاغة بعد تحولها إلى فن كتابي تعليمي (٣)، أو وضعاً لأصول الأدب (٤)، أو انها دعوة للاستعداد الطبيعي فهي "إدخال في النقد الأدبي عموماً وفي جانب الخلق من الأدب خصوصاً" (٥)، واعتقد انها جامعة بين ذلك كله؛ لأنها تتناول جوانب من عملية توصيل العمل الأدبي وهو ما قامت عليه الدراسات البلاغية والنقدية معاً.

ولم يقتصر كلام بشر على النوع الخطابي في الكلام، "و إنما هو أي كلام محض كتابة ويعد إعداداً خاصاً في معنى من المعاني لإفهام جمهور محدد" (٦) بعد تحول الخطابة إلى فن مكتوب. ويذكر بشر في صحيفته أطراف عملية التوصيل وهي (المتكلم، والقول، والسماع)، ويرى أن هذه العملية لا تكتفي بحدود القول وإنما تتسع لتحيط به من جوانبه، فهناك حالة

(٤) مراعاة المخاطب في كتاب سيبويه، كريم حسين، المورد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع٣، مجلد ٣٠، ٢٠٠٢ : ٢٨.

(١) ينظر : النقد الأدبي، احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٩٦٧ : ٤٣٥.

(٢) التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٨١ : ٣٦.

(٣) ينظر : النقد الأدبي : ٤٣٨.

(٤) ينظر : دراسات في نقد الأدب العربي : ١٢٥.

(٥) م.ن : ١٢٥.

(٦) مقدمة في النقد الأدبي : ١٧٤.

نفسية -تسبق القول- تحيط بالمتكلم وتؤثر في نتاجه، فتؤهله للكتابة عند تخير الوقت المناسب لقريحته.

ثم يضع لعملية التوصيل معياراً واحداً وهو "الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام مقال" ^(١)، فالصواب مرتبط بقواعد اللغة، والمنفعة بالقصد الذي يريد نفع السامعين به، أما موافقة الحال والمقام فيريد بهما الظرف النفسي والاجتماعي المحيط به ^(٢)، ويوضحه بقوله "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" ^(٣)، ويضع بشر اللفظ والمعنى في المنزلة ذاتها بقوله "فمن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً" ^(٤).

وقد توّضحت الكتابة عن عملية التوصيل توّضحت على يد معتزلي

آخر وهو الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) -الذي نقل فيه صحيفة بشر-،

وذلك لاهتمامه بالعلاقة بين المرسل والمتلقي اللذين يلتقيان حول الرسالة ^(٥).

فقد تناول الجاحظ أطراف العملية من خلال دراسته للخطابة - على الرغم من ذكره لألوان أدبية أخرى من رسائل وحكم وأمثال - التي عدت إحدى دعائم الدولة في العصر العباسي، والفن الرئيس في جدل المعتزلة، ثم تحولت إلى فن بلاغي مكتوب يسخر لأغراض نفعية؛ فقد كان تناوله لعملية التوصيل وتنظيره لها من خلال الفن الخطابي ذاته الذي درسه أرسطو في كتابه وتزامنه مع البلاغة وتدوينها، مع اختلاف منهجه عن سابقه، وهذا ما يمثل نقطة التقاء الثقافتين العربية واليونانية، فقد نال كتابه

(١) البيان والتبيين : ١٣٦/١.

(٢) ينظر : أوجه البلاغة الثلاثة، ناصر حلاوي، الأفلام، ع ١١-١٢، س ٢٧، ١٩٩٢ : ٨٠.

(٣) البيان والتبيين : ١٣٨/١-١٣٩.

(٤) م.ن : ١٣٦/١.

(٥) ينظر : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت، ١٩٩٩ :

٢٩٢.

مكانة كبيرة تقرب من المكانة التي نالها كتاب أرسطو (الخطابة) عند اليونان

(^١)، حتى عدّ الجاحظ به مؤسس البلاغة العربية (^٢).

وتتضح عملية التوصيل عند الجاحظ من خلال حديثه عن البيان والبلاغة، حيث تتجسد أطراف عملية التوصيل ويجمعها في موقف واحد ولغاية واحدة، فالبيان عنده "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع" (^٣).

و يؤكد الجاحظ عملية التوصيل بتوسيع البيان وعدم حصره باللفظ، فالبيان عنده على خمسة أصناف "اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النصب" (^٤)، ثم يقرن اللفظ بالصوت إذ أن الصوت "الصوت هو آلة اللفظ" (^٥).

أما البلاغة فعلى الرغم من تمييز المتأخرين بينها وبين البيان، كان الجاحظ يجعلهما بمعنى واحد ولغاية واحدة، فيكمل عملية التوصيل بمعان متعددة للبلاغة وعند أقوام شتى يتناول في كل معنى جانباً أو أكثر من عملية التوصيل .

فالتوصيل هو ما تسعى إليه البلاغة بقوله "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أقرب من معناه إلى قلبك" (^٦)، بل إن عملية التوصيل عنده هي البلاغة بعينها ولاسيما مع نقله لوصف ابن المقفع للبلاغة بأنها "اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها

(^١) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٧٦.

(^٢) ينظر : البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٥ : ٥٧-٥٨.

(^٣) البيان والتبيين : ٧٦/١.

(^٤) م.ن : ٧٦/١.

(^٥) م.ن : ٧٩/١.

(^٦) م.ن : ١١٥/١.

ما يكون رسائل" ^(١)، فعملية التوصيل هي ما تشترك به هذه الوجوه جميعها .

وجماع البلاغة أدوات تشكل عملية التوصيل فمنها "البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة" ^(٢) زيادة على "التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر" ^(٣)، وتمامها "أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معتدلة، واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت" ^(٤).

ويجمع الجاحظ بين القول وزمانه ومكانه وما يتضمنه من ألفاظ ومعان ويوصلها بسمات يخص القائل بها، ولباسه وهيأته، ويتجاوز ذلك إلى تصنيف المتلقين أو جمهور الناس بحسب القائل ومنزلته، وفي ذلك إحاطة بجوانب العملية ووضع لحدودها .

ويورد الجاحظ اهتمام العرب بوصف خطبائهم بسمات تدل على بلاغتهم نحو (المصقع) ^(٥)، (الصلاق) ^(٦)، ووصفهم للخطب بأوصاف عدة ومنها : (العجوز، العذراء) ^(٧)، وتشبيهها بـ (الثياب الموشاة، والحلل، والديباج) ^(٨)، ووصف اللسان البليغ باللسان (الذلق) ^(٩).

وتجاوز ذلك إلى تشخيص عيوب الخطباء، وذكر ما يصيب بعضهم منهم في صوته أو لسانه ^(١)، من حصر أو عي ^(٢)، أو تعقيب أو تعكير أو تسديف أو تمطيط ^(٣)، أو لكنة أو لثغة ^(٤)، أو لجلجة أو تمتمة ^(٥)، وتناول الشعراء تلك العيوب وصفاً لها وذكماً للمتصف بها وفخراً بالسلامة منها ^(٦).

(١) البيان والتبيين : ١١٥/١ - ١١٦.

(٢) م.ن : ٨٨/١.

(٣) م.ن : ٨٨/١.

(٤) م.ن : ٨٩/١.

(٥) م.ن : ١١٣/١.

(٦) م.ن : ١٢٤، والصلاق : الصوت الشديد.

(٧) م.ن : ٣٤٨/١.

(٨) م.ن : ٣٤٩/١.

(٩) م.ن : ١٤٦/١.

(١) ينظر : البيان والتبيين : ١٣٣/١.

(٢) ينظر : م.ن : ١٢-٣/١.

(٣) ينظر : م.ن : ١٤٦/١.

(٤) ينظر : م.ن : ١٧/١.

(٥) ينظر : م.ن : ١٢/١.

(٦) ينظر : م.ن : ٤-٣/١، والكتاب حافل بذكرها.

وينقل الجاحظ عن صحيفة مكتوبة من الهند آلة البلاغة لتشمل العمل الأدبي بأكمله، قائلاً ومقولاً ومستمعاً مع سمات وظروف تحيط بهم، فمدار الأمر عنده "إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أدواته" ^(٧)، بعد أن خصّص لكل صناعة أو مهنة من (القصص، والزمير، والخمار) آلة خاصة بها وخصّ الخطاب بالبلاغة بعد أن خصّص آلة مستقلة للشعر "ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابياً، ويكون الداعي إلى الله صوفياً" ^(٨).

ويجعل الجاحظ اللفظ مدار البلاغة والبيان فيمدح ويذم بما يتصل به ويفاضل على أساسه، حتى شملت مفاضلاته الحروف المكونة للفظ، ثم يرسم حدوداً ثابتة لاختيار القائل لأسلوبه وذلك بحسب (المخاطب، والموضوع، والمعنى) ^(٩).

ويعطي الجاحظ مواصفات للمعنى ينقلها عن بعضهم قوله "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم" ^(١٠)، وعلى العكس منها الألفاظ إذ يقول "إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية، ومعتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني معدودة، ومحصلة محدودة" ^(١)، فمواصفات المعاني عنده لا محدودة ولا نهائية، إلا أن ذلك يقابل به محدودية الألفاظ ونهايتها، "ومقاسها في ذهن المتكلم إذ هي أقدار وأحوال وليست على درجة واحدة من الاستعمال، فما يصلح لهذا المقام قد لا يصلح لمقام وحال آخرين" ^(٢).

وهنا يلتقي الجاحظ مع ما قاله بشر -كما مرّ سابقاً- بما جاء في النظريات المقامية، إذ ينظر إلى طبيعة وجوهر العملية الإبلابية مراعيًا الشروط الخارجية والذاتية التي يتصف بها الخطاب وصاحبه وهو ما تنادي به بعض المدارس اللسانية الحديثة ^(٣).

^(٧) م.ن : ٩٣/١.

^(٨) م.ن : ٩٤/١.

^(٩) دراسات في نقد الأدب العربي : ٢١٨.

^(١٠) البيان والتبيين : ٨١/١.

^(١) البيان والتبيين : ٧٦/١.

^(٢) علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتب، دمشق،

٢٠٠١ : ١٢٤.

^(٣) ينظر : م.ن : ١٢٧.

وفي تفضيل الجاحظ للفظ على المعنى تثمين للنص الأدبي وتنبيهه إلى "مذهب الصنعة والتجديد في الصياغة" ^(٤)، ولفت الأنظار إلى الاهتمام بالناحية الشكلية، ولاسيما بعد أن أصبح أكثر الشعر موجهاً إلى الخلفاء ورجال الحاشية.

وفي اهتمام الجاحظ باللفظ نقل لميدان الدراسة القرآنية إلى الدراسة الأدبية ^(٥)، بنقل مقياس الأدب من صحة وسلامة الألفاظ من الأخطاء ومطابقتها لكلام العرب وسلامة الأوزان والقوافي وقوة المعاني ونبيل الأغراض الذي كان عليه أغلب العلماء باللغة والنحو ورواة الشعر ^(٦)، إلى مقياس جديد هو (المذهب البياني) ^(٧).

وقد أصبح هذا المقياس معياراً لعملية التوصيل التي تعد أطرافها الثلاثة (المبدع، والنص، والمتلقي) عناصر رئيسة لأية حلقة من حلقات النقد ^(٨)، لاجتماع الدرسين البلاغي والنقدي، وتجاوز بحوث القدماء فيهما "فالناقد يتعامل بأدوات البلاغة، والبلاغة تضم إليها ما يخص النقد" ^(٩)، الأمر الذي شكل نظرية نقدية عند العرب اكتملت بآراء النقاد الفلاسفة ليصل النقد إلى ذروته في القرن الرابع الهجري ^(١٠)، وانتقالاً بالنقد إلى ما يخص النص الأدبي، فقد كان كلام الجاحظ "أشبه شيء بالنظريات العامة التي تحتاج إلى التجلية، وشرح وسائل الصنعة" ^(١١).

ولارتباط عملية التوصيل بالنص السماوي من جانب، وبالخطابة أداة لتوصيلها من جانب آخر نجد أصداء هذه العملية وأطرافها تتبلور في نظرية نقدية لدى النقاد العرب المحدثين في أوائل القرن العشرين سواء أكان ذلك بعد النقد علماً، وأخذه من العرب كحال العلوم الأخرى التي عدت أساساً للنهضة الأوروبية التي قامت على مستخلصات الحضارة العربية، أو

^(٤) دراسات في نقد الأدب العربي : ١٨٢.

^(٥) النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هند حسين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١ : ١٧٧-١٧٨.

^(٦) ينظر : دراسات في نقد الأدب العربي : ٢١٩.

^(٧) ينظر : م.ن : ٢٠٧-٢٠٨.

^(٨) ينظر : مكانة المتلقي في نقد القرن الرابع الهجري، بشرى موسى، الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع ٢١، س ٤، ١٩٩٩ : ٧٨.

^(٩) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ : ٢٧.

^(١٠) ينظر : النظرية النقدية عند العرب : ٢٧.

^(١١) دراسات في نقد الأدب العربي : ٢٠٨.

بمعزل عن ذلك وغفلة نتيجة العنصر الديني والتباس قضايا المعتقد في أي حضارة بالكتاب السماوي النازل فيها ^(٤).

ونظرية التوصيل نظرية شكلية تسعى إلى الاهتمام بالأثر الأدبي ^(٥)، وعه "شكلاً مستقلاً قائماً لذاته" ^(٦)، إذ لا يرون تطابق الأدب مع شخصية منتج والمجتمع الذي يعيش فيه ^(٧)، وتتجه لدراسة أطراف الخطاب الأدبي من خلال بنية الخطاب نفسه، ويشد جاكبسون على أطراف عملية التوصيل "ان كل عملية اتصال يجب أن تتوفر فيها ثلاثة أشياء: المرسل، والمتقبل، والرسائل" ^(٨).

ويفصل جاكبسون الذي يعد "مؤسس البنائية اللغوية الحديثة" ^(٩) في دراسة الخطاب اللساني فيراه مكوناً من ستة عناصر، فالرسالة موجهة من مرسل إلى مرسل إليه، وفاعليتها تقتضي سياقاً لفظياً أو غير لفظي قابلاً للإدراك، وسنناً مشتركة بين طرفي الخطاب، وقناة تصل بين الطرفين، بما يمكن عتاً عناصر لعملية النطق في الكلام المحكي أكثر منه في الخطاب المكتوب ^(١٠)، ويولد كل عنصر من عناصر الخطاب عند هيمنته في عملية اتصال معينة ^(١١)، وتعلق البنية اللفظية للرسالة بالوظيفة المهيمنة على ذلك الخطاب ^(١٢)، ويحدد جاكبسون وظائف الخطاب اللغوي "انطلاقاً من فحوى مضمونه الذي يحدد قصد المتكلم، وغايته من إعلام السامع" ^(١٣)، ومن إيمانهم بالعلاقات بين الأشياء ^(١٤).

^(٤) ينظر : التفكير اللساني في الحضارة العربية : ٢٢-٢٣.

^(٥) ينظر : قضية النبوية، عبد السلام المسدي، المطبعة العربية، تونس، ط١، ١٩٩١ : ١٣٣.

^(٦) اللغة في الأدب الحديث، جاكوب كورك، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانوئيل، دار

المأمون، بغداد، ط١، ١٩٨٩ : ١٦٢.

^(٧) ينظر : فصول في اللغة والنقد، نعمة رحيم العزاوي، المكتبة المصرية، بغداد، ط١، ٢٠٠٤ :

٢٠١.

^(٨) بنية الخطاب النقدي، حسين خمري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٠ : ٩٧.

^(٩) نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٣،

١٩٧٨ : ٣٨٣.

^(١٠) ينظر : الأدب والدلالة، تودوروف، ترجمة : محمد نديم، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط١،

١٩٩٦ : ١٨.

^(١١) ينظر : مقدمة في النظرية الأدبية، تيري ايغلتن، ترجمة : إبراهيم جاسم العلي، دار الشؤون

الثقافية العامة، بغداد : ١٠٨.

^(١٢) ينظر : قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال

للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٨ : ٢٧-٢٨.

^(١٣) علم الدلالة : ١٢٤.

^(١٤) ينظر : التحليل النقدي والجمالي للأدب، عناد غزوان، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥ : ٨٦.

ويرى جاكبسون أنه عند تشديد الخطاب على الرسالة نفسها تتولد عنه الوظيفة الشعرية، أما عندما يكون تشديده على المرسل أو المرسل إليه أو السياق أو السنن أو القناة، فتتولد عن ذلك الوظيفة الانفعالية أو الإفهامية أو المرجعية أو المعجمية أو الانتباهية على التوالي.

وتهيمن الوظيفة الشعرية هي على الخطاب الأدبي بوصفها "متمركزة حول قصد الإرسالية" ^(٧)، إلا أن هيمنتها لا تلغي وجود الوظائف الباقية، بل يجعلها تتدرج في سلم هرمي ^(٨)، في خطاب يكون المرسل منه مستنناً أول للدلالة، أما المرسل إليه فهو المسؤول عن فكّ السنن واستخلاص الدلالة ^(٩).

ولذا يرى جاكبسون أن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما (الأدبية) ^(١٠)، التي تعد خاصية استراتيجية توجه العمل الأدبي ومبدأ تكامله الحركي ^(١١)، إذ يعد النص الأدبي خطاباً "تغلّبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام" ^(١٢)، وهذا ما يميّزه عن بقية أنواع الخطاب باتجاهه إلى الرسالة بالذات، والنص الأدبي "نسيج من الألفاظ والعبارات التي تطّرد في بناء منظّم متناسق" ^(١٣)، على أن الوظيفة الشعرية لا تقتصر على الشعر وحده بل تتجاوزه إلى الأنواع الأدبية الأخرى ^(١٤).

أما المعيار اللساني الذي يمكن من خلاله التعرف على الوظيفة الشعرية، فهي إسقاط "مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف" ^(١٥)، ليحدث ما يعبر عنه بالانحراف عن اللغة العادية و"الإنزياح" ^(١٦)، بحصول فجوة أو مسافة توتر في بنية النص اللغوية ^(١٧)، فالاختيار يتعلق

^(٧) معايير تحليل الأسلوب، ريفاتير، ترجمة: حميد الحمداني، دراسات سال، الدار البيضاء : ٦٨.

^(٨) ينظر : قضايا الشعرية : ٢٨-٣٢.

^(٩) ينظر : القراءة وتوليد الدلالة، حميد الحمداني، المركز الثقافي، المغرب، ط١، ٢٠٠٣ : ٤٧.

^(١٠) ينظر : نظرية المنهج الشكلي، ترجمة : إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢ : ٣٥.

^(١١) ينظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي : ١٢٧.

^(١٢) الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، د.ط، ١٩٧٧ : ٨٨.

^(١٣) النص الأدبي تحليله وبنائه، إبراهيم خليل، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥ : ١٣.

^(١٤) ينظر : قضايا الشعرية : ٣٥.

^(١٥) م.ن : ٣٣.

^(١٦) ينظر : بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال،

المغرب، ط١، ١٩٨٦ : ١٩٢.

^(١٧) ينظر : في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧ : ٢٠.

باختيار العناصر القائمة في النص، أما التأليف فيتصل بالعلاقة القائمة بينهما^(١)، بناءً على محوري التعاقب والتزامن وعلاقتي الحضور والغياب التي قال بها سوسير مسبقاً^(٢)، وانطلاقاً من علاقة خفية توفرها اللغة بتكامل جانبي الصوت والمعنى^(٣)، بعلاقات داخلية "لان البنية منتظمة أو متشكلة من عناصر دلالية وصوتية في صورة علائقية"^(٤)، ويرى جاكبسون وجود القطبين الاستعاري والكنائي معاً بصورة تنافسية في أي عملية رمزية^(٥)، وذلك بالإفادة من التمييز الضمني بينهما عند سوسير^(٦). ولا تبتعد هذه النظرية بوظائفها عما عرفه النقد العربي القديم، وإن كانت غريبة عنه في تقنياتها أكثر منه في محتواها، ولا سيما أن الإطار الشكلي كان مدخل التمييز بين فنون القول قديماً كما كان النقد العربي "نقداً بنائياً أو سمّ شكلياً"^(٧)، فإذا ما عدنا إلى كتاب الجاحظ، فإننا نلتبس بعض هذه الوظائف، فقله "لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه المعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها وأخبارهم عنها واستعمالهم إلهاماً"^(٨)، يتصل بالوظيفة المرجعية التي ترتبط بمحتوى نرغب في إيصاله للآخرين من جانب، وبالوظيفة الانفعالية التي تتصل بإبراز موقف المتكلم من مختلف القضايا التي يدور عليها موضوع حديثه من جانب آخر^(٩).

ونتلمس الوظيفة الانتباهية التي توظف لإقامة الاتصال وضمان استمراريته، فيما يرصد الجاحظ من مداخل لغوية من خلال ما ينقله من العتابي من الاستعانة بقوله "أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا

(١) وللمزيد من التفصيل في جزئيات هذه النظرية ينظر : نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث، سحر كاظم الشجيري، رسالة ماجستير، كلية التربية-جامعة بابل، ٢٠٠٣ : ٣٥.

(٢) ينظر : محاضرات في الصوت والمعنى، رومان ياكبسون، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤ : ١٤٤.

(٣) ينظر : شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري : ١٨٩.

(٤) ينظر : م.ن : ١٨٩.

(٥) النص الأدبي تحليله وبنائه : ١٣.

(٦) ينظر : مقدمة في النظرية الأدبية : ١٠٨.

(٧) ينظر : فصول في اللغة والنقد : ٢٠٤.

(٨) البيان والتبيين : ٨١/١.

(٩) ينظر : علم الدلالة : ١٢٥.

هنا، ويا هذا ويه هيه، واسمع مني واستمع إليّ، وافهم عني أولست تفهم أولست تعقل" (١).

وتقابل الوظيفة الشعرية المهيمنة على الخطاب الأدبي عند جاكبسون الأسلوب الذي يتجاوز معناه عند القدماء العرب العنصر اللفظي "فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع أو التأثير" (٢)، أما معيار التعرف عليها فيقابل عنصري الاختيار والموقعية الذين قامت عليهما نظرية النظم، واصبحا عماد الأسلوب الأدبي (٣).

ويراد بالتوصيل عند جاكبسون توصيل الرسالة وتمكين المرسل إليه من فهمها (٤)، وهذا التمكين أو الاستجابة هو الغرض الذي قامت عليه البلاغة العربية التي عنيت بدراسة خواص تركيب الكلام في علم المعاني، أو إيراد المعنى الواحد في طرائق مختلفة في علم البيان، أو معرفة وجوه تحسين الكلام بعد رعايته المطابقة والوضوح في علم البديع (٥)، ولذا فقد ارتبطت البلاغة عند النقاد القدماء بالأسلوبية عند النقاد المحدثين، حتى عُلّت الأسلوبية بلاغة حديثة (٦) والبلاغة أسلوبية القدماء (٧).

أما فيما يخص اقتران الخطابة بعملية التوصيل فقد كان انتباه النقاد يونان وعرباً. إلى عملية التوصيل بشكل مادي مباشر واضح الرؤية في التعبير الشفهي من زوايته الخطابية أي من خلال الخطابة المعتمدة على فن البلاغة المكتوب، وذلك لاجتماع أطرافها الرئيسة الثلاثة في موقف مادي واحد، لذا كانت الخطابة مدخلاً لدراسة العملية.

وعلى الرغم من كوننا لا نعد الشعر الشفاهي عند العرب شعراً خالصاً؛ لأنه كان خطابياً في أكثره تسوده الروح الجماعية (٨)، فقد اتضحت عملية التوصيل من خلال الخطابة؛ لأن غايتها موجهة مباشرة

(١) البيان والتبيين : ١١٢/١.

(٢) الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٦، ١٩٦٦ : ٤١.

(٣) ينظر : فصول في اللغة والنقد : ١٧٥. إذ تتجه الدراسات الحديثة إلى التحليل المعتمد على العلاقات بين الكلمات والجمل، "وهذا ما أسماه عبد القاهر الجرجاني النظم، وما يسميه المعاصرون البنيوية أو البنائية". البحث البلاغي عند العرب : ٨٢.

(٤) ينظر : نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث : ٣.

(٥) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٧ : ٦٥.

(٦) ينظر : الأسلوبية، بيرو جيرو، ترجمة : منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، د.ط : ٩.

(٧) ينظر : البلاغة العربية قراءة أخرى : ٤.

(٨) ينظر : مكانة المتلقي في نقد القرن الرابع الهجري : ٧٨.

إلى الجمهور، أما الشاعر فتوجهه للجمهور توجه ثانوي؛ "لأن عمله استجابة إلى شعوره قبل أن يكون تلبية لفكره" (٢).

وتطورت هذه العملية مع تطور النقد الأدبي الذي واكبته وارتبطت به، وركي الحياة الأدبية، فانسحبت إلى الشعر، ومنها إلى ما يخص النص الأدبي، فكانت مثارا لقضايا عدة من (لفظ ومعنى، وصراع بين قديم ومحدث، وسرقات أدبية، وطبع وصناعة، وصدق وكذب ٠٠٠)، سواء ما كان منها بلاغياً أو نقدياً.

إلا أن التساؤل يكمن في أن هناك من يرى أن نشأة البلاغة اليونانية في بداياتها السابقة للتأليف مرتبطة بالخطابة، بينما كان ارتباط البلاغة العربية بالشعر السابق للخطابة (٣)، في حين لا نرى ذلك في أولى المؤلفات البلاغية، فكتاب الجاحظ اعتمد على الخطابة وإن ذكر الشعر، الأمر الذي نهض بالجاحظ بقفزة اعتباطية حتى جعل مكانه من الخطابة العربية يناهز مكان أرسطو من الخطابة اليونانية (٤)، وإن كان استطراده فيه وابتعاده عن النظام والمنهجية دليلاً على اعتماده على بلاغة إغجازية لم يعهدها العرب كانت سبباً في نهضة الخطابة، وكان العديد من المصطلحات موضع تساؤل الباحثين عن مصدرها (٥)، ومثار شك بأخذها من اليونان (٦)، لما فيها من تفكير منطقي يعلو عن بيئة العرب وثقافتهم، ولا سيما مع عدم ذكر من جاء بعده من النقاد لمصدر معتمد عليه سوى القران، مع ندرة ما ورد فيها من اقتباس عن أهل البيت عليهم السلام (١).

وهنا يأتي خطاب الإمام عليه السلام (٢)، الذي جمعت بعض روائعه في كتاب (نهج البلاغة) (٣)، ويعد كلامه جواباً لكل سؤال ومفتاحاً لكل علم

(٢) النقد الأدبي الحديث : ٣٥٧-٣٥٨.

(٣) ينظر : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها : ٤٥.

(٤) ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ١٧٦.

(٥) ينظر : أوجه البلاغة الثلاثة : ٨٠.

(٦) لقد كان تأثير العرب تأثراً بليغاً بكتاب الخطابة لأرسطو، حتى عدّ أرسطو أباً للنقد في الأدب العربي والآداب الأوروبية. ينظر : النقد الأدبي الحديث : ١٥٤.

(١) ينظر : كتاب الصناعتين : ٥٧-٥٨.

(٢) اخترنا إطلاق لفظ (الخطاب) الذي ورد في قوله تعالى ((فقال إكفنيها وعزني في الخطاب)) (سورة ص/ ٢٣) على خطاب الإمام علي عليه السلام لوروده في اقدم المعاجم (العين) بمعنى مواز لتشديد الإمام عليه السلام في خطابه على (مراجعة الكلام).

ومنه ورد إطلاق لفظ (الخطاب) في كتب القدماء التي تناولوا فيها القرآن الكريم بالدرس سواء ما كان منه عاماً، أو ما ورد موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أطلقه ابن أبي حديد على ما ورد في رسائل الإمام عليه السلام وكتبه، ومثله في كتب المحدثين فاللفظ يطلق على ما

وباباً إلى كل حكمة، لا بوصفه الخطاب السابق للنقد فحسب، بل لكونه مصدراً لكل علم ليجيب عما يطرح من تساؤلات عن ابتداع البيان والفصاحة والبلاغة عند العرب أو كونها نتاجاً للاستقراء، ولا سيما أن كل لغة لا تخلو من الفصاحة والبيان^(٤)، ويوضح السبب الأساس في نهضة الخطابة عند العرب، ويبّد الأقوال والتشكّكات^(٥) فيمن نسب ثقافة العرب إلى ثقافة اليونان^(١)، وليسكل خطابه، أساساً ثابتاً للعملية البلاغية النقدية بأكملها بل جوهرأً بنيت عليه الثقافة العربية بأسرها.

كان مكتوباً أو ملفوظاً. ينظر : دليل الناقد الأدبي، ميجان الويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠ : ٨٩.

ولذلك فقد اخترنا اللفظ لخطاب الإمام عليه السلام سواء ما سماه الشريف الرضي (كلام) أو (خطبة)، فالخطاب أوسع في الدلالة على كليهما مثلما هو أوسع في الدلالة على محتوى الخطاب والربط بين أجزائه.

^(٣) حاولت مصادر عديدة إثارة الشك في صحة نسبة نهج البلاغة إلى الإمام عليه السلام لبذرة شك زرعه ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان)، إلا أنه جوبه بمن تصدى له قديماً وحديثاً لرد الشكوك والشبهات التي أثارها واثبات كونها تخص الإمام عليه السلام ومن صلب كلامه. ولمزيد من التفصيل ينظر : مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الخطيب، الأعلمي، بيروت، ١٩٧٥ : ١١٢/١-١٨٥.

مصادر نهج البلاغة، عبد الله نعمة، دار الهدى، بيروت، ١٩٧٢ : ٤٥-١٢٩.

^(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (٦٣٧هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، ط١، ١٩٣٩ : ٧٠/١.

^(٥) ينظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥ : ٥١/١.

^(١) وإن كان فيه وجه كبير من الصحة، إذ يعد خطاب الإمام عليه السلام الأصل الأول الذي قامت عليه أصول البلاغة والنقد عند العرب وإن اتجهت لدراسة القرآن، إلا أنهم اعجبوا بالثقافة اليونانية المترجمة التي جاءت بها السلطة ليمزجوا ثقافتهم الإسلامية بمصطلحات أخذت عن اليونان، فيكون الناتج تطبيق دراسي على نصوص القرآن الكريم للوقوف على سر إعجازه، ولكن بصنعة بلاغية شكلية بعيدة عن البلاغة المعجزة التي نزل بها القرآن ونطق بها الإمام عليه السلام ولا يمتلك مفاتيحها سواء أهل بيته عليهم السلام. وحتى علم النحو الذي وضع أصوله الإمام علي عليه السلام فقد تشعبت قواعده اللغة حتى " أن قواعد اللغة العربية التي نراها في كتب النحاة ليست سوى مزيج من تقليد قواعد اللغة الإغريقية ومنطق أرسطو". أصوات اللغة، عبد الرحمن أيوب، دار التأليف، مصر، ط١، ١٩٦٣ : ١٤.

مرتكزات الإرسال

على الرغم مما اتسم به الإمام عليه السلام من سمات وأخلاق عالية وما تفرّد به من فضائل جمّة، إلا أن الفاصلة الزمنية -بين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وتولي الإمام عليه السلام زمام الحكم- قد أثرت كثيراً على تلك السمات وحولتها إلى سمات عادية يشاركه فيها كل من رأى في نفسه أثراً على من سواه، حتى أنه عليه السلام "لو فخر بنفسه، وبالع في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته التي أتاه الله تعالى إيلها واختصه بها وساعده على ذلك فصحاء العرب كافة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره" ^(١).

إلا أننا لا نجد من سمات الإمام عليه السلام في خطابه إلا ما ندر وأسباباً إرسالية تعلن حقه وتشيد بفضله، وتجسداً عملياً لشهده الجميع في الدور الرسالي الأول، تحولت إلى إشعاعات رسالية في خطابه وأسباباً إرسالية تعلن حقه وتشيد بفضله عليه السلام، وما انعكس منها بشكل واضح في خطابه الذي يتوجه فيه عليه السلام إلى مخاطبيه لدعوتهم سامعية إلى التخلق بالسمات الموصلة إلى طريق الحق.

أما (مقام القدوة) فلم يكن يظهر في خطاب الإمام عليه السلام إلا عند دعوتهم للاهتداء به نحو قوله (اقْثُوا بِهَدْيِي ذِيكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ وَاسْتَنْتُوا بِسُنَّتِي فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ) ^(٢)، أو إنكار موقفهم منه نحو قوله (لَا يَقْدَرُونَ بِعَمَلٍ وَصِيٍّ وَلَا يُؤْمَدُونَ بِغَيْبٍ وَلَا يَعْفُونَ) ^(٣) عَنْ عَيْبٍ يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَيَبِيرُونَ فِي الشُّهَوَاتِ) ^(٤).

إلا أن لإرسال الإمام عليه السلام مرتكزات استند إليها تتصل بسماته فتغذيها وتنهل منها مالم يستطع أحد نسيانها أو إنكارها لحاجتهم إلى من يتصف بها حتى في مرحلة الدور الرسالي الثاني، إذ لا يمكن أن تتاح لأحد سوى أهل البيت عليهم السلام.

^(١) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٧٤/٩.

^(٢) نهج البلاغة : خ ١١٠، ص ١٦٣.

^(٣) يعقون : يكفون عنه، أي يستحسنون ما بدا لهم استحسانه ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون

رجوع إلى دليل بين أو شريعة واضحة.

^(٤) نهج البلاغة : خ ٨٨، ص ١٢١.

و قد كانت هذه المرتكزات حقاً خاصاً به لم يستطع أحد منهم إنكاره بلسانه، مثلما أصبحت بعد توليه الحكم محلاً لتوجيه السهام اللاذعة إليها بالذات لا لإنكارها عليه، بل لإثارة الشك في قيادة الإمام عليه السلام ممن كان حديث عهد بالإسلام لزعة موقفه، ولا سيما من بني أمية الذين يصفهم الإمام عليه السلام (إِنَّ بَنِي أُمَيَّةٍ يُفَوِّقُونِي ثَرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْويقاً وَاللَّهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّاهُمْ فَضَّضَ اللَّحَامِ الْوُدَامَ^(١) التَّرْبَةِ)^(٢)، ولذلك كانت هذه المرتكزات ترد في خطاب الإمام عليه السلام بوصفها حججاً لتتطرق شاهدة بالحق، فهذه المرتكزات يتصل أحدها بالآخر، ويتبع أولها آخرها، وكل مرتكز يتسبب عن الآخر ويقود إليه، وهي كما يلي:

قوة العقيدة:

لقد كان سبق الإمام عليه السلام إلى كل فضيلة، وتفرد به بأعلى السمات الخلقية تجسيدا لقوة عقيدته وثباتها، وبرهاناً على عزمه الذي لا يلين، إلا أننا لم نجد من سمات الإمام عليه السلام التي توجّه بها إلى مخاطبيه في خطابه والتي كانت أساساً لقوة عقيدته إلا بسمتي الصدق والشجاعة بوصفهما رافدين تغذيان العصمة التي ارتكزت عليها عقيدته القوية.

أما عن الصدق عند الإمام عليه السلام فقد اقترن بطفولته، إذ لم يجد له رسول الله ﷺ (كَذِبَةٌ فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةٌ فِي فِعْلٍ)^(٣)، وتجلى هذا الصدق في سبقه للإيمان بالله وتصديق رسوله ﷺ بعد اتباعه والاقتراء به، وكان ذلك دافعاً لصدق عقيدته بسبقه إلى العمل بطاعة الله تعالى قبل الدعوة إليها^(١)، ولذا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صدقه (الصديقون

ثلاثة: حبيب النجار الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ومؤمن آل فرعون الذي كان

(١) الودام: جمع وذمة وهي الحزة من الكرش أو الكبد تقع في التراب فتتنفض.

(٢) نهج البلاغة: خ ٧٧، ص ١٠٤.

(٣) م.ن: خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(١) (وَاللَّهِمَا أَحْبَبْتُكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبَغْتُكُمْ إِلَيْهَا وَلَا أَنَهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَكْثَى قَلْبُكُمْ عَنْهَا). نهج البلاغة: خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

يكتم إيمانه، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم^(٢)، ونهى عن تكذيبه في شيء إذ قال ﷺ (لا تكذبوا علياً من يكذب علياً يلج النار)^(٣).

وكان صدق الإمام عليه السلام موضع شك في زمن انقلبت موازينه ليكون المكر والفجور في مجتمع اعتادهما دليلين على الدهاء فيقول الإمام عليه السلام (وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغِيُرُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْخُرِّ لَكُنْتُ مِنْ أَذَى النَّاسِ وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ وَلِكُلِّ ظُلْمٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مَا أَسْتَعْفَلَ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أَسْتَغْمَزُ^(٤) بِالشَّيْئَةِ)^(٥)، إذ لم يخاتل الإمام عليه السلام ولم يخادع يوماً لذا يقول عليه السلام (فَلَمْ آتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْرًا وَلَا خَلْنُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ وَلَا لِبَسْتُ لَهُ عَلَانِيَةً)^(٦).
لذا يرد على من يشك في موقفه ويتهمه بالكذب بالقول (وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلَيٌّ يَكْذِبُ قَاتِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذَبُ أَعْلَى اللَّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ أَمْ عَلِيٌّ نَزَّيْنِي فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ)^(٧)، وقوله (أَتَرَانِي أَكْذَبُ عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَاللَّهِ لَا نَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ)^(٨).

فإن تجلّى صدقه بسبقه الإيماني فإنه كان دافعاً إلى تقوى الله وطاعته في كل أمر، إذ لم يرد على الله سبحانه وتعالى ولا على رسوله ﷺ فكانت طاعته إقراراً بتصديق النبي ﷺ في وقت تكذيب ملا قريش له واتهامه بالسحر الأمر الذي شهدته الكفار قبل المؤمنين، وكان ذلك على مرأى ومسمع من أكثر الناس^(٩)، ولذا يقول الإمام عليه السلام (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُ وَنَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ)^(١٠).

(٢) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٧٧/٩.

(٣) مسند احمد، احمد بن حنبل (٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت : ٨٣/١.

(٤) لا أستغمر : لا استضعف بالقوة الشديدة أي (لا يستضعفني شديد القوة).

(٥) نهج البلاغة : خ ٢٠٠، ص ٣١٨.

(٦) م.ن : خ ١٢٧، ص ١٨٥.

(٧) م.ن : خ ٧١، ص ١٠٠.

(٨) نهج البلاغة : خ ٣٧، ص ٨١.

(٩) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠١-٣٠٢.

(١٠) م.ن : خ ١٩٧، ص ٣١١.

والصدق يزيد الخطابة قوة "فالخطيب المعتقد صدق ما يدعو إليه تلهب كلماته وتستقر في القلوب عباراته" ^(٤)، أما صدق الإمام عليه السلام فكان حجة يوردها الإمام عليه السلام في خطابه إذ يقول (وَاللَّهِ مَا كُنْتُ وَشْمَةً ^(٥) وَلَا كَذَبْتُ كَذِبَةً) ^(٦) يرد بها على المشككين والمنكرين، ويقول الإمام عليه السلام (وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٍ سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَوَّارِ عُمَارُ الْأَيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُخَيِّوْنَ سُدَّ نَجْوَى اللَّهِ وَسُدَّ نَجْوَى رَسُولِهِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُوْنَ وَلَا يَغْلُوْنَ وَلَا يُفُيُونَ فُلُوبَهُمْ فِي الْجَلَنِ وَأَجْسَادَهُمْ فِي الْعَمَلِ) ^(٧)، ويؤكد لها من بعده أهل البيت عليهم السلام بقوله (فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ إِنْ طَفُّوا صَدَقُوا وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّحُوا) ^(٨).

ثم تأتي الشجاعة رافداً ثانياً لقوة عقيدته تمثلت في قوته الجسدية، وأخلاقه الروحية، ونخوته التي طبع عليها فكانت آداباً للفروسية خص بها الإمام عليه السلام ^(٩)، زيادةً على ما أكرمه الله تعالى به من رباطة جأش ونجدة يواسي بها رسوله ﷺ ^(١٠)، وما آزره الله تعالى به من نصرة ومعونة ^(١١)، يصفها بقوله لعمر (فَإِنَّا لَمْ كُنْ نُقَاتِلْ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُودَةِ) ^(١٢)، وارتباط ذلك بإيمانه بالله تعالى وما قدره من أجل على الإنسان فلا يجزع من الموت، وهو الذي يقول (وَاللَّهِ لَا بَنَى أَبِي طَالِبٍ أَسْ بِالْمَوْتِ مِنَ الْبَطْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ) ^(١٣)، ولا يقبل بحراسة أحد وهو يعلم انه لا يصاب بشيء إلا بإذن الله تعالى ^(١٤)، ولا يجبن أو يضعف وقد أيقن أن الموت طالب حثيث، لا يقدمه إسراع لقتال ولا يؤخره نوم في فراش، ولذا

^(٤) فن الخطابة : ٢٦.

^(٥) الوشمة : الكلمة.

^(٦) نهج البلاغة : خ ١٢٧، ص ١٨٥.

^(٧) م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٢.

^(٨) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥. يريد بقوله (فيهم) آل محمد صلى الله عليه واله وسلم . ينظر :

شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٧٨/٩.

^(٩) ينظر : عبقرية الإمام علي، عباس العقاد، دار التربية، بغداد، ٢٠٠١ : ٣٥.

^(١٠) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٧، ص ٣١١.

^(١١) يروى ان الحسن عليه السلام خطب بعد الإمام عليه السلام فقال فيه (لقد فارقكم أمس رجل ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون لقد كان رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يبعثه فيعطيه الراية فما يرد حتى يفتح الله عليه ان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره). الطبقات الكبرى : ٣٨/٣.

^(١٢) نهج البلاغة : خ ١٤٦، ص ٢٠٤.

^(١٣) م.ن : خ ٥٢، ص ٥٢.

^(١٤) ينظر : أصول الكافي : ٨٦/٢.

فالشهادة في سبيل الله أحب إلى الله تعالى، ولذا يقول (إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ وَالْأَنْفُسُ أَنِي أُنْبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي عَمْرِ طَاعَةِ اللَّهِ)^(١)، فقد وصل إيمان الإمام عليه السلام بالله تعالى إلى درجة اليقين التي لا يخاف بها مع الله شيئاً^(٢).

وقد تازرت شجاعة الإمام عليه السلام القتالية مع شجاعته الخطابية المرتكزة على فصاحته وبيانه اللذين كان بهما أمير الكلام^(٣) "فالشجاعة في ميادين الوغى لا بد وان تكتمل بشجاعة الكلمة وجرأة البيان"^(٤)، مع بلاغته الرسالية لتكون قوة إرسالية تزيد السيف مضاءً، وتعجز من اشتهر بشجاعة أو عرف ببيان ويصف ذلك الإمام عليه السلام بقوله (فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ دِينَ فَبَثَلُوا وَتَطَلَعْتُ دِينَ تَقَبَّعُوا وَظَفْتُ دِينَ تَعَتَّعُوا، وَمَضَيْتُ بِئُورِ اللَّهِ دِينَ وَقَفُّوا، وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتًا، وَأَعْلَاهُمْ قُوْتًا، فَطَرْتُ بَعْلَانَهَا، وَاسْتَبَدْتُ بِرَهْنَهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ دِفْيٌ مَهْمَزٌ، وَلَا لِقَائِلٍ فِي مَغْمَزٍ، الدَّلِيلُ عَذِي عَزِيْزٌ حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ لَهُ وَالْقَوِيُّ عَذِي ضَعِيفٌ حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ مِنْهُ)^(٥)، وشجاعة الإمام عليه السلام قوة تدفعه إلى المضي قدماً، إذ يقول (وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَالضَّعِيجِ تَلَمَّ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتَلِّهَا رَاصِدٌ كَهْ)^(٦)^(٧).

لقد كانت شجاعته طريق حق سار فيه دون عودة، فلم يبال حتى وإن بقي فيه وحيداً^(٨)، وقد كانت شجاعة الإمام عليه السلام في الدور الرسالي الأول دليلاً يضعه أمام من يشكك في شجاعته (أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّخْرِ بِكَالِكِلِ^(٩) الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ^(١٠) قُرُونِ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ^(١١))،

(١) نهج البلاغة: خ ١٢٣، ص ١٨٠.

(٢) كان الإمام عليه السلام يقول (لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وإن ما أخطئه لم يكن ليصيبه، وإن الضر النافع هو الله عز وجل). أصول الكافي: ٨٥/٢.

(٣) ينظر: نهج البلاغة: خ ٢٣٣، ص ٣٥٤.

(٤) علوم نهج البلاغة، محسن باقر الموسوي، دار العلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣: ٣٦٨.

(٥) نهج البلاغة: خ ٣٧، ص ٨٠-٨١.

(٦) راصدها: صائدها الذي يترقبها.

(٧) نهج البلاغة: خ ٦، ص ٥٣.

(٨) (إني والله لو لقيتهم وهم طلاع الأرض كلها ما باليت ولا استوحشت، وإنني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لعل بصيرة من نفسي ويقين من ربي). م.ن: كتاب ٦٢، ص ٤٥٢.

(٩) الكلاكل: الصدور، عو بها هن الأكابر.

(١٠) النواجم من القرون: الظاهرة الرفيعة، يريد بها أشراف القبائل.

(١١) نهج البلاغة: خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

ويحاج به من جهل سابقته فيقول (أَوْ مَا وَزَعُ الْجُهَالِ سَابِقَتِي عَنْ تَهْمَتِي
وَلَمَّا وَعَظَهُمُ اللَّهُ بِهِ أَلْبَغَ مِنْ لِسَانِي أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ
الْمُرْتَابِينَ)^(٤).

وكانت شجاعة الإمام عليه السلام صورةً يستحضرها في خطابه
عند تخاذلهم ليكون لهم بها انتفاع، فتكون دروساً وعبر لهم نحو قوله
(فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيُورُ عَلَى الْآبَاءِ
وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَةِ تَفَمَّ مَا تَرَدَّ أَدْعَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيْمَانًا
وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ وَصَدْرًا عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ)^(٥)، مثلما
كانت شجاعته تجارب عظيمة سبقهم إليها، وتوجّه لنصحهم بها فيقول
(وَأَيُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ فَوْيهِ رَبَاطَةِ جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ
إِخْوَانِهِ فَتَلَّ فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ كَجِدَّتِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ
عَنْ فَوْيهِ فَلَوْ تَلَّ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلًا)^(٦)، وخبرة عسكرية تمكن بها من حسم
المعارك بأسرع وقت دون بذل تضحيات كثيرة ولا سيما معركة الجمل^(٧)،
وشجاعة الإمام عليه السلام تعليمات يتوجه بها إليهم في خطابه الجهادي
بكيفية القتال تغنيهم عن أي تجربة مسبقة، فلا تقف عند حد القتال بل
تتجاوز ذلك إلى الحواس وكيفية توجيهها في أثناء القتال إذ يقول عليه
السلام (فَقَدِّمُوا وَالْطَّرِيعَ وَأَخْرُوا الْحَاسِرَ وَعَاضُوا عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ
أَنْبَى^(١) لِلْسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوَوُّا^(٢) فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَمُورُ^(٣)
لِلْأَسِنَّةِ وَعَاضُوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَمِيتُوا
الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرُ دُلْفَتَلِي^(٤))، وشجاعته في الوقت نفسه صرخات مدوية
توقظ الأذهان وترهب الأعداء نحو قوله (أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا

(٤) م.ن : خ ٧٥، ص ١٠٣.

(٥) م.ن : خ ١٢٢، ص ١٧٩.

(٦) م.ن : خ ١٢٣، ص ١٧٩-١٨٠.

(٧) فقد رأى اقتتال العدو وبذله التضحيات ما زال الجمل قائماً، ولذا فقد أشار عليهم بضرب
عجز الجمل حتى وقع صريعاً ففرت الرجال عنه ثم أمر بإحراقه وذرعه في الريح لشبهه بعجل
بني إسرائيل. ينظر : الجمل وصفين والنهروان، أبي مخنف الأزدي (١٥٧هـ)، تحقيق : حسن
حميد، دار الإسلام، لندن، ط ١، ٢٠٠٢ : ٢٠٦.

(١) أنبى : من (نبا السيف) إذا دفعته الصلابة من موقعه فلم يقطع.

(٢) التووا : انعطفوا وأميلوا جانبكم لتزلق الرماح ولا تنفذ فيكم أسننتها.

(٣) أمور : أي أشدفعلاً للمؤر، وهو الاضطراب الموجب للانزلاق وعدم النفوذ.

(٤) نهج البلاغة : خ ١٢٤، ص ١٨٠.

قَالَ اللَّهُ تُونَّ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفَةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَراشُ الْهَامِ وَتَطِيحُ السَّوَاءِ دُونَ الْأَقْدَامِ وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ^(٥).

لقد كانت شجاعة الإمام عليه السلام شوقاً منه إلى لقاء العدو إذ يقول الإمام عليه السلام (وَاللَّهِ لَا أَكْأَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا إِلَى بَارِهِمْ)^(٦)، مثلما كانت رجاءً لنيل الشهادة في سبيل الله التي كان الإمام عليه السلام يعتمدها (مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ)^(٧)، وصبراً على ما يجد من تقاعس المقاتلين عن الجهاد ولذا يقول (وَاللَّهِ لَوْ لَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَوُوَّ وَ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ لَقَرَّرْتُ رِكَابِي ثُمَّ تَخَضْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَ شَمَالٌ)^(٨)، لذا لم يتراجع الإمام عليه السلام ولم يخضع لتهديد ولم يرهبه ضرب، وهو على يقين من أمره يدفعه للعجب ممن يستخف بتلك الشجاعة وهو يعلم بماضيه ومواقفه السابقة إذ يقول (وَمِنْ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أُرَزَّ لِلطَّعَانِ وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجَلَاءِ دَهَلْنَهُمُ الْهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدَى بِالْحَرْبِ وَلَا أَرْهَبُ بِالضُّوبِ وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَ عَوْ شُهُةٍ مِنْ بَيْنِي)^(٩).

لقد كان يتوعدهم بسيفه ناصراً للحق، بما خبروه من ماضٍ مشرف لما سيكون من غدٍ نحو قوله (وَ أَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّيْتُ بِحَذَائِيرِهَا وَاسْتَوْسَقْتُ فِي قِيَّ إِنِّهَا مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبْنْتُ وَلَا خُنْتُ وَلَا وَهْتُ وَ أَيْمُ اللَّهِ لَا أَقْرَنُ^(١٠) الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَصْرَتِهِ)^(١١)، فشجاعته تفرداً وثقةً بنصر الله جلّ وتوكلاً عليه قبل أن تكون ثقةً بنفسه.

وإن كان صدق الإمام عليه السلام الإيماني وشجاعته الرسالية روافد لقوة عقيدته وثباتاً على المبدأ، فإن العصمة أساس وتثبيت وحجة على من أنكر، والعصمة لطف الهي^(١٢)، وقوة قدسية تمنع حاملها عن ارتكاب الذنوب ومقارفة المحرمات، لمعرفته بالدين وإدراكه للحق، وتمثل أعلى درجات التقوى، وهي أمر يتصل بجوارح الإنسان مما لا يتسنى لسائر الناس معرفته.

(٥) م.ن : خ ٣٤، ص ٧٨.

(٦) م.ن : خ ١٢٤، ص ١٨١.

(٧) م.ن : خ ١٥٦، ص ٢٢٠.

(٨) م.ن : خ ١١٩، ص ١٧٦.

(٩) نهج البلاغة : خ ٢٢، ص ٦٤.

(١٠) لأبقرن : من البقر — وهو الشق — والمراد : لأشقق جوف الباطل بقهر أهله، فأنترع الحق من أيدي المبطلين.

(١١) نهج البلاغة : خ ١٠٤، ص ١٥٠.

(١٢) (وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَ الثُّغَايَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ). م.ن : خ ٢١٠، ص ٣٢٦.

إلا أنها لا تعني افتقاره القدرة على ارتكاب المعاصي "وإنما هي تأييد من الله للإنسان الذي يتجاوز ذاته وواقعه بعد أن يرتفع بإرادته الحرة إلى مستوى تلقي هذا التأييد" ^(٥)، ولذا كان تعيين الإمام عليه السلام أمراً من الله تعالى ^(٦)، وقد خصّ أهل البيت عليهم السلام بهذه العصمة، لما علم منهم صبراً على طاعته واندفاعاً للعمل بمرضاته فهم اكمل الناس وأكثرهم فضلاً في ما انعم الله تعالى بهم على المسلمين، إذ جعلهم (لَا خَيْرَ أَهْلًا وَلِلْحَقِّ دَعَائِمٌ وَلِلطَّاعَةِ عِصْمَةٌ) ^(١).

لقد كانت عصمة الإمام عليه السلام فطرة عليها ولد عليها ^(٢)، فلم يعبد صنماً ولم يسجد لوثن، فقد كان الإسلام معنىً في عقله قبل أن يكون ديناً ^(٣)، وبقي محافظاً عليها فتحولت عصمته إلى عصمة وعي في بيئته لم يلتق فيها سوى برسول الله ﷺ.

فقد ولد الإمام عليه السلام في السنة التي ابتدأ فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتبذل والانقطاع في جبل حراء ^(٤)، ونهل من الأخلاق الملائكية التي تربي عليها رسول الله ﷺ، ويصف ذلك الإمام عليه السلام بقوله (وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لُئِي أَنْ كَانَ فَطِيماً أَكْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْأَلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ الْعَالَمِ لِأَيْهَوَ تَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَنْتَبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ) ^(٥).

وقد كانت متابعتة للنبي ﷺ وإقتداؤه به، عصمة تتضح مؤشراتهما في سماع الإمام عليه السلام ورؤيته لما يسمعه النبي ﷺ ويراه، فقد عاش الإمام عليه السلام التحول الروحي الذي شهدته نفس النبي ﷺ، ومثيله الذي جرى في عالم الغيب بهزيمة الشيطان واندحاره فور بعثة الرسالة الخاتمة.

^(٥) معالم الفكر الرسالي المسؤول، احمد ناصر، الثقافة الرسالية : ١٩.

^(٦) يروى عن الإمام الرضا عليه السلام قوله (إن الإمامة أجلّ قدراً واعظم شأنًا وأعلى مكاناً وامنع جانباً وابعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بأرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم). أصول الكافي : ٢٢٣/١.

^(١) نهج البلاغة : خ ٢١٤، ص ٣٣٠.

^(٢) ينظر : م.ن : خ ٥٧، ص ٩٢.

^(٣) ينظر : علي ميزان الحق، محمد حسين فضل الله، إعداد : صادق اليعقوبي، دار الملاك، بيروت، ط ١،

٢٠٠٣ : ٤٣-٤٨.

^(٤) ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ٤/٤٩٩.

^(٥) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

فكانت الوزارة أول منصب أخبره النبي ﷺ به منذ رؤيته تلك الأخلاق إذ يقول الإمام (وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ تَزَلُّ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خِيٍّ)^(١).

وقد تجسدت عصمة الإمام عليه السلام في عبوديته لله عز وجل وسبقه إلى كل فضيلة واندفاعه إلى طاعة الله تعالى، وطهارته من كل فاحشة، ونقاؤه من كل دنية، فكانت آيات الله سبحانه تؤيد ذلك الخلق الإيماني بتطهيره وأهل بيته من كل رجس^(٢)، تطهيراً يصل إلى درجة العصمة^(٣).

وقد كانت عصمة الإمام نزاهة في كل فكرة أو عاطفة أو أمر وانفعالاً كاملاً بالرسالة الإلهية وتجاوباً معها وتجسيدا لجميع معطياتها الروحية والفكرية والعملية^(٤).

ولذا كانت عصمة الإمام عليه السلام أساساً لقوة عقيدته المتجسدة في نور بصيرته ووضوح طريقه، ولذا فقد كان يقول (مَا تَكُنْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أَرَيْتُكُمْ)^(٥)، وعدم شكّه في الحق واختلاطه عليه بالباطل دليل على الطهارة والعصمة^(٦)، فالحق إيمان يقيني لا شك معه، وطريق الإمام عليه السلام هو طريق الهدى الذي لا يسير فيه إلا قلة من الناس ولذا يقول (أَتُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْجِسُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ)^(٧)، وقد ضلّهم الإمام على هذا الطريق ليتسنى لهم بعد ذلك السير فيه، إذ يقول الإمام عليه السلام (لَقَدْ

(١) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠١.

(٢) يروى نزول قوله تعالى ((إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)) (سورة الأحزاب/٣) بروايات عدة توضح تشديد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليها في مواقف عدة، فتارة بذكر أسماء المخصوصين بها كونهم الإمام علي وفاطمة والحسين عليهم السلام، وأخرى بإلقاء كساء يضمهم وتكرار قول الآية، وأخرى بتلاوة الآية على بابهم ستة أشهر عند طلوعه لصلاة الفجر، بما يستدل على كون الآية خصت بهم دون سواهم . ينظر : أهل البيت سماتهم وحقوقهم في القرآن الكريم، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، إيران، ط ١، ١٤٢٠ هـ : ٢١-٢٩.

(٣) ينظر : البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، سليمان زادة، إيران، ط ١، ١٣٨٢ هـ : ٣٣.

(٤) ينظر : أئمة أهل البيت، محمد باقر الصدر، شريعة، إيران، ط ١، ١٤٣٥ هـ : ١٧٠-١٧٢.

(٥) نهج البلاغة : خ ٤، ص ٥١.

(٦) ينظر : شرح البحراني : ١/١٨٣.

(٧) نهج البلاغة : خ ٢٠١، ص ٢١٩.

حَمَلْنُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَلِكٌ مِّنْ اسْتِقَامٍ فِإِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ زَلَّ فِإِلَى النَّارِ^(١).

العلم:

اقتترنت سمة العلم عند الإمام عليه السلام بعصمته، فقد كان إيمان الإمام عليه السلام منذ طفولته شعلة مضيئة في قلبه، بإفراغه من كل شرك وملازمته للنبي ﷺ واتباعه كاتِّباع الفصيل اثر أمه^(٢)، فكان علم الإمام عليه السلام استعداداً منه لتقبل تعليم الرسول ﷺ له بروحه الإيمانية وفراسته^(٣).

وقد تعزَّز ذلك بذكاء اتضحت معالمه منذ طفولته في أسئلة كثيرة توجه بها إلى النبي ﷺ ليستفهمه -فإن سكوت بادره النبي ﷺ به-، ويصف ذلك الإمام عليه السلام بالقول (وَأَمِينَ كُلِّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ يُوسْتَفْهُمُ حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُجِدُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْوَابِيُّ وَالطَّارِئُ فَيَسْأَلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَسْمَعُوا وَكَأَنَّ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُ^(٤))، وقد اجتمع ذلك مع دعاء توجه به الرسول ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى لتكون أذنه واعية^(٥)، زيادة على ذلك ما أكسبته التجارب من معرفة لحقائق الأمور^(٦).

أما ما كان من العلم إفاضة على الإمام عليه السلام^(٧)، فهو مما خصه رسول الله ﷺ به قبل وفاته^(٨)، ولا سيما المغيبات التي أفاضها عليه

(١) م.ن : خ ١١٩، ص ١٧٦.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) فيقول الله تعالى ((إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)) (سورة الحجر / ٧٥)، أصول الكافي : ٢٧٥/١.

(٤) نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٣٢٧.

(٥) قال الإمام علي عليه السلام (ضممني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي امرني ربي ان أدنيك ولا أقصيك وان تسمع وتعي، وحق على الله ان تسمع وتعي فنزلت ((وتعيها أذن واعية)) (سورة الحاقة/ ١٢)، المناقب : ٢٨٢.

(٦) ويؤكد الإمام عليه السلام على تجاربه التي خاضها وأهميتها في وصيته لابنه الحسن عليهما السلام (لتستقبل بجدر أيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة، فاتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه، واستبان لك ما ربما اظلم علينا منه). نهج البلاغة : وصية ٣١، ص ٣٩٣.

(٧) ينقسم العلم بطريقة تحصيله قسمين (حصولي، وحضورى) : فالحصولي هو ما كان تعلمه واكتسابه بالحواس وهو متاح للناس جميعاً. أما الحضورى فهو ما كان هبة وفيضاً إلهياً يلقيه الله على مصطفىه بطريق الإلهام أو تعليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ينظر : العبد الصالح، محمد فاضل المسعودي، التوحيد، إيران، ط ٢، ١٤٢٤ هـ : ٢٢٧.

(٨) ينظر : معادن الحكمة : ٧٥/١.

على نحو الإجمال، الأمر الذي يتيح لصفاته الروحي وقواه الخفية إدراك تفصيله^(٥)، وتشديد النبي ﷺ على ما أوتي الإمام عليه السلام من العلم خير دليل على تلك الإفاضة^(٦).

ولم يختص علم الإمام عليه السلام بجانب معين، ولم يقف عند حد، بل كان علمه عبقرية تمثلت في تكوينه الذاتي وحجه القاطعة وحكمته البالغة وقيادته الفذة وبمظاهر شتى، حتى يمكن عتّا تكاملاً بين شخصيتي الرسول ﷺ والإمام عليه السلام^(٧)، فقد كان الإمام عليه السلام يناظر بعلمه أهل الديانات الأخرى، ويحاجج به أهل النبوات السابقة للإسلام^(٨)، بما كان النبي ﷺ يحيل عليه فيسبق ولا يلحقه أحد ويقيم الحجة عليهم بمعجزات لا تحدث إلا للأنبياء^(٩)، الذين كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وارثاً لعلومهم^(١٠)، ومورثه لوصيّه، ليكون علمه جامعاً لعلم النبوات جميعها ومؤدياً (مَا أَتَى الْأَوْصِيَاءُ)^(١١).

ولذا كان الإمام عليه السلام أعلم الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١٢)، ويتجسد علم الإمام عليه السلام في انه الأعم بأحاديث النبي ﷺ وأوقاتها ومناسباتها وسنّته بأكملها^(١٣)، فلم يشغله ما كان يشغل سواه^(١٤)، مثلما هو الجامع للقران بحسب نزوله^(١٥)، وإن كان ترتيب السور

(٥) ينظر : دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية بيروت، ط ٤، ٢٠٠١ : ٣٢٦.

(٦) حيث ان بناء الفعل للمجهول في قول الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أوتيت جوامع الكلم، وأوتي علي جوامع العلم) دليل على كون العلم الذي أوتي للإمام عليه السلام لم يكن بتعليم من الرسول فحسب. ينظر : مصادر نهج البلاغة وأسانيده : ١٧٢.

(٧) ينظر : ملامح من عبقرية الإمام، مهدي محبوبية، الزهراء، بغداد، ١٩٦٧ : ١٣١.

(٨) ولذا كان الإمام علي عليه السلام يقول (لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل القرآن بالقران حتى يزهر إلى الله، ولحكمت بين أهل التوراة بالتوراة حتى تزهر إلى الله، ولحكمت بين أهل الإنجيل بالإنجيل حتى يزهر إلى الله، ولحكمت بين أهل الزبور بالزبور حتى يزهر إلى الله). أصول الكافي : ٤٣٨/١.

(٩) ينظر : مناظرات الرسول المصطفى (ص) والإمام علي (ع) مع اليهود والنصارى، محمد علي دخيل، دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٢.

(١٠) ينظر : أصول الكافي : ٢٤٩/١.

(١١) نهج البلاغة : خ ١٨٢، ص ٢٦٣.

(١٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أعلم أمتي بعدي علي بن أبي طالب). المناقب : ٣٩.

(١٣) نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٤) يروى عن أبي هريرة عند سؤاله عن سبب كثرة حفظه لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله : "ان إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق وان إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم". الطبقات الكبرى : ٣٦٣/٢.

على ما هو عليه في مصحف عثمان جرى في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(١)، والأعلم بأحكامه، إذ يقول الإمام عليه السلام (نزل القرآن أثلاثاً : ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام)^(٢)، بأسرارهِ وعلومهِ^(٣)، ومقاصده التي جمعتها سورة الفاتحة^(٤)، ومبهماتهِ^(٥)، وأوقات نزول آياته وما يتصل بها من ملابسات وحوادث جاءت الآيات متساوقة معها، إذ يقول الإمام عليه السلام (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً)^(٦)، بل كان عند الإمام عليه السلام علم الكتاب كله ظاهره وباطنه، واسم الله الأعظم الذي تمكن من عنده علم بحرف واحد منه -وهو آصف- من نقل عرش بلقيس إلى النبي سليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، فكيف بمن عنده علم الكتاب كله^(٧).

ولذا فقد خصّه الله تعالى وأهل بيته من بعده عليهم السلام بصفة العلم حتى وصفهم في كتابه بصفة الراسخين في العلم، وخصّهم بتأويله^(٨)، ولذا يصفهم الإمام عليه السلام بالقول (الْعَلَمُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمْ الَّذِينَ أَغْلَهُمْ عَنْ افْتِحَامِ السَّدَادِ الْمَضْرُوبَةِ تُؤَنُّ الْغُيُوبِ الْإِقْرَارُ بِجُمْلَةٍ مَا جَهِلُوا تَقْدِيرَهُ مِنْ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ فَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَلْوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً وَ سَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفَهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً)^(٩)، والراسخون هم "المتمكنون في العلم، تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوانة"^(١٠).

(٨) م.ن : ٢٥٥/١.

(٩) ينظر : تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق : عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦ : ٥٩.

(١) أصول الكافي : ٦١٩/٢.

(٢) ينظر : م.ن : ٢٦٨/١-٢٧٢.

(٣) ينظر : تناسق الدرر في تناسب السور : ٦١.

(٤) ينظر : الطبقات الكبرى : ٣٦٧/٢.

(٥) ينظر : م.ن : ٣٣٨/٢.

(٦) ينظر : أصول الكافي : ٢٥٦/١.

(٧) ينظر : م.ن : ٢٣٩/١.

(٨) نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٢٥.

(٩) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق : محمد عبد الغني، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ : ١٢٢.

وقد كانت عصمة الإمام عليه السلام وصلاً بين عقيدة الإمام وعلمه بوصفهما شرطين للإمامة وبهما الحجة على الخلق^(١)، فلم يقف علم الإمام عليه السلام عند حد بل تعدى ذلك إلى علم "البلايا والمنايا والوصايا وفصل الخطاب"^(٢)، وبعلمه كان يجيب عن كل سؤال بل انه يسبق المتسائل بسؤاله فيجيبه عليه، ويتوجه إليهم بالقول (وَاللّٰهُ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ)^(٣).

ولذا فقد كان الإمام عليه السلام يتوجه إلى الناس بعلمه طالباً من يسأله بقوله (فَاسْأَلُونِي قَلِّي أَنْ تَفْقُؤُونِي فَوَ الْ فِي فُيِّي بِإِيْهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ عَفِيمًا بَدَّيْكُمْ وَ بَدَّيْ السَّاعَةِ وَلَا عَنْ فِتْنَةٍ تَهْبِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِمَلْعَقَتِهَا)^(٤) وَقَادِي يَخْطُ وَسَائِقِهَا وَمُنَاخِ^(٥) رِكَابِهَا وَمَحْطِ رِحَالِهَا وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتًا)^(٦)، لا لأنه المحاجج لأهل الديانات الأخرى والأعرف بها فحسب، بل لأنه العارف بالفتن المتصدي لها، ولذا كان يقول (أَتَيْهَا النَّاسُ سَلُونِي قَلِّي أَنْ تَفْقُؤُونِي فَلَا نَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ قَلِّي أَنْ تَشْدَحُوا بِرِجْلِهَا فِدَنَةً تَطَأُ فِي خِطَامِهَا وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا)^(٧).

لقد خلف رسول الله ﷺ الإمام عليه السلام في الناس باباً لعلمه، قائلاً (أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْحِكْمَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ)^(٨)، ولذلك يحتج الإمام عليه السلام على من أخذ بالبدع وخاض غمرات الفتن، لتركه من جعله الله في منجاة منها بعلمه فيقول عنه وأهل بيته (نَحْنُ الْأَصْحَابُ وَالْ حَزَنَةُ وَالْأَوَابُ وَلَا تُؤَيُّ الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَوَابِهَا فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا)^(٩).

(١) ينظر : أصول الكافي : ٢١٥/١ - ٢١٦.

(٢) م.ن : ٢٢٢/١.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(٤) ناعقها : الداعي إليها، ومن نعى بغنيمة صاح بها لتجتمع.

(٥) مناخ : محل البروك.

(٦) نهج البلاغة : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(٧) م.ن : خ ١٨٩، ص ٢٨٠.

(٨) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٧٤/٩.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥. ويريد الإمام عليه السلام بالخرنة والأبواب خزنة العلم وأبوابه. ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٧٤/٩.

وقد كان علم الإمام بنية من الله وقوة عقيدته طريقاً واضحاً، يضعه الإمام عليه السلام بقوله (وَإِنِّي لَعَلِّي بَرِيَّةٌ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَا جِ مِنْ ذِي وَإِنِّي لَعَلِّي الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْفُطُ أَلْفُطُ) (٢) (٣).

العدل:

يعد عدل الإمام تجسيداً للعدل الإلهي في الأرض من خليفة الله جل وعلا ودليلاً على كونه الحجة على خلقه، فالعدل هو الهدف الذي جاءت به الأديان، ونزلت به الشرائع، وبه تحفظ للإنسان كرامته و يسان المجتمع من الفساد والتهوي و يضمن له توازنه، وبه توضع الأمور في مواضعها الصحيحة (٤)، ولذلك فقد خص الله تعالى به الأئمة عليهم السلام، وعدل الإمام عليه السلام ثالث المرتكزات الإرسالية المتممة لقوة العقيدة والعلم والمتسبب عنهما والمسبب لهما والجانب التطبيقي لهما (٥).

وقد كان عدل الإمام عليه السلام ميزة شهدها الجميع زمن النبي ﷺ فكان القضاء أول ما وضع فيه عدل الإمام عليه السلام، إذ كان النبي يحيل عليه المتقاضين ليحكم بينهم، فما إن يُصدر حكمه حتى يثني عليه ويؤكد صحته، ويؤيد ما قضي به وينفذ قضاءه (٦)، ولذا وصفه بأقضى الأئمة (٧)، وولاه قضاء اليمن رغم صغر سنه، ودعا له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتسديد قائلاً (اللهم اهد قلبه وثبت لسانه) (٨).

وقد كان للإمام عليه السلام القضاء في أمور مستعصية على من جاء بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جهلاً بالحكم بها، فقد كان عمر بن الخطاب يستعين بقضاء الإمام علي عليه السلام ويعلم حاجته إلى ذلك العلم الرسالي (٩)، واستمر إلى توليه الحكم بنفسه، فكان قضاء الإمام عليه السلام واحداً مهما اختلف سنه أو تنوّعت الظروف الداعية له.

(٢) اللّقط : أخذ الشيء من الأرض.

(٣) نهج البلاغة : خ ٩٧، ص ١٤٢.

(٤) ينظر : م.ن : قول ٤٣٧، ص ٥٥٣.

(٥) ينظر : م.ن : قول ٣١، ص ٤٧٣.

(٦) ينظر : مطالب السؤول : ٨٣/١-٨٥.

(٧) ينظر : الطبقات الكبرى : ٣٣٨/٢.

(٨) الطبقات الكبرى : ٣٣٦/٢.

(٩) ينظر : انساب الأشراف، البلاذري، تحقيق : محمد احمد المحمودي، الأعلمي، بيروت، ط ١،

١٣٩٤ هـ : ٩٧-١٠٠.

ومن هنا كان القضاء عند الإمام وصلاً بين علمه وعدله وميداناً جامعاً لهما، فالقاضي يعطي كل ذي حق حقه لتسود العدالة في المجتمع "ومعرفة الحق بحاجة إلى حس مرهف، وإلى حكمة عالية، وإلى إيمان صادق وذكاء خارق" ^(٣)، وقد كان عدل الإمام عليه السلام امتداداً لعدل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما لم يستطع أحد نقضه حتى بعد وفاة النبي ﷺ.

وقد كان أول عدل الإمام عليه السلام عدله في نفسه و محاسبته لها، في كل صغيرة وكبيرة أمر بها الله تعالى أو نهى عنها فلا يأمر بعدل إلا بعد أن ياتمر به ^(٤)، وكان يساوي نفسه بأضعف الناس مأكلاً ومشرباً وملبساً ومواساةً لهم حتى كان يرى تلك المساواة فرضاً واجباً قائلاً (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَيْمَةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ كَيْلًا يَتَّبِعُ^(١) بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ) ^(٢)، وكان ذلك حتى مع ابعاد رعاياه مكاناً عنه، بل كانت مساواته إثارة للناس على نفسه، وإنصافاً لهم منها.

أما عدله في الناس فقد كان علمه بعدم تحمل الناس للعدالة التي يريد تطبيقها السبب الرئيس لرفض الإمام عليه السلام لبيعة المسلمين له بعد مقتل عثمان، وإعلانه لصعوبة الأمر الذي يواجهه المسلمون، معتذراً ومحذراً إياهم من عدله وصرامته في الحق بالقول (دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا عَوِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَّهُوْجُوهُ وَالْوَأْنُ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَنْتَبِثُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَمَّتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَكَرَّرَتْ. وَاعْمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أَصْنَعْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَثْبِ الْعَاتِبِ) ^(٣)، فكان العدل حقاً نطق به وحكماً أجراه وطريقاً دعاهم إليه.

وقام الإمام عليه السلام بعد تسلمه الحكم إعطاء كل ذي حق حقه وذلك بالعودة إلى سياسة التسوية التي سار بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومصادرة الأموال المنهوبة قائلاً (وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُ هُكْدُ نُرُوجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاءُ لَرَدَدْتُ هُمَانًا فِي الْعَدْلِ سَعَةً وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ

^(٣) القضاء والنظام القضائي عند الإمام علي (ع)، محسن باقر الموسوي، الغدير، بيروت، ط ١، ١٩٩٩: ٧٧.

^(٤) ينظر: نهج البلاغة: خ ٢٢٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

^(١) يتَّبِعُ: يهيج به الألم فيهلكه.

^(٢) نهج البلاغة: خ ٢٠٩، ص ٣٢٥.

^(٣) م.ن: خ ٩٢، ص ١٣٦.

الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقُ^(٤)، ثم اخذ بحل المشاكل التي تضجر منها الناس بمعالجة الأهم فالمهم منها^(٥).

لقد عرف الإمام عليه السلام عزَّ العبودية وإخلاص الطاعة لله، ولم يهتمه نعيم فان ولا لذة زائلة، إذ يقول (مَا لِعَلِيٍّ وَلَا نَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى)^(٦)، فكان بيت المال يمتلئ بالأموال في المساء فلا يمهلهما البقاء لغد لا يضمن البقاء فيه فيوزع المال، فلا تغرّه بيضاء أو صفراء ليأخذ منها^(٧)، ولا تخذعه هدية عن الحق فيجيب مهيديها (وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّيِّئَةُ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاقِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهُ فِي مَلَةٍ أَسْلُبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ)^(٨) مَا فَعَلْتُ هَوَانٌ هُنَاكُمْ عَذِي لَا هَوْنٌ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا^(٩)، فعدالة الإمام عليه السلام إنصاف للناس من نفسه وزهد بمفاتن الدنيا وما في أيدي الآخرين منها.

وكان عدل الإمام عليه السلام ثباتاً على الحق، وهو القائل (الدَّلِيلُ عَذِي عَزِيزٌ حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عَذِي ضَعِيفٌ حَتَّى أَخْذَ الْحَقَّ مِنْهُ)^(٤)، وابتعاداً عن الظلم فلا يداهن ولا يصانع ولا يساوم على حساب دينه ولا يخاف في الله لومة لائم، وإن عوتب من اقرب الناس إليه، صارماً في إقامة الدين، معلناً ذلك بقوله (وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيَّتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجِرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعَبْدِ يَدُوَّ غَضَباً لِشَيْءٍ مِنَ الْخُطَامِ وَكَيفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِفَسِّ يُسْرِعُ إِلَى الْبُلَى فُقُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا)^(٥)، فلا تزيده كثرة الناس عزاً، ولا تفرقهم وحشة بعد أن سلبه الحق كل صديق، لقلة أهل الحق دائماً واجتماع أكثر الناس على الباطل.

وقد كان الإمام عليه السلام يعلم أن هذه السياسة ستكون سبباً في التآليب عليه، ولا سيما سياسة التسوية التي كانت تضر بمصالح فئات كثيرة وأبرزها الأنصار والمهاجرين^(٦)، ولذا فقد كان الإمام عليه السلام

(٤) م.ن : خ ١٥، ص ٥٧.

(٥) ينظر: سيرة المرتضى، محمد علي الحسيني، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٩٦ : ٢٧١.

(٦) نهج البلاغة : خ ٢٢٤، ص ٣٤٧.

(١) الجمل : ٤٠٢.

(٢) جلب الشعيرة : قشرتها.

(٣) نهج البلاغة : خ ٢٢٤، ص ٣٤٧.

(٤) م.ن : خ ٣٧، ص ٨١.

(٥) م.ن : خ ٢٢٤، ص ٣٤٦.

(٦) ينظر : الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل،

١٩٩١ : ٤٣٤.

يعلم ما يصلح حالهم معه، ولكنه لا يصلحهم بفساد دينه ولا يشتري النصر بالجور^(١)، فكان كما وصفه رسول الله ﷺ (والله انه لأخشن في ذات الله)^(٢).

ومن هنا لم يكن خطاب الإمام عليه السلام خطاباً عادياً، فالإمام عليه السلام الوارث للنبوة، الحامل للرسالة، فقد كان خطابه عدلاً يسبق إشهار السيف ويزيده قوة ومضاء فيرشح بعلمه الرسالي، ويفيض بأخلاقه المتفردة ليكون فيصلاً بين الحق والباطل لوضوح الجانب الإرسالي في الخطاب، بسمات تشع في خطابه تارة، ويباشر بها مخاطبيه تارة أخرى بصفة رسالية من جانب وإرسالية من جانب آخر.

(١) نهج البلاغة : خ ٦٩، ص ٩٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك : ٤٠١/٣.

منبر الإرسال

ارتبط اعتلاء المنبر الخطابي بمن تولى أمور المسلمين منذ زمن رسول الله ﷺ، وكان أول اعتلاء للنبي ﷺ صعوده في أول بعثته الصفا منادياً يا قريش : يا صباحاه فاجتمعوا له وبدأ بإنذارهم من عذاب شديد^(١).

وكان المنبر وسيلة توصل صوت الرسول ﷺ إلى الناس لتعليمهم الشرائع والأحكام، مبتدئاً بظهر دابته، ثم تحوله إلى جذع نخلة^(٢) حنّ إليه عند تركه حنين النوق حتى التزمه فسكن^(٣)، ثم إلى نصب منبر عال يراه منه الجميع ويصل صوته إليهم^(٤).

وقد ازدادت أهمية المنبر للمسلمين بعد أن سنّت صلاة الجمعة والعيدين فأصبح رفيقاً منتظماً كل أسبوع، يلتقي حوله المسلمون بمن ولّاه الله تعالى أمورهم.

وعلى الرغم من تساوق إرسال الإمام عليه السلام لخطاباته مع توليه مهام المنصب الرسمي للأمة الإسلامية، لم يكن وقوفه على المنبر الخطابي بجديد عليه ولا على أكثر متلقيه، بل كان متوافقاً مع مراحل الدور الرسالي التي مرّ ذكرها، أو الظرف الحاصل فيها.

ففي المرحلة الأولى كان يعتلي المنبر ليقف بين يدي رسول الله ﷺ في مناسبات عّة كي يراه الناس -لصغر سنه - عند إسماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين جميعاً الآيات النازلة فيه وتأكيداً بالأحاديث النبوية ولتشديد بمواقف السبق التي تقدم بها الإمام عليه السلام إعلاءً لشأنه وتخليداً لفضائله وإعلاماً لمتجاهلي سماته، وإيضاحاً لمنزلته، فان لم يجد مكاناً مناسباً، فراحلة النبي ﷺ خير مكان يعلوه الإمام عليه السلام ليعلن النبي ﷺ منه صفات الإمام عليه السلام ويشيد بفضله^(١).

وقد كان الإمام عليه السلام مخصوصاً بأداء بعض المهام الرسالية التي ينوب فيها عن النبي ﷺ إما قاضياً بين الناس بأحكام مسددة لا

(١) الطبقات الكبرى : ١٣٣/١.

(٢) ينظر : سنن الدارمي : ١٦/١.

(٣) ينظر : سنن الترمذي : ٨/٢.

(٤) إذ يقول الإمام عليه السلام عن رسول الله ﷺ (مَوْلَاهُ بِمَكَّةَ وَهُجُودُهُ بِطَيْبَةِ عَلَا بِهِ إِكْرَاهُ وَأَمَّ دَ مِنْهَا صَوْتُهُ). نهج البلاغة : خ ١٦١، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(١) ينظر : خصائص أمير المؤمنين : ٦٠.

يصدرها إلا من دعا له الرسول ﷺ بالتسديد^(٢)، أو مناظراً بعلمه لأهل الديانات الأخرى ومجيباً عن أسئلتهم، أو مبلغاً عن رسول الله ﷺ.

فقد كان اعتلاء الإمام عليه السلام المنبر مهمة أوفده فيها رسول الله ﷺ ليبلغ عنه سورة براءة بعد أن كلف بها أبا بكر، فهبط جبرائيل عليه السلام يأمره أن لا يؤدي عنه إلا علي عليه السلام^(٣)، ثم كان المنبر الشاهد الأول على تتويجه -مثلما كان شاهداً على إعلان فضائله- ولياً لأمر المسلمين، بإعلان النبي ﷺ لولايته، ثم نصب خيمة لمبايعة الإمام عليه السلام.

أما في المرحلة الثانية فقد وقف الإمام عليه السلام محاججاً بما أعلنه النبي ﷺ وشهده المسلمون مطالباً بحقه في خلافة النبي ﷺ ووصايته ووراثته^(٤)، فكانت تهديئة الإمام للفتنة و انسحاب الإمام عليه السلام عن المنبر، بعد أن شاركته الزهراء عليها السلام ذلك الاحتجاج لما أصابها من ظلم^(٥)، تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ التي خص بها وليه عليه السلام عند عدم وجود الناصر وحفاظاً على بيضة الإسلام.

لقد كان المنبر شاهد حق ودليل صدق مع سيف الإمام عليه السلام على منزلته وخصوصية المنصب الإلهي الذي نصب فيه، إذ لم يكن منصبا دنيوياً تتناوشه الأطماع فحسب، بل كان منصبا إلهياً دينياً، لا يتأثر بإبعاد الإمام عليه السلام عن المنصب الرسمي للبلاد، إذ ان دوره الرسالي مستمر إلى آخر الزمان.

لذا لم تلبث الخلافات التي حدثت نتيجة جهل الحاكمين أنفسهم بالأحكام، وحاجتهم إلى العلم الرسالي والعدل الإمامي، أن دفعت القادة أنفسهم للاستعانة بالإمام عليه السلام في حل بعض معضلات الأمور، والاستعانة بالإمام ناصحاً مشيراً^(١)، فكان الإمام عليه السلام يندفع دون تردد في الإجابة، إذ كان همّه أن لا تضعف دولة الإسلام فتكون لقمة سائغة للدول الاستعمارية التي تحيط به وتحاول الانقضاض عليه، إلا ان

(٢) ينظر : مسند احمد : ١٥٦/١.

(٣) ينظر : أنساب الأشراف : ١٠٧، الإرشاد : ٣٧.

(٤) ينظر : الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق : طه محمد الزيني، دار الأندلس، النجف، ١٩٦٧ : ١/٢٩-٣٠.

(٥) ينظر : الطبقات الكبرى : ٣١٤-٣١٥، ولتفصيل القول فيه ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ٤، ١٦/٤٩٦.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٤٦، ص ٢٠٣. ولذا كان عمر بن الخطاب يتعوّذ من معضلة ليس لها أبو الحسن عليه السلام. ينظر : الطبقات الكبرى : ١٠٢/٢.

ذلك كان في بعض الأمور لا كلها، ولا سيما في تنظيم أمور الحكم إذ كان لا بد من الابتكار في بيئة بدوية لم تكن ذات عهد بالسياسة^(٢)، ومن قادة كانت الخلافة عندهم "تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة"^(٣).

واستمرّ سكوت الإمام عليه السلام عما أصابه من ظلم زهداً بما تنافسوا عليه، كي لا تكون مطالبته به مطالبة بحق شخصي ما دام ظاهر الظلم مقتصر على الإمام عليه السلام^(٤)، ولم يشعر الناس بالظلم إلا بعد أن عمّ ووصل إلى كل واحد منهم، وظهر الباطل جلياً واضحاً في عهد عثمان، وعندها توجه الإمام عليه السلام سفيراً موفداً من المسلمين، ناصحاً مرشداً لعثمان مصلحاً للواقع السائد^(٥)، مشيراً عليه بالحل الأمثل لتهدئة الأمور ورفع الظلم عن المسلمين^(٦).

ثم كانت الثورة التي جاءت نتيجة حتمية للأوضاع المضطربة التي سادت العصر وكان الإمام عليه السلام هو القائد الوحيد الذي اتجهت إليه أنظار المسلمين جميعاً - رغم وجود الأطماع السياسية -، فالإمام عليه السلام صوت الحق الذي بقي علماً للخلق الرفيع، فلم يداهن أو يهادن ولم يمار بالباطل ولم يفارق الحق وإن ابتعد عن منبره.

وقد وقف الإمام علي عليه السلام عند تولّيه زمام الأمور على المنبر رافضاً تسلّم المنصب الإرسالي وهو الأعلم بمجريات الأمور، قائلاً (دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَّهُ جُودَةٌ وَالْوَانُ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَنْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَمَّتْ^(٣) وَالْمَحَجَّةَ^(٤) قَدْ تَغَرَّتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنِ اجْتَبُكُم رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أَصْنَعْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَنْبِ الْعَاتِبِ وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَدَبِكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطِيعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا)^(٥)، فالخلافة منصب إلهي، إلا أنها أصبحت ملكاً مشاعاً لمن وجد في نفسه أثره على سائر الناس، حتى وإن كان دونهم، ولكن حرص الإمام على الأمة الإسلامية ومحاولته فصل مزاج الحق عن الباطل وإعادته لأهله وتفعيل معالم الدين

(٢) الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٦٦، ١ : ٤٤.

(٣) م.ن : ٥/١.

(٤) ينظر : نهج البلاغة : خ ٧٤، ص ١٠٢.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٦٤، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٢٤٠، ص ٣٥٨.

(٧) أغامت : غطيت بالغيم.

(٨) المحجة : الطريق المستقيمة.

(٩) نهج البلاغة : خ ٩٢، ص ١٣٦.

وإقامة الحدود والأحكام^(٦)، كل ذلك كان دافعا له عليه السلام لقبول الخلافة، زيادةً على قيام الحجّة عليه بوجود النصرة له^(٧)، فيتوافق دوره الرسالي عند بدء المرحلة الثالثة مع وقوفه على المنبر وإطلاقه لخطابه الرسالي.

وقد كانت الخطابة وسيلة شائعة في عصر الشفاهية أيام الجمع والمناسبات الخاصة، كالبيعة مثلاً، إلا أن الإمام استخدم الخطابة بوصفها وسيلة تجمعهم بأكبر شريحة في المجتمع ليكون وجهاً لوجه بازاء مخاطبيه، مما يتيح لهم أخذ العلم من مصدره دون حائل.

وقد كان وقوف الإمام عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيد إلى أسماعهم صوت النبي ﷺ الخالد "ويعيدهم إلى عهد النبوة الذي لا يعرف إلا الحق، والاستقامة، والمصلحة العامة"^(٨).

إلا أن اضطراب الأوضاع، وتنوع الأحداث، وانتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة، وكثرة الحروب التي خاضها الإمام عليه السلام، وترافق ذلك كله مع خطابه الرسالي، أهدى إلى تنوع ذلك المنبر-ولا سيما مع تواضع خلقه وأهمية الإسراع في العمل الصالح عنده- بين حجارة يقف عليها^(٩)، أو ناقة يطلق خطابه منها^(١٠)، أو حائط يقف مسنداً ظهره إليه ثم متوجّهاً لهم بالخطاب^(١١).

وقد حوّل الإمام عليه السلام المنبر الخطابي إلى منبر إرسالي يوجه منه خطابه الرسالي برسائل الحق التي يرسلها من جعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دليلاً على الحق^(١٢)، إذ قال ﷺ عن الإمام علي عليه السلام (ألا وإن الحق معه يتبعه، ألاميلوا معه)^(١٣)، فيعطي رايته التي خلفها رسول الله ﷺ في يد الإمام عليه السلام ويفصله عن امتزاجه بالباطل وليكون

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٣١، ص ١٨٩.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٣، ص ٥٠.

(٨) ينظر : عصر الانطلاق (الخلفاء الراشدون)، محمد سعد أطلس، الأندلس، بيروت : ٢٠٢٢/٢.

(٩) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٨٢، ص ٢٦٠.

(١٠) ينظر : شرح البحراني : ٢٣١/٢.

(١١) ينظر : م.ن : ١/١٩٢.

(١٢) إذ يقول الإمام عليه السلام (ليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب).

نهج البلاغة : كتاب ٥٣، ص ٤٤١.

(١٣) المناقب : ١٧٧.

المنبر دليل حق وشاهد صدق على معجزاته ^(١)، وإعلاناً لها ^(٢)، كما كان شاهداً على فضائله وكراماته.

^(١) ينظر : إحقاق الحق وإزهاق الباطل : ٧٢٦/٨-٧٢٨.

^(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

الصوت الرسالي

توافق إطلاق صوت الإمام الرسالي مع تسلمه مهام الإمام السياسية ليكون امتداداً لصوت النبي ﷺ، والصوت اللغوي "أثر سمعي يصدر طواعية واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق"^(١)، وذلك لان السلسلة الكلامية تتكون من "حركات استمرارية يقوم بها الجهاز النطقي في عملية تنتج وحدات صوتية ومفرداتية ومقطعية تتربط فيما بينها"^(٢).

ولم يكن منبر الإرسال المنفذ الوحيد الذي يصل الإمام بمخاطبيه، فقد كانت سمات الإمام عليه السلام وسياسته، وأخلاقه، وأفعاله السابقة لكلامه، منافذ إرسالية تصله بمخاطبيه^(٣).

وصوت الإمام عليه السلام هو صوت الحق الناطق بالعلم والحكمة، الذي ارتفع بقوة حجّته التي تهاوت أمامها بقية الحجج عالياً، وطأطأت له هامات معاديه، فتضاءلت أشخاصهم وخفيت أصواتهم^(٤).

وارتفاع صوت الإمام عليه السلام لا يعني علوّ طبقته، ولم يرد عن الإمام عليه السلام تشديده على تغيير نبرة صوته بخفض أو رفع ليناسب ارتجاله الخطاب أو ليؤثر في مخاطبيه، أو لينقل لهم انفعالاته، وإن كان الانفعال سبباً لتنويع الصوت^(٥)، إذ يصف الإمام عليه السلام صوته بالخفيض فيقول (وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلَاهُمْ قُوْتاً)^(٦)، إلا أننا نجد انعكاسات تغيير صوته على تغيير معاني ما يدعوهم إليه، فمناداة مرة ومناجاة أخرى بقوله (يَوْمًا أُنَاجِيكُمْ وَيَوْمًا أُنَاجِيكُمْ فَلَا أحرارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ)^(٧)، فالدعوتان موجّهتان لمخاطبيه، فإن

(١) علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ط ٥، ١٩٧٩ : ٦٤.

(٢) علم الأصوات العام، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، لبنان : ٩٣.

(٣) يوجز الإمام عليه السلام عمله فيهم أواخر خطبه فلا يكتفي بأقواله طريقاً للوصول إليهم، إذ يقول عليه السلام (قَدْ رَكَّزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَالِي وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفَعَلِي وَأَرَبُّكُمْ كَرَامِ الْأَخْلَاقِ مِنْ قُوسِي). نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(٤) يقول الإمام عليه السلام لابن مسهر الطائي حين قال بصوت عالٍ لا حكم إلا لله (وَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَيَّالًا شَخْصًا كَيْفَ صَوْتُكَ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ لَنَجَمَتْ نُجُومُ قَرْنِ الْمَاعِزِ). م.ن : خ ١٨٤، ص ٢٦٨.

(٥) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، المكتبة التجارية، مصر، ط ٨، ١٩٦٩ : ٢٤٥.

(٦) نهج البلاغة : خ ٣٧، ص ٨١.

(٧) م.ن : خ ١٢٥، ص ١٨٣.

كانت المناداة بصوت عال، والمناجاة بهمس أو بصوت خفيض، فانه يقول في خطاب آخر (أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً^(٣)) وَأَنَّا نَايِكُمْ مُتَّحِثاً فَلَا تَسْمَعُوا مِنِّي قَوْلًا^(٤))، وهذا دليل على عدم تشديد الإمام عليه السلام على وصول صوته كصوت مائي، ليكون تغييره بين مناداة ومناجاة فناً إقائياً يريد به التأثير في مخاطبيه.

ولم يرد عن الإمام عليه السلام لدى اعتلائه منبر الإرسال انه كان يعتمد إلى استخدام ما يوصله بمخاطبيه أو ما يعزز من أدائه الخطابي^(٥)، من حركة أو إشارة تساعد في إيصال صوته لمخاطبيه والتأثير فيهم^(٦)، لا سيما وان الإشارة "تساعد الخطيب على التنفس، وإعلاء الصوت"^(٧)، بل كان يتبع الإشارة إن صدرت عنه بالكلام ليحلّ بديلاً عنها ويوضحها^(٨).

أما ما يصاحب خطاب الإمام عليه السلام -أحياناً- من تعابير وجه أو حركات يدين فقد كان ذلك انفعالاً دافعه حرصه الأبوي على هداية الناس للعمل بطاعة الله عزّ وجل التي كان يدعوهم لها، فكان يفرح لكثرة أنصاره على الحق، ويصفق كقفيه ألماً وحسرة لما يسمع منهم من اختلاط الحق بالباطل وحيرتهم في ذلك مع وجود إمام الحق^(٩)، وتبكي عيناه حزناً لفراق اخوة الجهاد الذين لم يجد مثيلاً لهم^(١٠)، وتزداد حسرته عند تذكر حروبه الجهادية و صبره على العدو ومساوئته له مع القلة الأخيار من إخوان الجهاد وانعكاس الحال مع أصحابه الذين تبدو إمارات الإخفاق والتراجع على محيّلهم، فما انفعال الإمام عليه السلام إلا لأن المعصية نهج في سبيل الباطل وابتعاد عن الطريق المستقيم.

ويغضب الإمام عليه السلام، ولكن لله عزّ وجل إن سئل (هل رأيت الله) لما يراه ممن يريد تجسيم الله بوصفه ومساوئته بالبشر^(١١)، ويخاف الإمام عليه السلام، ولكن على أمته لا على نفسه كخوف موسى على قومه

(٣) مستصرخاً: مستنصراً أي مستجلب من ينصره بصوته.

(٤) نهج البلاغة: ج ٣٩، ص ٨٢.

(٥) ينظر: علم الخطابة: ١٣٨/٢.

(٦) فما ورد من كلام الجاحظ عن الإشارة والحركة عند الخطبة فإنها جاءت في عهود تالية

ومثلها ملابس الخطيب. ينظر: البيان والتبيين: ٩١/١-١٠٠.

(٧) فن الخطابة: ٢٩.

(٨) ينظر: نهج البلاغة: ج ١٤١، ص ١٩٨.

(٩) ينظر: نهج البلاغة: ج ١٢١، ص ١٧٧.

(١٠) ينظر: م.ن: ج ١٨٢، ص ٢٦٤.

(١١) ينظر: م.ن: ج ٩١، ص ١٢٤.

إذ كان يشفق عليهم (مِنْ عَجَبَةِ الْجُهَّالِ وَ قَوْلِ الضَّالِّينِ)^(٤)، ويضيق بهم ذرعاً ويسأم عتابهم عندما يراهم راضين بالدنيا دار بقاء متناسين كونها دار زوال، فيستهويهم عصيان الإمام عليه السلام^(٥)، في وقت تحفّ فيه ببلادهم المخاطر ويتهدها غزو الأعداء، فقد كان فرح الإمام عليه السلام لنصرة دين الله جل وعزّ وحزنه لخسارة تلحق به، لا تعبيراً عن مواقف شخصية، وكيف يفرح أو يحزن من يجد الزهد كلّهُ في ترك الفرح والحزن على ما فات من الدنيا أو ما هو آتٍ فيها^(٦).

وقد كان الإمام عليه السلام يخطب من وقوف إذ كان من القوة والصلابة بحيث لا توهنه ساعات طوال يقضيها واقفاً في خطابه^(٧)، لتدفعه إلى الجلوس، فقد كان جسم الإمام عليه السلام كشجرة بريّة كلما قلّ زادها قوي عودها^(٨)، وقد كانت الهيبة التي يثيرها وقوف الإمام عليه السلام على المنبر بما لا يحتاج معه إلى عصا أو مخرصة لتضفي عليه الهيبة^(٩)، فلم يكن الإمام عليه السلام يحمل إلا السيف ذاته الذي أنطق به الحق أقامه ونصر به الإسلام، وكان كلما انحنى من كثرة المبارزة فالتعديل سبيله لا الاستبدال.

أما ملابس الإمام فقد بقيت ملابسه البسيطة ذاتها التي كانت عليه قبل توليه الخلافة، لما اتّسم به من ورع وتقوى ولباس المتقين الاقتصاد^(١٠)، والإمام عليه السلام سيد المتقين، فلم يعمد إلى تغييرها لدى صعوده المنبر أو عند تسلمه لمنصب^(١١)، بل كانت ملابسه جزء من الاقتداء الذي كان يدعوهم له.

(٤) م.ن : خ ٤، ص ٥١.

(٥) م.ن : خ ٣٤، ص ٧٨.

(٦) ينظر : م.ن : قول ٤٣٩، ص ٥٥٣.

(٧) يروى انه اتفق خطاب الإمام عليه السلام في يوم الغدير والجمعة، فوصل خطابه على المنبر إلى خمس ساعات من نهار ذلك اليوم. ينظر : مستدرك نهج البلاغة ومداركه، الهادي كاشف الغطاء، الأندلس، بيروت : ٧٩.

(٨) نهج البلاغة : كتاب ٤٥، ص ٤١٨.

(٩) ان العصي والمخاصر التي خصّها الجاحظ بباب رأى انها لا تفارق يد الملوك في المجالس، وطعن الشعوبية للعرب بأخذها في خطبهم لم تكن إلا بعد الإمام عليه السلام، محاولة لإضفاء الهيبة على الخطيب. ينظر : البيان والتبيين : ١/ ٣٧٠-٣٨٨.

(١٠) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

(١١) ينظر : تاريخ الأمم والملوك : ٤٥١/٣.

وما ملابس الإمام عليه السلام البسيطة^(٥)، إلا زهد دأب عليه في كل دقائق حياته، لا لقناعة يتحلّى باسمها أو زينة يتزّن بها ليكون من أهل الزهادة^(٦)، فملا بسه ملابس رسل الله عزّ وجل الذين جعلهم (أولي قُوّة في عزائهم وضعف فيمَا تَرى الأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ مَعَ قَلْعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونُ غَنَى وَخَصَاصَةٍ^(٧) تَمَلُّ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعُ أَدَى)^(٨)، فلم يعتمد الإمام عليه السلام لدى صعوده منبر الإرسال على لباس في إضفاء هيبة^(٩)، ولم يهتم بمظهره لتقوية شخصية^(١٠) —والإمام عليه السلام في غنى عن ذلك—، وزهد الإمام عليه السلام سابق لإطلاق صوته الرسالي —غير مقتصر عليه ليكون ذلك وسيلة لتقوية الخطاب—، فزهده طاعة لله عزّ وجل تذكّرهم بالافتداء بمن جعله الله تعالى علماً هادياً لهم قبل أن يدعوهم لنبذ شيء من حطام الدنيا الذي تتكالب عليه النفوس وتطمع في نيّله، ولا سيما وان الإمام عليه السلام لا يدعوهم إلى طاعة الله تعالى إلا ويكون تطبيق تلك الدعوة في نفسه إذ يقول (وَاللّٰهُ مَا أَحْتَكُمُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَاسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا وَلَا أَنَهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَدَّ إِلَٰهِي قَلْبُكُمْ عَنْهَا)^(١١).

إلا أن صوت الإمام عليه السلام لم يكن صوت خطيب عادي، أو قائد عسكري أو سياسي أو واعظ ديني فحسب، بل كان صوت الإمام عليه السلام مزيجاً من أصوات عدة، وكان وقوفه على المنبر وصلاً بين تلك الأصوات، لكونه صوت الحجة الناطق بلسان الله جلّ وعلا والسبيل الهادي إليه.

وأول صوت خاطبهم به الإمام عليه السلام هو صوت القرآن الذي لا ينطق بلسان وجعله الله تعالى ترجماناً له^(١٢)، ولا سيما بعد أن تعلقت

(٥) ينقل الشريف الرضي ما رواه نوف البكالي في وصف ملابس الإمام عليه السلام في إحدى خطبه الجهادية، إذ كان يخطب وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي (وَعَلَيْهِ مَوْعَةٌ مِنْ صُوفٍ وَحَمَائِلُ سَدْفِهِ لَيْفٌ وَ فِي رِجْلَيْهِ تَعْلَانُ مِنْ لَيْفٍ وَكَأَنَّ جِدَّ يَهْتَفِي بِهِ بَعِيرٌ). نهج البلاغة : خ ١٨٢، ص ٢٦٠.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٣٢، ص ٧٥.

(٧) خصاصة : فقر وحاجة.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩٢.

(٩) ولذا ما نجد في كتاب الجاحظ وسواه من صفات وعوارض للخطاب والقاتل به، إنما كان ذلك سمرّاً في مجالس العرب حتى خصوا في كتبهم أبواباً مطولة لنواديرهم وأخبارهم . ينظر : الخطبة كنثر فني : ١٤٢.

(١٠) ينظر : فن الخطابة : ٣٤.

(١١) نهج البلاغة : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(١٢) ينظر : م.ن : خ ١٢٥، ص ١٨٢.

بالقرآن أحزاب تفرّقت لتسوّ الدين على وفق أهوائها، حتى أصبح القرآن عندها سلعة نافقة إن حُرف عن مواضعه، وقد وصف أمرهم الإمام عليه السلام بقوله (إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعَشْوٍ يَعْيشُ وَنَجْهًا لَا وَيَمُودُ وَنَضْلًا لَا يَبِينُ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَوْ مِنْ الْكِتَابِ إِذَا تُلِّيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقَ بِبَيْعٍ وَلَا أَغْلَى ثَمَنًا مِنْ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْوَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ)^(٥)، فأصبحوا يحملون الكتاب على أهوائهم، ويجعلونه غطاءً واقياً لأفعالهم المنحرفة^(٦)، ولذا فصوته "صوت الإسلام الداعي للتضحية والجهاد إجلالاً للمبادئ والقيم والمثل العليا، وصوناً لوحدة الأمة، وحفاظاً على الكرامة والعزة"^(٧).

ولذا كان صوت الإمام عليه السلام صوتاً حياً يظل على مرّ الزمان يوضح كتاب الله تعالى من بعد ما رفضوا العمل بنسخة كتابه التي أودعها أسباب نزول آيات الله تبارك وتعالى وتأويلها والمناسبات النازلة فيها وأقوال السنة المؤيدة لها، وما تبع ذلك من إحراق عثمان للمصاحف وجمعها في مصحف واحد^(٨).

وصوت الإمام عليه السلام هو صوت النبي ﷺ الذي دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة وهو المبلّغ عنه^(٩)، والناطق الحق بسنته، المحيي لها بعد محاولات قتلها بمنع تداول أحاديث الرسول ﷺ تارة، وجمعها وإحراقها تارة أخرى^(١٠) بحجة الحفاظ على كتاب الله، وقتلها بالبدع الباطلة تارة ثالثة والتي يصفها الإمام عليه السلام بقوله (وَمَا أُدْخِلْتُ بِدْعَةً إِلَّا تَرَكْتُ بِهَا سُنَّةً)^(١١)، وتحريفها إما عمداً بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان على حياته حتى نزلت آيات الله عزّ وجل تنهاهم عن ذلك، أو بغير عمد^(١٢).

وصوت الإمام عليه السلام هو صوت الراعي المقتدر بصوت الداعي إلى الإسلام رسول الله ﷺ، والمسؤول عن رعيته، الواجب الاتباع

(٥) ينظر: م.ن: خ ١٧، ص ٥٩.

(٦) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٨، ص ٦٠.

(٧) الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، حبيب يوسف مغنية، دار

الهلal، بيروت، ٢٠٠٢: ٣٧٥.

(٨) ينظر: الفتنة الكبرى: ١٨٢/١-١٨٣.

(٩) ينظر: نهج البلاغة: خ ٩٥، ص ١٤٠.

(١٠) ينظر: الطبقات الكبرى: ١٤٠/٥.

(١١) نهج البلاغة: خ ١٤٥، ص ٢٠٢.

(١٢) ينظر: م.ن: خ ٢١٠، ص ٣٢٥.

منها الذي يصفه الإمام بقوله (دَاع دَعَا وَرَاع رَعَى فَاسْتَجِيبُوا لِللَّاعِي وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي)^(١)، وصوت ولي أمر الله الذي لا يصلح الأمر إلا به^(٢)، وخليفته الحجة على العباد المستمر إلى آخر الزمان الذي لا تخلو الأرض منه ولولاه لساخت الأرض بأهلها المتصل بآخر الخلفاء من ولده الحجة القائم (عجل الله فرجه وسهل مخرجه).

وصوته عليه السلام صوت الواعظ المتعظ الذي يستضاء بنوره فلا ينطق إلا علماً، لذا يدعوهم الإمام عليه السلام للاستضاءة بنوره (اسْتَضِيحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظْ مُتَعِظٍ، وَامْتَاخُوا)^(٣) مِنْ صَفْوٍ عَنِّي قَدْ رُوِّقَتْ^(٤) مِنَ الْكَدْرِ^(٥)، والطبيب الذي يتتبع مواطن الغفلة والحيرة وما أصيبوا به من داء^(٦) ويصف الدواء الناجع لها، والعالم الرباني^(٧)، الذي لا يحيا العلم إلا به، ولا يمكن الانتفاع بعمل إلا بالسير في طريقه، وهو العالم بما يصلح مخا طبيه ويقيم أودهم^(٨).

فقد كان الإمام عليه السلام الوالد الشفيق الذي يتفقد أمور أولاده ولا يبخل عليهم بحاجة، والناصح الشفيق الذي لا تجر معصيته إلا ندماً^(٩)، ويمكننا استشعار هذا الحرص الأبوي من مرارة الصبر الذي تجرّعه طيلة السنين السابقة وهو يعلم ان لا مصلح لحالهم سوى هدي السنة المتجسّد فيه، فقد حرص الإمام عليه السلام في الدور الرسالي الثالث على رد ما يواجهه به من شكوك متوارثة، أو ما يحاول أعداؤه بثّها، كوالد حريص على عدم تأثر أبنائه بما يخل بقيادته بنظرهم أو ما يؤخرهم عن طاعته لما

(١) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥.

(٢) يقول الإمام عليه السلام في وصيته لمن يستعمل على الصدقات (تقول عباد الله، أرسلني ولي الله وخليفته، لأخذ منكم حق الله في أموالكم). م.ن : كتاب ٢٥، ص ٣٨٠.

(٣) امتاخوا : استقوا وانزعوا الماء لري عطشكم من عين صافية صفت من الكدر.

(٤) رُوِّقَتْ : صفيت.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٦) (طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطَبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يُبْضِعُ ذَلِكَ حَدِيثُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبٍ عُمِّي وَأَذَانٍ صُمٍّ وَالْأَلْبَابُ يَتَّبِعُونَ مَوَاضِعَ الْغَلَّةِ وَمَوَاطِنَ الدَّوَةِ). م.ن : خ ١٠٨، ص ١٥٦.

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٠٨، ص ١٥٧. والرباني هو المتأله العارف بالله سبحانه، ولذا فقد جاء في وصف الحسن لأمر المؤمنين بالقول (كان والله رباني هذه الأمة وذا فضلها، وذا قرابتها، وذا سابقتها). شرح ابن أبي حديد : مجلد ٢، ٣٨٩/٢. وقد شاع هذا اللفظ من بعده بمعنى عالم الأمة إذ يروى عن كعب الأحبار قوله بعد موت ابن عباس مات رباني هذه الأمة هو اعلم من مات

ومن عاش. الطبقات الكبرى : ٣٧٠/١.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ٦٩، ص ٩٩.

(٩) ينظر : م.ن : خ ٣٥، ص ٧٩.

فيه صلاحهم وإصلاحهم، فلا يهمله عليه السلام تأخر سامعيه وسليبيتهم في طاعته إلا لحرصه الأبوي على هدايتهم^(١)، ذلك ان صوت الإمام عليه السلام هو "الصوت المنبعث منه هو صوت الإنسان، والقائد، والإمام الذي يعاني من ضلال اتباعه، وخذلانهم إليه، وعصيان أوامره، ومخالفة رأيه"^(٢).

ويتحول هذا الصوت الرسالي عند توجه الإمام عليه السلام لمخاطبيه إلى خطاب رسالي يوقظ ضمائرهم، ويثبته سرائرهم، لا ليدعوهم إلى ما لم يدعواهم إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا لينذرهم بما لم ينذرهم به، إذ يقول الإمام عليه السلام (وَاللَّهِ مَا أَسْمَعُكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلَّا وَهَذَا لَئِنْ دَا مُسْمِعُكُمْوه)^(٣)، فدعوة الإمام عليه السلام امتداد لدعوة الرسول ﷺ، لينذرهم بصوته الرسالي الذي صار نتيجة الجهل والغفلة غريباً عليهم، ولينبهمهم إلى ما أوصاهم به الرسول ﷺ من التزام طريق الحق^(٤)، وبهذا الصوت الرسالي توجه الإمام عليه السلام إلى مخاطبيه.

(١) يروي الإمام علي عليه السلام عن رسول الله ﷺ قوله (أنا وأنت أبوا هذه الأمة، فلعن الله من عقتا). صحيفة الأبرار : ١٤٤/١.

(٢) الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي : ٣٧٥.

(٣) نهج البلاغة : خ ٨٩، ص ١٢٢.

(٤) قال رسول الله ﷺ (لولا علي ما بان حق من باطل، ولا مؤمن من كافر، ولا عبد الله لأنه ضرب على رؤوس المشركين حتى أسلموا وعبدوا الله، ولولا ذاك لما كان ثواب، ولا عقاب). صحيفة الأبرار : ١٤٥/١.

وصف المخاطبين

لم يكن تولي الإمام عليه السلام المنصب السياسي والرسمي للخلافة، بعد أفول شعاع النبوة الخالد مباشرة - كما أوصى بذلك النبي محمد ﷺ - بل كان ذلك بعد فاصلة زمنية تقدر بخمس وثلاثين عاماً، ولم تكن الخلافة يوماً بما آلت إليه بغية الإمام عليه السلام - على الرغم من كونها حقه السليبي- ولو كانت كذلك لقبل بها عند أول طلب للناس بتولي الأمر، ولما ترك الأمر حتى أقبل الناس عليه إذ يصفهم (أَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَافِيلِ^(١)) عَلَى أُولَايَها تَقُولُونَ الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمْ وَهَلَا نَارَعَتْكُمْ يَإَيُّهَا فَجَادَتْكُمْ وَهَلَا^(٢))، فقامت الحجة عليه بحضور الحاضر ووجود الناصر^(٣).

لقد تسلم الإمام عليه السلام الخلافة، فكان حرصه على بلاد المسلمين من أن يليها سفهاؤها^(٤)، وسعيه للقضاء على البدع والشبهات التي أشبهت الحق بالباطل بخلطهما بما لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر، حتى أثقلت المجتمع بالفتن وجعلته يئن تحت وطأة ذلك، واندفاعه لنشر العدل وإقامة الحق بين الناس، لذا يقول الإمام (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَلُمَّ يَكُنْ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنْفَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا التَّمَّاسَ شَيْءٌ مِّنْ فُضُولِ الْخَطَامِ وَلَكِنْ لِنُودِ الْمَعَالِمِ مِنْ هِنِكَ وَنُظْهَرِ الْإِصْلَاحِ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَنَقَامَ الْمُعْظَلَّةُ مِنْ دُولِكَ)^(٥).

لقد كان مقتل عثمان أثر ثورة عارمة وفتنة كبرى جمعت آراءً متشتتة وأهواءً مختلفة وأخلاطاً من أحزاب متعددة وأمصار عديدة^(١)، وقد حاول الإمام عليه السلام بتحذيراته المتكررة لعثمان الحيلولة دون قيامها، فقد نهي مسبقاً إلى ما أنبأ به رسول الله ﷺ من قيام الفتنة^(٢)، وما

(١) العوذ : جمع عائذة وهي النتاج من الظباء والإبل، أو كل أنثى. والمطافيل : جمع مُطْفَل، وهي ذات الطفل من الأنس والوحش.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٣٧، ص ١٩٥.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٣، ص ٥٠.

(٤) ينظر : م.ن : كتاب ٦٢، ص ٤٥١-٤٥٢.

(٥) م.ن : خ ١٣١، ص ١٨٩.

(١) فقد حاصره المصريون إلا أنهم لم يقدموا على قتله إلا بعد أن وصلهم إمداد العراق والكوفة والبصرة والشام. ينظر : الطبقات الكبرى : ٧١/٣-٧٢.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٥٦، ص ٢٢٠.

أخبر الناس به عن موت السنّة من بعده بابتداع البدع^(٣)، وحذّره الإمام عليه السلام من مغبّة فتح باب قتل لا سبيل لإغلاقه إلى يوم القيامة قائلاً (وَإِنِّي أَنشُدُكَ اللَّهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُفْتُولَةِ فَإِنَّهُ كَأَن يُقَالَ يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا وَيَبْنِي الْفِتْنَةَ فِيهَا فَلَا يُبْصِرُ وَنَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ يَمْوِجُ وَنَ فِيهَا مَوْجاً وَيَمْرُجُ وَنَ فِيهَا مَرْجاً)^(٤).

ولم يكن دافع اتفاق تلك الآراء على قتل عثمان واحداً، ولم يكن منهم من يعرف الحق ويريد إرجاعه لأهله سوى قلة قليلة، فقد كان الطمع دافعاً لأكثرهم للثورة ضده وقاتله، ولذا يصف ذلك الإمام عليه السلام رأيه في مقتل عثمان بقوله (أَلَّا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرُهُ اسْتَأْثَرَ فَاسَاءَ الْأَثَرِ فَوَجَزَ غُفْمَ فَاسَائِهِمُ الْجَزَعِ وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثَرِ وَالْجَارِعِ)^(٥).

وقد كان الخطاب خير وسيلة تصل الإمام عليه السلام بمخاطبيه، ليكون امتداداً للخطاب النبوي الشريف ونهجه استتماماً لنهجه^(٦)، إلا أن خطاب الإمام عليه السلام لم يكن بأكمله موجّهاً لمخاطبيه ممّن يجمعه معهم زمان واحد ومكان واحد فحسب، بل كان خطابه موجّهاً للامة الإسلامية بأسرها، وفي كل زمان ومكان، فخطاب الإمام عليه السلام علوماً مكنونة ومعادن مخزونة، وهدفه الأساس إثارة مكامن عقولهم وتوجيهها لاستخراج كنوز القرآن، والإفادة من علومه التي خص الله تعالى بها العرب لتكون افضل الأمم، ولا سيما وإن الأمم تحتذي نهج سابقاتها^(٧). ولحرص الإمام عليه السلام على تطبيق العدل الإلهي ونشره، وإقامة الحق ودحض الباطل، ولخفاء الحق وقلة القائلين به وامتزاجه بالباطل، ولأن الفتنة التي نبه الرسول ﷺ عليها ستستمر إلى يوم القيامة^(٨)، فقد خص الإمام عليه السلام الجزء المتوجّه به لمخاطبيه من خطابه الرسالي لإصلاح الأوضاع بإعادة الحق إلى نصابه، وفصله عن الباطل بوصفه

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم (من أحيا سنة من سنني قد أميتت من بعدي، فإن له أجراً مثل أجر من عمل بها من الناس، لا ينقص من أجور الناس شيئاً. ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله، كان عليه مثل إثم من عمل بها من الناس، لا ينقص من آثام الناس شيئاً).

سنن ابن ماجه : ٧٦/١.

(٤) نهج البلاغة : خ ١٦٤، ص ٢٣٥.

(٥) م.ن : خ ٣٠، ص ٧٣.

(٦) م.ن : خ ٨٩، ص ١٢٢.

(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١١١.

(٨) ينظر : م.ن : خ ١٦٤، ص ٢٣٥.

الإمام الوحيد —من سائر الأئمة من ولده عليهم السلام- الذي تهيأت له فرصة اعتلاء منبر الإرسال بصفة سياسية لا دينية فحسب، لذا لم يكن الإفهام هدف الإمام عليه السلام في كل خطابه، وبناء المجتمع على الأساس الذي وضعه رسول الله ﷺ بعد تجليته وإزالة الصدأ. لذا فقد توجه الإمام عليه السلام لمخاطبيه، نوراً هادياً، وسبيلاً منجياً من الفتن الظلماء التي أشبهت الحق بالباطل ومزجتهما معاً بما لا يمكن لأحد فصله إلا ممن خصّ به.

ويتوجّه الإمام عليه السلام في معظم خطابه لإفهام مخاطبيه، فالفهم أولى درجات الهداية، وهو الأساس الذي بني عليه العدل^(٣)، بوصفه سمة خصّ الله سبحانه بها أهل بيت النبي ﷺ، فكان توجه الإمام لإفهام مخاطبيه^(١) حقيقة الوضع القائم في المجتمع، وإيضاح أسبابه، وما أصاب المجتمع من انحراف، وما سادته من مزج بين الحق والباطل، وما ترتب على ذلك من آثار ونتائج تتصل تارة وتفرق أخرى وتتشابك مرّة ثالثة. ويصف الإمام عليه السلام المجتمع الذي وقف مخاطباً إياه عودته إلى الجاهلية السابقة لبعثة الرسول ﷺ، فقد قال الإمام عليه السلام في أول خطاب توجه به لمخاطبيه عند توليه الأمر (أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيِّتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)^(٢)، إذ يصف الإمام عليه السلام حال العرب قبل بعثة الرسول ﷺ بقوله (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَيَرَأُ لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى النَّزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى نَوْرٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيذُونَ)^(٣) بَنِي حَجَارَةٍ خُسْنٍ وَدَايَاتٍ صُمِّ تَشْرِبُونَ الْكِبَرِ وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ^(٤) وَتَسْفِكُونَ هَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْدَلُ لَكُمْ مِنْصُوبَةٌ وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ)^(٥).

فقد أورثتهم الطبيعة القاسية التي كانوا يعيشون فيها خشونة في الطباع وقسوة في القيم والعادات والعلاقات الاجتماعية —عدا قلة منهم ممن تمسك بالقيم والأخلاق الحميدة، وكان مضرباً للأمثال كحاتم في كرمه-

(٣) ينظر : م.ن : قول ٣٠، ص ٤٧٣.

(١) وقد كان إفهام الإمام عليه السلام لمخاطبيه —ولا يملك ذلك سواه وأهل بيته عليهم السلام- سبباً في جعل البلاغة عند الجاحظ مدارها عليه. "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل على أقدار منازلهم". البيان والتبيين : ٩٣/١.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٦، ص ٥٧.

(٣) منيخون : مقيمون.

(٤) الجشب : الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير آدم.

(٥) نهج البلاغة : خ ٢٦، ص ٦٨.

بفعل جذب الأرض وخلوها من الرزق الأمر الذي كان يدفعهم إلى التنقل والترحال وإلى السلب لتكون أرزاقهم في رماحهم، فيفتك قوتهم بضعيفهم^(١)، حتى كان يوصلهم إلى شطف العيش إلى اللجوء إلى مذموم الطعام والشراب في أحيان كثيرة^(٢).

والعرب "لم يكونوا تجاراً ولا صنّاعاً ولا أطباء ولا حساباً، ولا أصحاب فلاحه فيكونون مهنة، ولا أصحاب زرع، لخوفهم من صفار الجزية. ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب، ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم، ولا طلبوا المعاش من عند السنة الموازين ورؤوس المكاييل، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة، والثروة التي تحدث العزّة"^(٣)، فحياة البادية حياة خارجة عن كل نظام تعيش مبدأ القصاص ودفع العدوان بالعدوان^(٤).

وقد كان العرب قبل الإسلام يتخبطون في حيرة وضلالة تسودهم الفتن وتستهويهم العصبية القبلية والضغائن والأحقاد، ويصفهم الإمام عليه السلام عند بعثة محمد ﷺ بقوله عليه السلام (بَعَثَ مُحَمَّدٌ النَّاسَ ضَلَالًا فِي دَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدِ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِرْيَاءُ وَاسْتَخَنَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِّنَ الْجَهْلِ)^(٥)، وليس المراد بالجاهلية مضمون زمني فحسب، بل انها اعتقادات وأحكام وصفات متغلغلة في النفوس منافية للإسلام^(٦)، فكان الإفلاس الروحي والفكري سمتهم السائدة^(٧).

وقد جاء الإسلام لاجتثاث تلك العادات وإبدالها بقيم مناقضة، ولذا يقول الإمام عليه السلام في وصف حالهم قبل البعثة لينبهم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام^(٨)، وما أحدثه الرسول ﷺ فيهم (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَ اللَّهِ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَأَيُّنَ أَكْثَرُ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَتَّبِعِي

(١) ينظر: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، محمد الجابري، دار الشؤون الثقافية، بغداد: ٢١٩-٢٢٠.

(٢) ينظر: شرح البحراني: ٢٣٥/١.

(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٤: ٦٩.

(٤) ينظر: حياة محمد، محمد حسين هيكل، مطبعة مصر، ط٥، دبت: ٥٧.

(٥) نهج البلاغة: خ٩٥، ص١٤٠.

(٦) ينظر: حضارة العرب في عصر الجاهلية: ١٦-٢٠.

(٧) ينظر: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، ط٤، ١٩٩٧: ٨٧.

(٨) ينظر: شرح البحراني: ٢٣٤/١.

نُبُوءَةً وَلَا وَحِيًّا فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُمْ عَصَاهُ يَسُوفُهُمْ إِلَى مَنَاجَاتِهِمْ وَيَدَّ إِوْءَهُمْ
السَّاعَةَ أَنْ تَنْزَلَ بِهِمْ يَدُ سِرِّ الدَّسِيرِ وَيَقِفُ الْكَسِيرُ فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ
غَيْبُهُ إِلَّا هَلَاكًا لَا حَوْ فِيهِ حَتَّى أَرَاهُمْ مَنَاجَاتَهُمْ وَبَوَّاهُمْ مَحَلَّتَهُمْ فَاسْتَدَارَتْ
رَحَاهُمْ وَاسْتَقَامَتْ قَلَّتُهُمْ^(٢).

ويذكرهم الإمام عليه السلام بالمنزلة التي أكرمهم الله تعالى بها
بالإسلام، والنعمة التي أتم الله تعالى بها دينه، وما لذلك من فضل،
وليفهمهم تغير الحال عما كان عليه زمن الرسول ﷺ، والسبب الأساس
لهذا التغير، إذ لم يقصر رسول الله ﷺ عن تبليغه الرسالة وأدائها، ولم
يترك الله عز وجل كتابه ناقصاً ليكونوا له شركاء في الرأي فيجتهدون
بحسب ما يرونه مناسباً، ويصف ذلك الإمام عليه السلام بقوله (أَمْ أُنْزِلَ اللَّهُ
سُجْدًا إِلَيْنَا فَلَقِصَّا فَاسْتَعَيْنَ بِهِمْ عَلَى إِيْمَانِهِ أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لِمُفْلِهِمْ أَنْ
يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى أَمْ أُنْزِلَ اللَّهُ سُجْدًا إِلَيْنَا تَامًا فَقَصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ وَاللَّهُ سُجْدًا إِلَيْنَا قَوْلُ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
شَيْءٍ عَوفِيهِ تَيَّانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَأَنَّهُ لَا
اخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُجْدًا إِلَيْنَا لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ دَعِيٍّ لَوَجَدْنَا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا)^(٣)، فقد تركهم رسول الله ﷺ وقد بلغت بهم الكرامة مبلغاً يعظمهم
فيه من لا فضل لهم عليه، ويهاب سطوتهم سائر الأمم، لولا تنكرهم لنعمة
الله عز وجل عليهم وتسليمهم الأمور في أيدي الظلمة، ويصف ذلك الإمام
عليه السلام بقوله (وَقَدْ بَلَّغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنَزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا
إِمَامُكُمْ وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعْظَمُكُمْ مَنْ لَا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا يَدَ لَكُمْ
عِنْدَهُ وَيَهَابُكُمْ مَنْ لَا يَخْفَى لَكُمْ سَطْوَةٌ وَلَا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهْدَ
اللَّهِ مَنْقُوضَةً فَلَا تَغْضَبُوا وَنَافِئُكُمْ لِقُضِّهِمْ أَبَائُكُمْ تَأْفُؤُونَ وَكَأَنْتُمْ أُمُورُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ تَرَوْنَ عَنْكُمْ تَصُدُّوْنَ وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ فَمَكَّنْتُمُ الظَّلْمَةَ مِنْ مَنَزَلَتِكُمْ وَأَلْقَيْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَرْمَاتَكُمْ وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللَّهِ فِي أَيْدِيهِمْ يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي
الشَّهَوَاتِ)^(٤).

لذا فإن المسؤولية تقع —من بين من تقع عليهم— على عاتق من تخاذل
عن نصرة الحق، ومن سيطر مصرّاً على ترك الحق، ولذلك يخاطبهم
الإمام عليه السلام بقوله (لَوْ لَمْ تَتَخَذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ وَلَمْ تَهْنُوا عَنْ
تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلُكُمْ وَلَمْ يَقَوْ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ لَكِنَّكُمْ

(٢) نهج البلاغة : خ ١٠٤، ص ١٥٠.

(٣) م.ن : خ ١٨، ص ٦١.

(٤) نهج البلاغة : خ ١٠٦، ص ١٥٤.

فقد كان حال المجتمع عند تولي الإمام عليه السلام الخلافة، على العكس مما أوصلهم إليه رسول الله ﷺ، ولذا فقد أنبأهم الإمام عليه السلام بما سيرون من بلبلة وغربة لهذا المجتمع لتصفية ذلك الفساد بقوله (وَأَلَيْتُمْ بِعَدُوِّ الْحَقِّ لَتُبْلَىٰ لَهُ^(٣) بَلْبَلَةٌ وَلَتُغْرِبُنَّ^(٤) غُوبَلَةٌ وَلَتُسَاطِنَنَّ سَوَاطِ الْقَدَرِ حَتَّىٰ يَعُودَ أَصْفَاكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ أَصْفَاكُمْ وَلَيْسَ سَبْقُ سَابِقٍ وَنَكَائُوا قَصْرُوا وَلَيَقْصِرَنَّ سَبَقُكُمْ وَنَكَائُوا سَبْقُكُمْ^(١)).

لقد كان الاختلاف في مسائل عقائدية وأحكام قضائية لم يعودوا فيها إلى الإمام الحق عليه السلام، ولذا فقد عم الاختلاف عموم المجتمع وعاد الجهل إليه بتعدد الرأي واختلاف الأهواء، حتى وصل الأمر إلى انقسامهم على فرقي عتّة، تدلي بآرائها وتتعصب كل فرقة لقائدها، ويؤكد ذلك الإمام إذ يقول (وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْوَاباً وَبَعْدَ الْمَوَالَاةِ

(٢) م.ن: خ ١٨، ص ٦٠-٦١.

أَذْرَاباً مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَ لَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رِسْمَهُ^(٣).

ولذا فقد وقف الإمام عليه السلام ناصحاً (عِبَادَ اللَّهِ لَا تَرْكَنُوا إِلَى جَهَائِكُمْ ، وَ لَا تَتَّقُوا لِأَهْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ كَلَزُلٍ بِشَفَا جُرْفٍ هَرٍ^(١)، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ لِرَأْيٍ يُحْدِثُ بَعْدَ رَأْيٍ ، يَرِ يَدَانُ يُلْصِقُ مَا لَا يُلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبُ مَا لَا يَتَقَارَبُ)^(٢).

وكان توجه تلك الفرق توجهاً عقائدياً يجتهد ويفتد في أمور العقيدة نفسها، ولذا كان الإمام عليه السلام يعجب من أمر هذه الفرق قائلاً (فَيَا عَجَباً وَمَا لِي لَا أُعْجِبُ مِنْ خَطَا هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي يَبْنَاهَا لَا يَفْتَضُونَ أَثَرَ نَبِيٍّ وَلَا يَفْتَدُونَ بِعَمَلٍ وَصِيٍّ وَلَا يُؤْمَدُونَ بِغَيْبٍ وَلَا يَعْفُونَ عَنْ غَيْبٍ يَعْمَدُونَ فِي الشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ الْمَعْرُوفِ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا مَفَرَعُهُمْ فِي الْمُعْضَلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهَمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ فَسِهِ قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بَعْرَى ثِقَاتٍ وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتِ)^(٣).

فقد سارت هذه الفرق في البدع، وحاولت القضاء على السنّة بابتداع أحاديث جديدة لرسول الله ﷺ تعظم صغيراً أو تصغر عظيماً^(٤)، أما جهلاً و توهماً لبعدهم عن النبي ﷺ، أو نسياناً أو تعمد الكذب عليه بعد وفاته، كما تعمدوا في حياته^(٥)، لتضليل ذوي العقول الساذجة والنفوس الضعيفة. وقد وصل الأمر إلى كثرة الشبهات التي أشبهت الحق بالباطل، بتورط أهل الضلال في تحليل ما حرم الله عز وجل، حتى أصبحوا (يَعْمَدُونَ بِالشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ)^(٦)، وهذا ما جمعهم مع أهل العصر السابق للإسلام ووضع مجتمعهم بميزان واحد يقول فيه الإمام عليه السلام (أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ وَعَطَلْتُمْ دُجُودَهُ وَأَمْتَمْتُمْ أَحْكَامَهُ)^(٧)، فقد عادت الشبهات التي أرسل الله تعالى رسوله ﷺ بالحق لإزاحتها.

(٣) م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٩٩.

(١) الهار : المتهم أو المشرف على الانهدام.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٣) م.ن : خ ٨٨، ص ١٢١.

(٤) ينظر : الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي : ٦٠.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٣٢٥-٣٢٧.

(٦) م.ن : خ ١٠٦، ص ١٥٤.

(٧) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩٨-٢٩٩.

ويضعهم الإمام عليه السلام أمام السبب الرئيس لهذا الاختلاف فقد (بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ أَدْرَ تَهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ وَلِيَقْرُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَدُّوهُ وَلِيُثَبِّتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ فَتَجَلَّى لَهُمْ سُدُودُ الْهَفْيِ كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ وَخَوْفِهِمْ مِنْ سَطْوَتِهِ وَكَفَيْ مَدَقَ مَنْ مَدَقَ بِالْمَثَلَاتِ^(٢) وَاحْتَصَدَ مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقَمَاتِ^(٣)، وقد ترك النبي ﷺ القرآن وفيه تبيان كل شيء ويصدق بعضه بعضاً إذ لا اختلاف فيه، وهو الذي يمكن عده "أصدق مرجع"^(٤) للسيرة النبوية الشريفة، إلا (إِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَا لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقُضِي عَوَائِدُهُ وَلَا تُكَفُّ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ)^(٥)، وقد جعل معه الإمام عليه السلام ينطق به، ويفهم ما فيه، ويعلم تأويله وباطنه، ويقودهم مؤتمماً به، فالكتاب (قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقُلَ هُوَ يَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ)^(٦).

ولذا كان تشديد الإمام عليه السلام على القرآن والناطق به بقوله (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلَكِنْ أَخْبِرْكُمْ عَنْهُ أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَتَظْمَ مَا بَيَّنَّكُمْ)^(٧)، فالإمام عليه السلام "هو لسان الكتاب والسنة"^(٨)، ويصف الإمام عليه السلام ذلك بقوله (فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ وَصَامِتٌ نَاطِقٌ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ أَتَمَّ نُورَهُ وَأَكْمَلَ بِهِ يَنْهَوْقَبِضَ بِهِ يَهْصِلِي اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَعَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ)^(٩).

وقد أظهرت الفرقة والاختلاف ما في نفوس المنافقين وفضحت ما كان بداخلهم من حسد وحقد وبغض لحامل راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١٠)، وقاتل أعدائه^(١١)، المتفرّد بالسلمات والفضائل والكرامات،

(٢) المثالات : العقوبات.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٤٧، ص ٢٠٤.

(٤) حياة محمد : ٢٣.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٨، ص ٦١.

(٦) م.ن : خ ٨٧، ص ١١٩.

(٧) م.ن : خ ١٥٨، ص ٢٢٣.

(٨) شرح البحراني : ٦٤٣/١.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٨٣، ص ٢٦٥.

(١٠) ينظر : الإمام علي بن أبي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، مكتبة العرفان، بيروت، د.ت :

١٤٨/١.

إذ ان " كل دم أراقه رسول الله بسيف علي وبسيف غيره، فان العرب بعد وفاته عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب وحده" ^(٥).

ولذا فقد كان الإمام عليه السلام يحذّرهم من التكبر على طاعته بقوله (لَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَ الْعِظَمَةُ بِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ لُحْرِ الْغَضَبِ وَفَخَّ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبَرِ الَّذِي أَغْبَاهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ وَأَلْزَمَهُ أَثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ^(٦).

ويدعوهم لإطفاء نيران تلك العصبية قائلاً (فَاطْفُوا مَا كَمَنْ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصْبِيَّةِ وَأَحَقَّ إِدَا الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَتَوَاتِيهِ وَزَعَتِهِ وَفَنَاتِهِ) ^(٧)، التي وضع أساسها إبليس (فَعَلُّوا اللَّهَ إِمَامَ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصْبِيَّةِ وَنَارَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَوِيَّةِ وَآتَوَعَ لِبَاسِ التَّعَزُّزِ وَخَفَعَ قِنَاعَ التَّنَذُّلِ) ^(٨).

ومن هنا كان الإعلان عن وجود طريقتين هما (حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلِّ أَهْلٍ) ^(٩)، وليس بينهما شيء ^(١٠)، فإما حق واتباع شريعة أو باطل بابتداع بدعة ولذا يقول الإمام عليه السلام (وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ مُتَّبِعُ شِرْعَةٍ وَمُتَّبِعُ بَدْعَةٍ لَا يَمُنُّ مَعَهُمَنْ اللَّهُ سُبْحَانَكَ هُنَّ سُنَّةٌ وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةٌ) ^(١١).

فالحق شريعة نزل بها كتاب الله وسنّها رسوله ﷺ، والباطل آراء اجتهدوا بها وأحكام ابتدعوها ولا يمكن معرفة الحق إلا بعد تشخيص الباطل وتزييف أباطيله وتفنيده، ولذلك يقول الإمام عليه السلام (اعْمُوا أَنْكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكْتُمْ هُوَ لَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي قَضَيْتُمْ هُوَ لَنْ تَمْسُكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي بَدَأْتُمْ سُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ عَشِيرَةُ الْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ هُمْ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَكُمْ حُكْمُهُمْ

^(٤) ينظر : نهج البلاغة : كتاب ٦٤، ص ٤٥٤-٤٥٥.

^(٥) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٣٠/١٣.

^(٦) نهج البلاغة : خ ١٩١، ص ٢٨٩.

^(٧) م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٨٨.

^(٨) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٨٦.

^(٩) م.ن : خ ١٦، ص ٥٨.

^(١٠) ينظر : م.ن : كتاب ٦٥، ص ٤٥٦.

^(١١) م.ن : خ ١٧٦، ص ٢٥٤.

عَنْ عِلْمِهِمْ وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَهُوَ بِهِمْ سَلَامٌ صَدِيقٌ وَصَامِتٌ لَطِيفٌ^(٥).

والحق رفيق مصاحب للإمام عليه السلام^(١)، وراية خلفها الله ورسوله ﷺ بيد وصيه وخليفته (مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ وَمَنْ أَرْمَاهَا لَحِقَ دَلِيلُهَا مَكِيبٌ)^(٢) الْكَلَامُ بَطِيءُ الْقِيَامِ سَرِيعُ إِذَا قَامَ^(٣).
لقد وقف الإمام عليه السلام بازاء أوضاعهم يصف الحق ويعمل به، ويرفع رايته عالياً ليهتدي من يهتدي ويضل من ضلّ، يذكرهم ويحذرهم، يأمرهم وينهاهم لحملهم (عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَلِكٌ مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ)^(٤)، دون إجبار أو إكراه على بيعة أو طاعة أمر، إذ لم يترك الله سبحانه وتعالى الحرية لهم باختيار طريق الحق أو الباطل ونيل الجزاء عليه في الآخرة ليجبرهم الإمام عليه السلام على اختيار أحدهما وهو الذي لا يتحرك إلا بطاعة الله، ولذا تحمل اللوم الذي واجهه منهم لكونه لم يجبرهم على أمر الحكومة وترك لهم الخيار فيها فيصف الأمر بقوله عليه السلام (أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي دَرَيْتُ أَمْرَكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا فَإِنْ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ أَعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ لَكُنْتِ الْوُثْقَى)^(٥)، حتى كانت مخالفتهم لأوامره ندماً تجرّعوا مراراته في حياة الإمام عليه السلام، ونتائج حصودها بعد وفاته وخلو مكانه^(٦).

ولذا فقد كان تولي الإمام عليه السلام زمام هذا الأمر وعمله بالحق والعدل تغيير جذري وثورة شبيهة بثورة النبي محمد ﷺ إن لم تكن امتداداً لها، فالتكذيب الذي واجهه النبي محمد ﷺ عند أول دعوته، واجهه الإمام عليه السلام ولكن بعد إعلان سياسته^(١).

(٥) م.ن : خ ١٤٦، ص ٢٠٦.

(١) قال رسول الله ﷺ (علي مع الحق والحق مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة). المناقب : ١٧٧.

(٢) مكيب : رزين في قوله لا يبادر به من غير روية.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

(٤) م.ن : خ ١١٩، ص ١٧٦.

(٥) م.ن : خ ١٢١، ص ١٧٧.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٤٩، ص ٢٠٨.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٧١، ص ١٠٠.

كذلك فالشك الذي واجهه النبي محمد ﷺ واجهه الإمام عليه السلام بعد تخاذلهم^(٢)، واتهام الرسول ﷺ بالسحر والكهانة^(٣)، واجهه الإمام عليه السلام^(٤)، والإجحاف الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم لاقاه الإمام عليه السلام^(٥).

وعلى الرغم مما وفره تسلمه لزمم الأمور -بتوليته الخلافة بشكل رسمي- من إطلاق صوته لإعلان الحق و الدعوة إليه، فإنه لم يكن قوة جذب إليه، بل العكس لأنه لم يكن يريد جذبهم إليه وطاعتهم له، فالجذب للحق و الطاعة لله تعالى، ولذا فقد كان سير الإمام عليه السلام بالحق وحكمه بالعدل كان سلاحاً ذا حدين فهو نصرة للحق و فرز للباطل عنه وتثبيت للإسلام من جانب، إلا انه كان سبباً في تأليب الناس من أهل الباطل عليه وذهابهم إلى التزام صف معاوية من جانب آخر، ولذلك فإن "أكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنه لم يكن يفضل شريفاً على مشروف، ولا عربياً على أعجمي، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحداً إلى نفسه، وكان معاوية بخلاف ذلك فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية"^(٦).

وقد كان سيره بالحق كشفاً للمنافقين والذين في قلوبهم مرض، ممن كانوا خطراً على الإسلام، وأرادوا الغدر به في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنبه إلى ذلك القرآن في سورة كاملة نزلت فيهم وهي سورة المنافقين، وكشفهم الرسول ﷺ للخاصة من أصحابه دون العامة عند تأمرهم عليه إلا انه لم يقض عليهم لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون العداء^(١)، فكان تشديد الرسول ﷺ على محبة الإمام عليه السلام^(٢)، بوصفها فرزاً للمؤمن من المنافق^(٣).

(٢) ينظر : م.ن : خ ٥٥، ص ٩١.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠١.

(٤) ينظر : أصول الكافي : ٣٨٦/١ - ٣٨٧.

(٥) عند تقاضي الحكمين رفض عمرو بن العاص كتابة أمير المؤمنين مع اسمه، فقال الإمام عليه السلام (الله اكبر، سنة بسنة، ومثل بمثل، والله إنني لكاتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحديبية، إذ قالوا : لست رسول الله، ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فكتبته). الجمل وصفين والنهروان : ٣٧٩.

(٦) شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ٢ / ١٩٧.

(١) يجيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حذيفة بن اليمان الذي أراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنافقين الذين أرادوا تنفير ناقة رسول الله بعد عودته من آخر حجته فساله عن سبب سكوته عنهم مع علمه بهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم (ان الله امرني ان اعرض

ولذا فقد حذر رسول الله ﷺ الإمام عليه السلام من المنافقين (٤)، وأنبأه بغدرهم به، وكان يبكي للضعائن لحال أهل بيته عليهم السلام لما يراه من ضعائن كامنة في صدور المنافقين.

أما بعد وفاة النبي ﷺ فقد زاد عددهم واستفحل خطرهم فكانت عدالة الإمام عليه السلام بقرأً للباطل وتخليصاً للحق منه (٥)، وإظهاراً للمنافقين وكشفاً لنياتهم، فكان ناكثو بيعة الإمام عليه السلام الفئة الأولى، والمارقون عن الدين الخارجين عن القيم به الفئة الثانية، والفئة الباغية من القاسطين بخدعة المصاحف ثم قضية التحكيم الفئة الثالثة (١)، فيقطع الإمام عليه السلام بقتالهم دابر الفتنة ويقضي عليها بقوله (أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكَثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّاكِثُ وَنَفَقْتُ قَاتِلْتُ وَأَمَّا الْقَاسِطُ وَنَفَقْتُ جَاهَتْ وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ) (٢).

لقد كان الإمام عليه السلام ينصحهم ويعظهم دون أن يكل أو يتعب ويترك لهم حرية السير، ولم يكن ليسبق العدو بحرب ولا يباغته بأمر، بل كان يحاول السير بكل طريق هداية حتى وإن أثر ذلك في طاعتهم له، وأدى إلى الشك في شجاعته، رجاء أن يعود عائد أو يهتدي مهتد فيقول (فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْدَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَبِي بِي وَتَعْشُوْا) (٣) إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كُنْتُ تَبُوءُ بِأَتَائِمِهَا) (٤)، ولذا يرد على من شك فيه بالقول (لِلَّهِ أَبْوَهُمْ وَهِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مَرَأْسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي لَقَدْ هَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَعْتُ

عنهم فأكره ان يقول الناس انه دعا أناساً من قومه وأصحابه إلى دينه، فاستجابوا له، فقاتل بهم حتى إذا ظهر على عدوه اقبل عليهم فقتلهم). معادن الحكمة : ٧٩-٧٨/١.

(٢) شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ٨٣/٤.

(٣) قال الإمام عليه السلام (لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما ابغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق أن يحبني ما احبني، وذلك انه قضي فانقضى على لسان النبي الأمي ﷺ، انه قال : يا علي، لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق). نهج البلاغة : قول ٤٥، ص ٤٧٧.

(٤) قال رسول الله ﷺ (إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بلسانه، وأما المشرك فيمنعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان يقولون ما يعرفون ويعملون ما تنكرون). م.ن : كتاب ٢٧، ص ٣٨٥.

(٥) م.ن : خ ١٠٤، ص ١٥٠.

(١) ينظر : الطبقات الكبرى : ٣١/٣-٣٣.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٣) تعشو إلى ضوئي : تستدل عليه ببصر ضعيف.

(٤) نهج البلاغة : خ ٥٥، ص ٩١.

الْعَشْرِينَ وَهَـٰذَا قَدْ ذَرَفْتُ^(٥) عَلَى السِّدِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ^(٦)،
ولذا يرد على من شك في شجاعته بالقول (لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهِيَ أَدْمِنُهُمْ أَشَدُّ لَهَا
مِرَاسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي لَقَدْ هَضَّتْ فِيهَا وَمَا بَلَّغْتُ الْعَشْرِينَ وَهَـٰذَا
قَدْ ذَرَفْتُ عَلَى السِّدِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ^(٧)).

وهو الذي أعجز بسيفه وشجاعته أهل الباطل قبل ان يعجزهم
بفصاحته، "وإنما قال أعداؤه : لا رأي له، لأنه كان متقيد بالشرعية لا يرى
خلافها، ولا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه"^(١)، ويكثر تأليبهم وتأنيبهم
وجمعهم وتحريضهم يحدوه أمل بهدايتهم إلى طريق الحق والصواب^(٢)،
فإن لم يجد (فَاجِرُ النَّوَاءِ الْكَيِّ)^(٣)، ومن هنا نرى المروءة التي ترد في
خطب الإمام عندما يراهم منكبين للحق غير سائرين في طريقه تحت
رايته، لان هدايتهم للحق مراده وضلاتهم عنه سبب حزنه، فقد كانت الفتنة
منزلة في وصف الرسول ﷺ لا رة^(٤).

ومن هنا فقد كانت حروب الإمام عليه السلام حروباً عقائدية^(٥)، إذ
لم تكن بين مسلمين ومشركين -كما كانت زمن النبي صلى الله عليه وآله و
سلم- بل داخل الإسلام نفسه، ولا سيما الخوارج الذين أنبأ عنهم رسول الله
ﷺ مسبقاً^(٦)، ويسميهام الإمام عليهم السلام بـ (أهل القبلة)^(٧)، فهذه الفئات

(٥) ذرّفت : زدت عليها.

(٦) نهج البلاغة : خ ٢٧، ص ٧١.

(٧) م.ن : خ ٢٧، ص ٧١.

(١) شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ٢٠/١.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : كتاب ٦٢، ص ٤٥٢.

(٣) م.ن : خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

(٤) ينظر : شرح البحراني : ٦٣٨-٦٣٩.

(٥) يروى انه جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل فقال له (كبر القوم وكبرنا
وهلل القوم وهللنا وصلى القوم وصلينا فعلام تقاتلهم فقال أمير المؤمنين عليه السلام على ما
انزل الله جل ذكره في كتابه فقال يا أمير المؤمنين ليس كل ما انزل الله في كتابه اعلمه فعلمنيه،
فقال علي عليه السلام ما انزل الله في سورة البقرة فقال يا أمير المؤمنين ليس كل ما انزل الله في
سورة البقرة اعلمه فعلمنيه، فقال علي عليه السلام هذه الآية ((تلك الرسل فضلنا بعضهم على
بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس
ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن
ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد)) فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا
فقال الرجل كفر القوم ورب الكعبة ثم حمل فقاتل حتى قتل). الاحتجاج، الطبرسي، الأعلمي،
بيروت، دت : ١٠٤/١، (سورة البقرة/٢٥٣).

(٦) ينظر : الكامل في التاريخ : ١٦٢/٢.

(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٧٣، ص ٢٤٨. وأهل القبلة : (من يعتقد بالله وصدق ما جاء به محمد
صلى الله عليه وآله وسلم ويصلي معنا إلى قبلة واحدة).

التي قاتلها الإمام عليه السلام يجمعها الإسلام بقول لا اله إلا الله والاعتراف بنبوته محمد ﷺ ظاهراً.

ولم يكن وصف مخاطبي الإمام عليه السلام أو نقد مجتمعهم هدفاً لخطاب الإمام عليه السلام، بل كان توجهه الرئيس لإصلاح المجتمع بأسره، فكان خطابه مرآة ناطقة لذلك المجتمع، ولا سيما ان اغلب خطاب الإمام لمخاطبيه في زمن تالٍ لوقوع الأحداث لا سابق له، ولم تكن اغلب السمات الواردة في خطاب الإمام عليه السلام خاصة بفئة معينة، أو وليدة سنوات حكمه الخمس، بل كانت إرثاً ثقيلاً خلفته العهود السابقة وسمة عامة لا يخرج عنها إلا القليل من خاصّة أنصاره، فكان الابتلاء بطاعة الإمام عليه السلام تمحيصاً وفرزاً للحق من الباطل.

مدخل : الدور الرسالي

اقتضت حكمة الله تعالى أن يصطفي أنبياء يسفرهم بينه وبين خلقه (لَيْسَتْ أُوْهُمْ مِثْلُ أَقْفَاطِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَذْ سَيِّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَّاهُمْ بِالتَّالِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ) ^(١) بما أنزل من شرائع هادية للخلق إلى ما خلقوا لأجله من عبادة الله عز وجل، ولتهديتهم إلى طريق الكمال بوصفه غاية معنوية لا مادية يصلوا إليها بحواسهم الظاهرة، ولذا فقد (بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا لَهُمْ مَخْصِيَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ لِيَلَّا تَحِبَّ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِغَارِ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَسَفَ الْخَطِيقَ كَشْفَةً لَا أَنْ يُجْهَلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونٍ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونٍ ضَمَائِرِهِمْ وَلَكِنْ لِيَلْبُوهُمْ أَتَاهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً وَالْعِقَابُ بَوَاءً) ^(٢) ^(٣).

وجعل سبحانه وتعالى الإسلام شريعة محمد ﷺ شريعة شاملة لتلك الشرائع وخاتمة لها إجابة لدعوة النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهم السلام بجعل الأمة المسلمة من ذريتهما ^(٤).

وقد أتمَّ جلَّ وعلا النبوة الخاتمة بالإمامة، فجعل الأئمة الهداة من نسل النبي ﷺ (ألا إن مثل آل محمد ﷺ كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم) ^(٥)، وخصَّهم في هاشم من بطون قريش فلا تصلح الإمامة بسواهم ^(٦)، ليكونوا بعد النبي ﷺ هداة للحق، فقد جعلهم الله سبحانه (حياة

للأنام، ومصابيح للظلام، ومفاتيح للكلام، ودعائم للإسلام) ^(١).

ولذا كان اختيار الإمام عليه السلام كاصطفاء النبي ﷺ أمراً ليس للناس خيرة فيه ^(٢)، ليكون الدليل إلى الله عز وجل والطريق الموصل

^(١) نهج البلاغة، ضبط وتعليق : صبحي الصالح، أنوار الهدى، إيران، ط ٣، ١٤٢٥ هـ، خ ١، ص ٤٣.

^(٢) بواء : مصدر باء فلان بفلان : أي قتل به.

^(٣) نهج البلاغة : خ ١٤٤، ص ٢٠٠-٢٠١.

^(٤) في قوله تعالى ((ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)) (سورة البقرة/ ١٢٨).

^(٥) نهج البلاغة : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

^(٦) ينظر : م. ن. : خ ١٤٤، ص ٢٠١.

^(٢) أصول الكافي، الكليني، دار الأسوة، إيران، ط ٤، ١٤٢٤ هـ : ٢٠٣/١.

^(٣) وفي قوله تعالى ((وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون)) (سورة القصص/ ٦٨) أي اختيار الأصلح للرسالة والاختيار بمعنى اخذ الخير ولا

لمعرفته وطاعته، وذلك اقتداءً بنهج الإمام عليه السلام وسيراً خلف رايته، فالولاية نعمة أتم الله تعالى بها دينه^(٣) بعد النبي ﷺ الذي جعله الله تعالى (سلفاً تَبِعُوهُ وَقَائِداً ظَلُّوا عَقِبَهُمْ)^(٤).

وقد جعل الله سبحانه أوليائه -كأنبيائه- مستضعفين في الأرض فقد (كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَايُرَ وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُذُوا حُدُودَهُمْ وَعَقَرُوا فِي الثَّرَابِ وَجُوهَهُمْ وَخَضُوا أَجْنَحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ قَدْ اخْتَبَرَ هُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ وَامْتَدَّ لَهُمْ بِالْمَخَوفِ وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ)^(٥)، فخصهم بولايته لما علم منهم من طاعته والتسليم لأمره دون شك أو اعتراض.

ولو شاء سبحانه لجعلهم ذوي قوة ونفوذ في الأرض، لتمدّ نحوهم الأعناق فيكون الإيمان بهم عن رهبة أو عن رغبة، (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَدَّ اللَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِيتِيَاءُ لِرُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ وَالِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُورًا لَا تُخَصَّصُ لَا تَشُوبُهَا مِنْ عَوِيْهَا شَائِبَةٌ وَكَلَّمَكَ أَنْتَ الْبَلَوَى وَالِاخْتِبَارُ أَكْثَمَ كَمَا تَتِمُّونَ وَالْجَزَاءُ أَجَزَلُ)^(٦).

ولذلك فقد خصّ الله سبحانه الأئمة، وهم خاصة أوليائه ووارثوا علم الأنبياء جميعاً بـ (مقام القدوة)^(٧)، ليكونوا المثل الأعلى المؤهل لقيادة الأمة الإسلامية.

وقد جعل الله عز وجل الجزاء الأخروي مترتباً على موقف المسلمين منهم، فقرن الجنة بمعرفتهم (وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُؤَامُ اللَّهِ عَلَى حَقِّهِ وَعُرْفَ أَوْهُ عَلَى عِبَادِهِ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ)^(٨)، إذ لا

يعلم بأحوال المختار سوى الله سبحانه. ينظر : مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٦٠هـ)، تحقيق : لجنة من العلماء والمحققين، الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ : ٤٥٣ / ٧.

(٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩٩.

(٤) م.ن : خ ١٦٠، ص ٢٢٩.

(٥) م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٩٠.

(٦) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩٢.

(٧) ينظر : المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية، فاضل الصفار، مؤسسة الفكر الإسلامي،

بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ : ٢٣٥ / ١.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٥٢، ص ٢١٢.

سبيل إلى معرفة الله عز وجل إلا بمعرفتهم عليهم السلام ، ولا يعبد الله عز وجل حق عبادته إلا من عرفه^(٤).

ولذلك كانت المعرفة هي أول الدين، وبهم معرفة الدين^(٥)، ولذا قال الإمام علي عليه السلام (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَةُ مُوَكَّمَالٍ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْجِيهُ وَكَمَالُ تَوْجِيهِهِ الْإِخْلَاصُ لِمُوكَّمَالِ الْإِخْلَاصِ لِمُفِي الصِّفَاتِ عِندَهُ)^(٦).

ولا تكون معرفة الأئمة عليهم السلام إلا بمعرفة حقهم، والإيمان بما فضلهم الله به من علم على سائر خلقه، والافتداء بهم واتباعهم، لذا لا يعرفهم حق المعرفة^(١) (إِلَّا عَ بُمُؤْمِنٍ أَمْتَدَّ نَ اللَّهُ قَلْبُهُ لِلْإِيمَانِ)^(٢).

وأولهم بعد النبي ﷺ الإمام علي عليه السلام ثم الأئمة من ذريته، فالإمام علي عليه السلام هو اثر النبي ﷺ الذي يقتص، والوصي الذي بعمله يقتدى^(٣)، و(أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّي بِذِيهِ وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ)^(٤)، لتكون وصايته وحق ولايته حقاً متوارثاً في الأئمة من ذريته عليهم السلام على الناس جميعاً إذ ان لهم (خَصَائِصُ حَقِّ الْوَلَايَةِ وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ

(٤) يروى انه سئل الباقر عليه السلام عما كان قاله عليه السلام في معرفة الله عز وجل (إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبد هكذا ضلالاً) فأجاب عليه السلام انها (تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله صلى الله عليه واله وموالاة علي عليه السلام والانتماء به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم، هكذا يعرف الله عز وجل). أصول الكافي : ٢٠٢/١-٢٠٣.

(٥) ينظر : م.ن : ٣٩٧/١-٣٩٨.

(٦) نهج البلاغة : خ ١، ص ٣٩-٤٠ .

(١) يراد بالمعرفة كونه إماماً مفترض الطاعة وقد تكون هذه أولى درجات المعرفة، فالمعرفة درجات، ويختلف القرب من الإمام بحسب هذه الدرجات، ولا يمكن الوصول إلى معرفة الإمام عليه السلام حق المعرفة إلا بمعرفته بالنورانية، إذ يروى عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قوله (كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله عز وجل مطبقاً، يسبح الله ذلك النور ويقده قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم ركب ذلك النور في صلبه فلم نزل في شيء واحد، حتى افترقنا في صلب عبد المطلب فجاء أنا وجزء علي). المناقب : الخوارزمي (٥٦٨ هـ)، مؤسسة النشر، قم، ١٤٢١ هـ : ١٤٥. ولذا قال الإمام عليه السلام (معرفة الله بالنورانية معرفة الله ومعرفة الله معرفتي بالنورانية)، فلم تكن إمامته أمراً عادياً، فهو يقول (ظاهري إمامة ووصية وباطني غيب لا يدرك). صحيفة الأبرار، ميرزا محمد تقی، تحقيق : مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، الأعلمي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ : ١٨٦/١، ٧٦ على التوالي.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٨٩، ص ٢٨٠.

(٣) ولذا يصف الإمام عليه السلام خطأ الفرق في قوله (لَا يَقْتَضُونَ أَثَرَ نَبِيِّ وَلَا يَقُونُ بِعَمَلِ

وَصِيِّ). م.ن : ٨٨، ص ١٢١.

(٤) م.ن : خ ١٦٠، ص ٢٢٧-٢٢٨.

وَالْوَرَاثَةُ^(٥)، فيكون الاقتداء بهم وطاعتهم حق الله تعالى الواجب على الناس تأديته للوصول إلى رضاه.

إلا أن الاقتداء بالإمام عليه السلام واتباعه في كل أمر مهما كانت مشقته على النفس لا يمكن الوصول إليه إلا بترك الكبر لأن طاعة الله تعالى التي يدعو لها الإمام عليه السلام لا تكون إلا بمخالفة النفس، فإن رسول الله ﷺ كان يقول (إِنَّ الْجَنَّةَ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُقَّتْ بِالشَّهَوَاتِ)^(١).

وعلى الرغم من كون الإمامة منصباً إلهياً لا دخل للناس في اختياره، إلا أن رحمة الله سبحانه بعباده اقتضت ربط الأسباب بمسبباتها، فلا يأتي بما لا تدركه عقول خلقه، فيكون لهم حجة الجهل به عذراً، ولذا فقد جعل الله سبحانه تكريم الإمام عليه السلام بالفضائل وتخصيصه بالكرامات، تالياً لما يصدر عنه من سمات، ولذا فقد كان تتويجه لمنصب الإمامة آخر ما بلغه النبي ﷺ من رسالة ربه^(٢)، وإن كان الأصل فيها^(٣)، وتالياً لما ثبت للناس جميعاً من سمات وفضائل تميز بها فتكون سبباً لإعطائه البيعة من الجميع بوصفه القائد المتفرد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٤)، وإن كان هناك من يحقد عليه ويحسده على ذلك ويحيك له الدسائس والمؤامرات^(٥).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الإمام عليه السلام خليفة في أرضه، وشاهداً على خلقه، وحجة عليهم إذ (لَمْ يُخَلِّ اللَّهُ سُجْدًا لِلْهَاقَّةِ مِنْ بَنِي مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُذَرَّلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَزِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ)^(٦)، وفضائله تثبت

(٥) م. ن : ٢، ص ٤٧.

(١) ويقول الإمام عليه السلام فيها (وَاعْمُوا أَدْمُماً مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرِّ مَوْماً مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ). نهج البلاغة : خ ١٧٦، ص ٢٥١.

(٢) ولذا قال تعالى ((وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)) (سورة المائدة / ٦٧).

(٣) ينظر : بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري، دار أمير، طهران، ط ١، ١٩٩٧ : ٢٦١/٢.

(٤) ينظر : فضائل الصحابة، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ب : ١٥.

(٥) فقد اجتمع نفر من قريش والمنافقين من الأنصار وجمع ممن كانت الردة في قلبه وتعاقدوا على تنفير ناقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن هُئ إليهم خبر عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تنصيب الإمام عليه السلام ولياً بالمدينة عند قدومه من الحج، ولذلك نزل أمره تعالى ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين)) (سورة المائدة/ ٦٧). ينظر : معادن الحكمة في

مكاتيب الأئمة (عليهم السلام)، محمد الكاشاني، مكتبة الصدوق، إيران، ١٣٨٨هـ : ٧٧/١.

(٦) نهج البلاغة : خ ١، ص ٤٣.

حقّه وتوجب الاقتداء به قبل تتويجه ولياً لأُمور المسلمين وتكون شاهد صدق على منزلته عند الله تعالى، وناطقاً حياً على وجوب الطاعة لمن سبقهم إلى طاعة الله تعالى، وتجسدت فيه أفعالاً قبل أن ينطق بها داعياً^(١). وقد مرّ الدور الرسالي للإمام عليه السلام بثلاث مراحل تاريخية:

الأولى : بدأت بطفولته واحتضان النبي ﷺ له وانتهت بوفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجره سنة ١١ هـ^(٢).

الثانية : استمرت خمساً وعشرين سنة بدأت بوفاة النبي ﷺ وانتهت بانتهاء خلافة عثمان سنة ٣٥ هـ^(٣).

الثالثة : استمرت خمسة أعوام بدأت بتولي الإمام عليه السلام الخلافة وانتهت باستشهاده على يد أشقى الأشقياء سنة ٤٠ هـ^(٤).

(١) ينظر : أصول الكافي : ١ / ١٩٨-٢١٤.

(٢) ينظر : الطبقات الكبرى، ابن سعد الزهري (٢٣٠ هـ)، دار صادر، دبت : ٢ / ٢٠٦.

(٣) ينظر : م.ن : ٣ / ٣١.

(٤) ينظر : م.ن : ٣ / ٣٧.

مدخل : الإمامة نظام محكم

لقد خص الله سبحانه وتعالى الإمامة بجعلها نظاماً محكماً يجمع الخلق ويزيل الاختلاف بينهم ويوحد كلمتهم بتثبيت أركان التوحيد ليبقى راية الإسلام عالية.

فقد استطاع الرسول ﷺ أن يشيد بناء الإسلام ويجعل صرحه عالياً يهابه كل ذي صولة ويخضع له كل ذي سلطان، فالإسلام (لَا انْقِصَامَ لِعُرْوَتِهِ وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ وَلَا انْهْدَامَ لِأَسَاسِهِ وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ وَلَا انْقِلَاعَ لِسَجَرَتِهِ وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ وَلَا عَفَاءَ^(١) لِشَرَائِعِهِ وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ وَلَا ضَنْكَ لِبَطْرِقِهِ وَلَا وُعُوثَةَ^(٢) لِسُهُولَتِهِ وَلَا سَوَادَ لَوَضَحِهِ وَلَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ وَلَا عَصَلَ^(٣) فِي عُرْوَتِهِ وَلَا وَعْثَ لِفَجِّهِ وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخٍ فِي الْحَقِّ أَسَدٌ لَهَا^(٤) وَثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا وَيَنَابِيعُ غُورَتِ عُيُونُهَا وَمَصَابِيحُ سَبَّتْ نِيرَانُهَا وَمَنَارٌ افْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا وَأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فَجَاجُهَا وَمَلْهَلٌ رَوِيَ بِهَا وَرَّ أَنَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ وَتَوَدَّ دَعَائِمِهِ وَسَدَّلَمَ طَاعَتِهِ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ رَفِيعُ الْبُنْيَانِ^(٥)).

وكان الإمام عليه السلام الأساس الذي شُيِّدَ عليه الإسلام وبسيفه قام وبنصرته لرسول الله ﷺ انتشر وعم حتى علت رايته فلولاً سيف علي عليه السلام وثباته في حروب الجهاد (مَا قَامَ لِلدِّينِ عُمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودُهُمْ)^(٦).

وقد كان تعيين الإمام علي عليه السلام خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم تثبيتاً لنظام يجمع المسلمين في جماعة واحدة^(١)، ولأن

(١) عفاء : اضمحلال ودروس.

(٢) وُعُوثَة : رخاوة في السهل بها تغوص الأقدام عند السير فيعسر المشي فيها.

(٣) عَصَلَ : اعوجاج يصعب تقويمه.

(٤) أسناخها : أصولها.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٩٨، ص ٣١٤.

(٦) م.ن : خ ٥٦، ص ٩٢.

(١) لا يراد بالجماعة هنا الكثرة، فما اتباع الكثرة إلا مورد للمهالك، ولذا قال تعالى ((وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن إن هم إلا يخرصون)) (سورة الأنعام/ ١١٦)، ولذلك أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باتباعها قائلاً (إن بني إسرائيل افترقت إلى إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنين وسبعون فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)، وإنما المراد بالجماعة جماعة أهل البيت عليهم السلام، وهم أهل العلم. ينظر : دليل المتحيرين في بيان الناجين، علي آل محسن، دار الصفوة، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ : ١٨١.

الرسالة هي الخاتمة والاختلاف سنة قائمة بين الناس إلى نهاية العالم لاختلاف المنشأ والطينة^(٢)، ولذا فقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلزوم الجماعة قائلاً (اعلموا أن القلوب لا تغل على ثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، وعلى لزوم جماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من وراءهم)^(٣)، مثلما أوصى بالتمسك بأهل بيته إذ قال النبي ﷺ (إنما مثلي ومثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق)^(٤).

فالإمام عليه السلام يجمع المسلمين كسلك ناظم يجمع حبات الخرز وينظمها في عقد واحد، ولذا يصف الإمام عليه السلام مقام الإمام بالقول (مَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ مَنِ الْخَوْزُ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَوْزُ وَذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَائِيرِهِ أَبَدًا)^(٥). ولأهمية ذلك للأمة الإسلامية لم يترك النبي ﷺ أمته في اختلاف ولم يفارقها إلا بعد أخذ البيعة بحضور الجميع بعد توثقهم أن لا أحد ينفع لقيادة الأمة إلا من كان سبلاً للمكارم فيها، فقد جعل الله تعالى الإمامة (نظاماً) لألفتهم وعزاً لربهم)^(٦)، ولذا فقد كان سلب حق الإمام تنكراً لحق الأمة بأسرها بنقل البناء عن أساسه الذي أقيم عليه، وهو الإمام ومن بعده أهل بيت العصمة عليهم السلام، وإخلاقاً بالنظام الجامع لهم.

ولذا يصف الإمام عليه السلام ما جرى للقوم بعد وفاة رسول الله ﷺ (حَتَّى إِذَا قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ وَغَلَبَتْهُمْ السُّبُلُ وَاتَّكَلَوْا عَلَى الْوَلَائِجِ)^(٧) وَوَصَّدُوا غَوَّ الرَّحِمِ وَهَجَرُوا السَّبَبَ الْأَخْيَ أَمَرُوا بِمَوَدَّتِهِ وَقَلَّوْا الدِّنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ)^(٨)، فالرحم أهل بيت رسول الله ﷺ الذين خلفهم مع كتاب الله

(٢) ينظر: نهج البلاغة: خ ٢٣٤، ص ٣٥٤.

(٣) سنن الدارمي: ٧٤/١.

(٤) تاريخ بغداد، أحمد ابن الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، دت: ١٩/١٢.

(٥) نهج البلاغة: خ ١٤٦، ص ٢٠٣.

(٦) نهج البلاغة: خ ٢١٦، ص ٣٣٣.

(٧) الولائج: جمع وليجة، وهي البطانة وخاصة الرجل من أهله وعشيرته ويراد بها دخائل المكر والخديعة.

(٨) نهج البلاغة: خ ١٥٠، ص ٢٠٩.

تعالى قائلاً (خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض) ^(٤)، ومن هنا تأتي أهمية بناء الخطاب عند الإمام علي عليه السلام.

ولذا فإن بناء خطاب الإمام عليه السلام بناء خطابه الرسالي بأقسامه وموضوعاته دليل على ذلك النظام المحكم الذي جعله الله حبلاً متيناً لتوحيد الجماعة بالتمسك بطاعة الإمام عليه السلام ^(٥)، فالمتعلق بالحبل ينجو مما يحذره ويخافه ^(٦)، وكذلك المتمسك بالإمام وأهل بيته عليهم السلام، ولذلك جعل الله الإمام وأهل بيته عليهم السلام، وأساساً تبني عليه أركان الطاعة، فهم (الحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى) ^(٧)، ومن هنا يتوجه الإمام عليه السلام بدعوتهم لالتزام الجماعة بالقول (خَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ النَّمَطِ الْأَوْسَطُ فَأَلْزَمُوهُ وَالزَّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَإِلَيْكُمْ وَالْفُرْقَةُ) ^(٨).

^(٤) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٣، ٦٠/٩.

^(٥) إذ قال تعالى ((واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)) (سورة آل عمران/١٠٣).

^(٦) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١٢٤.

^(٧) أصول الكافي : ٢٢١/١.

^(٨) نهج البلاغة : خ ١٢٧، ص ١٨٤.

أجزاء الخطاب

عند دراسة خطاب الإمام عليه السلام^(١) -ولا سيما ما ورد منه خطباً كاملة- نجد انه ينقسم على ثلاثة أقسام وهي (الابتداء، الغرض، الخاتمة)، مع الحاجة، التي نجدها مقتطعة في كلام أو مقترنة بالغرض الموجب للخطاب.

ولم يكن الإمام عليه السلام يقصد في خطابه هذا التجزئة ولا يريد به التقسيم، ولم يكن مراده أن يسنّ للخطباء من بعده نهجاً يسرون عليه، فقد كان خطاب الإمام عليه السلام خطاباً ارتجالياً إلا أنه كان فيضاً من بحر علم الإمام عليه السلام ونظامه المتفرد.

إلا أننا لا نعجب إذا ما كان التقسيم للخطاب مراد الإمام عليه السلام، ففي خطابه تقسيمات عتّة، فقد خلق الله سبحانه وتعالى الخلق جميعاً، وقسم بينهم (مَعَايِ تَهُمْ وَوَضَعَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَوَاضِعَهُمْ)^(٢)، كما انه سبحانه وتعالى (قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ وَأَحْصَى أَنْارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَخَلَقَ أَعْيُنَهُمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِّنَ الصَّمِيرِ وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِّنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَتَّ نَاهِي بِهِمُ الْغَلِيَاتِ)^(٣)، وجعل كل خلق فيه مكوناً من أجزاء، فالطاووس مثلاً (أَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامُ أَنْ تُدْرِكَهُوَ الْأَلْسِنَةُ أَنْ تُصِفَهُ)^(٤)، وفي كل ذلك فجميع مخلوقاته يسيرها في نظام واحد من (لَا يُفْرِهُ الصَّيَاءُ وَالظَّلَامُ وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِّنَ الْأَجْزَاءِ وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَغْصَاءِ)^(٥)، ينظمها ويجمعها كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

ولذا يمكننا اتخاذ تلك التقسيمات في خطاب الإمام عليه السلام دليلاً على أجزاء خطابه التي يسودها نظام واحد، ويجمعها الطابع الديني الذي يودّد أجزاء الخطاب، ويضعها في نسق واحد يجعل خطابه قسماً واحداً لا

(١) حاولنا أن نستثني هنا ما كان تحت عنوان (كلام) عند دراسة ابتداء الخطاب وخاتمته.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

(٣) م.ن : خ ٩٠، ص ١٢٣.

(٤) م.ن : خ ١٦٥، ص ٢٣٨.

(٥) م.ن : خ ١٨٦، ص ٢٧٤.

يخلّ به اقتطاع^(١)، لان الإمام عليه السلام هو القطب المنظم لأجزاء الخطاب^(٢).

(١) ان اقتطاعات الشريف الرضي من خطب الإمام، وجعل بعضها معنواً بكلام لم تخل بخطاب الإمام عليه السلام، إلا أننا حاولنا ان نستعين في دراسة أجزاء الخطاب بما ورد من خطابه معنواً بـ (خطبة).

(٢) اتخذ الخطباء من بعد الإمام عليه السلام تقسيمات خطابه نهجاً، إذ لم يصل من خطب الجاهلية إلا شذرات متفرقة -لو سلّمنا بوجود خطب فيها-، ولم يجمع الخطابة في فقرات أو يوجد بناءها إلا النبي صلى الله عليه واله وسلم الذي كان خطابه مفتتحاً للخطابة بوجهها الصحيح، فكان خطابه صلى الله عليه واله وسلم يرد بلغة تشريعية، وفي أسلوبه تبسيط يتلاءم مع عقول مخاطبيه التي يحاول ان يرتقي بها إلى الإيمان بالله تعالى. ينظر : فن الخطابة وتطوره عند العرب : ٨٧.

أما من جاء بعد رسول الله ﷺ فقد كان خطابه تكرر ا لبعض ما جاء في خطب النبي صلى الله عليه واله وسلم ومحاولة للسير على منوال خطابه. ولذا كان خطاب الإمام عليه السلام مفتتحاً لنهج أدبي سار عليه الخطباء من بعده وسنن اتباعها الأدباء لكونه الأكثر تأثيراً والأقرب عهداً من انتشار التدوين، وإن لم تشير الكتب إلى ذلك لأغراض معروفة. بل ان الأدباء أنفسهم لم يكونوا يبدون ذلك إلا ما ندر خوفاً من السلطة، فغن ذكر كان مكيفاً بحسب أهوائهم. كما قال عبد الحميد عن كونه حفظ سبعين خطبة للإمام عليه السلام ولكن بلفظ -يتخرج من ذكره- ملائم لما كانت تطلقه السلطة الأموية. ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ١٩/١.

ابتداء الخطاب

ويمثل مقدمة الخطاب وما يفتح به الإمام عليه السلام خطابه الرسالي، فالمقدمة "بمثابة الأساس من البناء والرأس من الأعضاء"^(١). وقد خصَّ الإمام عليه السلام ابتداء خطابه بذكر الله والاستعانة به، فقد شدَّ الإمام عليه السلام على الابتداء بالاستعانة بالله^(٢)، الذي (أَذْثَلَ الْخَطَّ إِذْ شَاءَ وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً)^(٣)، وهو العالم بالأشياء (قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطاً بِدُخُولِهَا وَانْتِهَائِهَا عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا)^(٤) وَأَخَذَ لَهَا^(٥) (٦).

لذا كان الإمام عليه السلام يفتح خطابه بحمد الله والثناء عليه، الذي (جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِإِكْرَمِهِ وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ وَدَلِيلًا عَلَى آيَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ)^(٧)، وسيراً على نهج النبي ﷺ^(٨)، الذي كان يفتح خطابه "بالحمدلة والصلاة والاستغفار والشكر"^(٩).

وإذا ما استثنينا ما كان من خطاب الإمام عليه السلام كلاماً^(١٠)، نجد أن هذا المفتوح قد ساد في أغلب خطب الإمام عليه السلام إفراداً لله تعالى بالتوحيد الخالص، وإظهاراً للعبودية المطلقة لله عز وجل، والإيمان بانه عز وجل الأول قبل خلق الخلق، والعظيم الذي لا يمكن إدراك كنهه، والمتفرد بصفات يعجز عن إدراكها الخلق جميعاً.

لقد بلغ الإمام عليه السلام بإيمانه بالله تعالى أعلى درجات اليقين واستشعاره بنعمة الله عز وجل وتفرد به بالعطاء لخلقه حتى صار يعدل بمدح الخالق والثناء عليه عن مدح المربوبين^(١).

(١) علم الخطابة : ٨٦/٢.

(٢) يبدأ الإمام بتعليم ابنه الحسن عليهما السلام بتعليمه كتاب الله عز وجل، ويحثه على ابتداء المسألة بالاستعانة بالله والرغبة إليه في توفيقه. ينظر : نهج البلاغة : كتاب ٣١، ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٣) م.ن : خ ١، ص ٤٠.

(٤) قرائنها : جمع قرون وهي النفس.

(٥) أحنائها : جمع حنو وهو الجانب.

(٦) نهج البلاغة : خ ١، ص ٤٠.

(٧) م.ن : خ ١٥٧، ص ٢٢١.

(٨) ينظر : البيان والتبيين : ٣٠٢/١.

(٩) فن الخطابة وتطوره عند العرب : ٨٨.

(١٠) لم نذكر في ابتداء الخطاب ما ذكره الشريف الرضي معنوناً بكلام، حرصاً على انتقاء ما كان موجهاً إلى جمهور مخاطبيه، ولو عدنا إلى هذا الكلام لوجدنا فيه افتتاحاً بآيات قرآنية، ثم يبدأ بتوضيحها. ينظر : نهج البلاغة : خ (٢٢١-٢٢٢-٢٢٣)، ص ٣٣٨ وما بعدها.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٣٦.

وقد كان افتتاح الإمام عليه السلام خطابه بحمد الله والثناء عليه إبعاداً للغلو الذي كان يقابله به بعض مخا طبيه بازاء علمه الغزير ومنطقه المعجز من جانب، وإبعاداً للتجاهل الذي كان يقابله به بعضهم فيساويه بمناوئيه من جانب آخر، تشديداً على كونه لا ينطق إلا بطاعة الله تعالى، ولحثهم على طاعة الله تعالى المتجسدة بطاعته.

ولذلك نجد الإمام عليه السلام يثني في خطابه بالصلاة على النبي ﷺ بعد توحيد الله جلّ ذكره والثناء عليه، وقبل كلام الإمام عليه السلام تشديداً على المرتبة من جانب، وإبعاداً للغلو الذي كان يقابل به من بعضهم بازاء علمه الغزير بما يرفعه إلى رتبة النبوة^(٢)، فالإمامة تالية للنبوة، وامتداداً لها، ونهلاً منها^(٣)، وفي هذا المفتتح تشديد على المهمة الرسالية وإزالة لجهل بعضهم لها وتذكير لمتجاهليها.

وقد يكون لهذا الافتتاح عند الإمام بعد آخر يتصل بمن يرسل إليهم الخطاب، فالإمام يحاول تبصرة القلوب بذكر الله سبحانه لتطمئن، وتهدئة ثورة النفوس وكبح جماحها بتذكيرها بالخالق والعبودية له، لتلين تلك القلوب لتقبل وعظ الإمام عليه السلام، ولإنبات بذور الإيمان التي زرعها النبي ﷺ بسقيها بماء الولاية، بعد أن اختلفت مياه السقيا إذ لا يمكن غرس تلك البذور في ارض قاسية، لان القلب هو مكان الغرس ومنبت الإيمان ومستقره^(١).

ومن هنا نجد تنويع الإمام عليه السلام في مفتتح خطابه تثبيتاً لعقيدتهم التي زعزعتها في قلوبهم الشكوك التي أثارها أهل الديانات الأخرى، بتساؤلات قوبلت بجهل العرب وابتعادهم عن مصدر العلم الحقيقي وغدّتها سياسات معيّنة، وتقنيداً للعقائد الباطلة التي إشاعتها مزاعمهم.

وقد كان هذا الافتتاح هو الأنسب للطابع الديني الذي يسود خطابات الإمام عليه السلام وهو دليل يشهد للإمام بعلمه المتفرد الذي لا يدانيه فيه أحد وحجته التي لا ترد، وعلمه الإلهي الدال على معرفته بالخالق وطاعته المطلقة له^(٢).

(٢) ينظر : أصول الكافي : ١١٢/١.

(٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٢٨، ص ١٨٦.

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام (وَ اعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ بَاتًا وَ كُلُّ بَاتٍ لَا غَنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ وَالْمِيَاهُ مُخْلَفَةٌ فَمَا طَابَ سَفِيُّهُ طَابَ عَوْسُهُ وَ حَلَّتْ ثَمَرُهُ مَوْمًا حُبَّتْ سَفِيُّهُ حُبَّتْ عَوْسُهُ وَ أَمَرَتْ ثَمَرُهُ). نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٦.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٠٩، ص ١٥٨.

وعلى الرغم من كون اغلب خطابات الإمام عليه السلام مفتوحة بحمد الله، إلا انه كان ينوع ذلك الحمد، بما يتصل بالموضوع نفسه، لا لإبعاد الملل عن مخاطبيه، بل لتهيئة قلوبهم لسماع ما يريد قوله، وتكييف ذلك الابتداء بحسب الموضوع الذي يريد طرقة من جانب- وإن كان الهدف والطابع موحداً لها-، وبحسب صفاء نفوس مخاطبيه من جانب آخر. يستوحي الإمام عليه السلام ابتداءات خطابه من حال مخاطبيه والظروف المحيطة بهم، ولذلك اثر كبير في هداية نفوسهم، فكلما كانت مقدمة الخطاب مستوحاة من حال الحفل وظروف الجمع أحدثت أثراً عميقاً في النفس^(٣).

ويمتد مثل هذا التنويع في الخطاب وتكييفه ليتناسب مع طول مقدمات الخطاب وقصرها، بحسب طول خطابه عليه السلام وقصره، على أن ذلك لا يلتزم عند الإمام عليه السلام لان الهدف الذي يدفعه للقول والذي يستمد من أحوال مخاطبيه وما يجده فيهم هو الذي يتحكم أيضاً في طول الابتداء وقصره.

فقد يطيل في خطبة طويلة كخطبة الأشباح^(١)، حين يرى السائل جاهلاً بربه ويطلب منه وصفه، فيطيل في حمد الله وينوع في وصف قدرته قبل توجيه الخطاب لمخاطبه للتعلم في الجواب ورد وتقيد العقائد الباطلة التي أثرت فيهم وتثبيت عقيدة التوحيد، في حين انه يجعل ابتداء خطاب آخر قصيراً في خطاب ينزه فيه الخالق عز وجل عن سائر خلقه، ولينبه مخاطبيه في صدر الخطاب بإجمال ما سيقول فيه^(٢)، ثم الدخول في غرض الخطاب الأساس وهو معالجة سمة الكبر التي كانت معصيتهم للإمام عليه السلام وابتعادهم عن طاعته دليلاً عليها^(٣).

ويطيل الإمام عليه السلام ويقصر في خطباته بحسب حال مخاطبيه وما يرى من قلوبهم، فان رأى منهم إقبالاً أطال في الابتداء محاولاً تجلية تلك القلوب لسماع ما في الخطاب، فإن رأى منهم إقبالاً اكتفى بكلمات يفتح بها خطابه، فلا مجال لإطالة الحمد مع ما يجد في

(٣) ينظر: فن الخطابة: ١٢٨.

(١) ينظر: نهج البلاغة: خ ٩١، ص ١٢٤-١٣٦.

(٢) ينظر: شرح البحراني: ٢٣٢/٢.

(٣) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٣٠٢.

قلوبهم من إعراض^(٤) — وإن كان إعراضهم عن سماع خطاب الإمام عليه السلام إعراضاً عن سماع بيان الله ومواعظه ونصحه.

ويطيل الإمام عليه السلام في مقدمته ويقصرها بحسب الموضوع الذي يريد أن يتحدث به فيقصر في الخطب الجلل^(٥)، وكذلك عند المواقف المخرجة في سوح الجهاد أو عند التوجه لها^(٦)، حيث يكون الإسراع همّه فيها.

وقد يبدأ الإمام عليه السلام خطابه بافتتاح بسيط دال على ما سيحويه الخطاب من معصية مخاطبيه^(١)، أو اختصار لذلك الافتتاح عند ذكر الفتن التي لم يجر إليها سوى معصيتهم للخالق^(٢).

وغالباً ما يكون مفتتح خطاب الإمام عليه السلام إيجازاً للموضوع الذي يريد أن يطرقه ليدل صدر الخطبة عليه^(٣)، فيكون بمثابة "الإشارة والإيذان بالغرض المقصود"^(٤) من جانب، ومرتبطاً به من جانب آخر^(٥).

وقد نجد عند الإمام عليه السلام خطباً مقتطعة من الافتتاح^(٦)، إذ يبتدئ فيها خطابه مباشرة^(٧)، إلا أن ما لم يذكر له افتتاح، يمكن معرفته من المدخل الذي يستهل به خطابه، إما بقاعدة توجز الموضوع الذي يريد الخوض فيه، أو المقصد الذي يروم الوصول إليه^(٨)، فيبدأ بما يبني عليه غرضه^(٩).

(٤) يقول الإمام عليه السلام (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وادباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي). م.ن : قول ١٩٣، ص ٥٠٣.

(٥) ينظر : م.ن : خ ٣٥، ص ٧٩.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٤٨، ص ٨٧.

(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٨٠، ص ٢٥٨.

(٨) ينظر : م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(٩) ومن هنا جرى تأكيد بعض الكتّاب على حسن الابتداء وعه دليلاً على البيان. ينظر : كتاب الصناعتين : ٤٥١.

(٤) المنطق، محمد رضا المظفر، إسماعيليان، قم، ط ١١، ١٣٨٣ هـ : ٣٦٥.

(٥) ينظر : البيان والتبيين : ١١٦/١.

(٦) نجد بعض خطابات الإمام عليه السلام يوردها الشريف الرضي مقتطعة جرياً على عادته في قوله "إني أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالي والنسق". ينظر : مقدمة نهج البلاغة، ٣٥.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٣٤، ص ١٧٨.

(٨) ينظر : م.ن : خ ٢٣، ص ٦٤.

(٩) ينظر : شرح البحراني : ٢٢٢/١.

وغالباً ما يكون استهلال الخطاب بأداة دالة على ما بعده مثل (ألا) الاستفتاحية^(١)، أو (أما بعد)^(٢) جرياً على ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستهل به خطابه^(٣).

وقد يستهل الإمام عليه السلام خطابه بخطاب تنبيهي (أها الناس)^(٤)، أو يجمع بينهما كما في قوله (أما بعد يا أهل العراق)^(٥)، أو قوله (عباد الله...)^(٦)، وأما عند اقتطاع الخطاب من الاستهلال فسبق الكلام بالفاء دال على تقديم الكلام بما يسبقه^(٧)، أو قد نجد فيه ضمير غائب عائد على كلام مسبق ممهد له^(٨).

وقد يفتتح الإمام عليه السلام خطابه بحمد الله والثناء عليه، دون ذكر النبي ﷺ والصلاة عليه إن كان خطابه في التوحيد وبيان خلق الله سبحانه للعالم واختيار الأنبياء عليهم السلام غرض الخطاب وفيه توسع في ذكر النبي ﷺ والحديث عن بعثته ونبوته الخاتمة للنبوات.

وقد يبدأ الإمام عليه السلام خطابه مباشرة تنزيهاً لله عز وجل عما يحويه خطابه من ذكر أفعال العاصين لله تعالى الجاحدين بإمامته وانقطاع صلتهم بالله عز وجل، وإشارة إلى تبرئته سبحانه من أعمالهم التي ستجد العقاب الأليم عنده سبحانه^(٩)، وقد يقطع الإمام عليه السلام عادته في ابتداء الخطاب لسأمة من مخاطبيه وضجره من أفعالهم وغضبه الذي لا يثار لغير خالقه، يقطع عادته ويبدأ خطابه بشكل مباشر دالاً على فداحة الأمر، تنزيهاً للخالق منها وتشديداً على فراغ صبره معهم^(١)، أو عندما يرى حيرتهم وضلالهم مع ما يأمرهم به وينهاهم عنه^(٢).

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٥٢، ص ٨٩.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٢٨، ص ٧١.

(٣) ينظر : سنن أبي داود، سليمان السجستاني (٢٧٥هـ)، تحقيق : سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ : ٤٧١/٢.

(٤) ينظر : نهج البلاغة : خ ٤١، ص ٨٣.

(٥) ينظر : م.ن : خ ٧١، ص ١٠٠.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٨٧، ص ١١٨.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٩٤، ص ١٣٨.

(٨) ينظر : م.ن : خ ١١٦، ص ١٧٣.

(٩) ينظر : م.ن : خ ٣، ص ٤٨.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢٥، ص ٦٦.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٢١، ص ١٧٧.

على ان انتظام خطاب الإمام عليه السلام في بناء محكم وابتدائه بذكر الله تعالى كان هدفه الأساس منه -وبالأخص الابتداء- هداية الناس لتقوى الله، ولذلك كانت الدعوة سابقة للخطاب في اغلب الأحيان فقد روي انه "قلما اعتدل به المنبر إلا قال إمام الخطبة (أها الناس، اتقوا الله، فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو، وما ترك سدىً فيلغو، وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهمته)" (٣)، ولذا غالباً ما يجعل استهلال خطابه الديني الداعي إلى تقوى الله تعالى وطاعته بغنى الله تعالى عن طاعة الخلق وعدم انتفاعه بطاعتهم أو ضرره من معصيتهم (٤).

وخير مثال على ذلك خطابه في ذكر المنافقين إذ يوجز الإمام عليه السلام في حمد الله عز وجل والثناء عليه ولكنه يطيل في الشهادة لرسوله ﷺ، ثم يصل خطاب النبوة بخطاب الولاية بامتداد دال على استمرار خط المنافقين وبألفاظ ومعان متصلة قائلاً في المقدمة (وَقَدْ تَلَوْنَا لَهُ الْأَذْنَونَ وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونٌ وَرَوَّاحِلَهَا حَتَّى أَذَلَّتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا مِنْ أُبَّعٍ دَالِكَرٍ وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ) (٥).

ثم ينتقل إلى غرض الخطبة فيأتي على وصف المنافقين بأفعال مأخوذة مما كان في زمن النبي لفظاً ومعنى، إلا انه يوجزها في الابتداء و يتوسع بها في الغرض دالاً من جانب آخر على خفاء المنافقين زمن الرسول ﷺ ووضوحهم في زمن الإمام عليه السلام بعد إعلان ذلك العداء و مجاهرتهم به.

وقد كان وصفه للمنافقين من جانب آخر دالاً على تعاضم خطرهم عما كان عليه زمن الرسول ﷺ، ولذا يختم خطابه بكونهم حزب الشيطان الخاسرين، فينسب الكلام في خطاب الإمام عليه السلام -وفي جميع خطاباته- من الابتداء إلى الغرض ثم إلى الخاتمة دون أن نشعر باقتطاع.

(٣) م.ن: قول ٣٧٠، ص ٥٤٠.

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

(٥) م.ن: خ ١٩٤، ص ٣٠٧.

غرض الخطاب

ويمثل موضوع الخطاب، والجامع لمقاصده، ويراد به " عرض القضية التي يريد الخطيب إثباتها"^(١)، فيوضح لمخاطبيه غايته من الخطاب، ولغرض الخطاب عند الإمام عليه السلام أهمية كبيرة عند الإمام عليه السلام فلا يُستغنى عنه لكونه يمثل مقاصده^(٢)، وربما وردت خطب الإمام عليه السلام دون مقدمة أو خاتمة^(٣)، ولا سيما ما كان منها جواباً عن سؤال^(٤)، أو تفصيلاً لكلام^(٥)، إلا أن غرض الخطبة هو الأساس الذي تقوم عليه^(٦).

ويتوجه الإمام عليه السلام في أكثر أغراض خطابه لمخاطبيه محاولاً إفهامهم حقيقة الدار التي نزلوا فيها، وحالة الغفلة التي تشغلهم عن التفكير في ذلك، فإنما أهل الدنيا فيها (أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ تَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا)^(٧).

وخطاب الإمام عليه السلام وسيلة لتهديب الناس وتربيتهم وتعليمهم كما هو وسيلة لإظهار الحق- لذا فمن خطابه ما يكون حكمة معبرة عن عميق ما يجول بخلده يتوجه بها لمخاطبيه لإعمال فكرهم بقدره الله تعالى وعظمته وجسيم نعمته لأنهم (لَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)^(٨).

ولذا يحثهم الإمام عليه السلام على التفكير فيما خلق الله عز وجل من آيات دالة على عظمته حتى (صَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ)^(٩)، ليوصلهم إلى استشعار عجزهم عن وصفه تعالى بقرائع عقولهم وحثهم التفكير (فَسُدَّ بَانَ الْأَبْنَى بِهَرِّ الْعُقُولِ عَنْ وَصْفِ لُحْيِ جَلَالِهِ لِلْعُيُونِ

(١) علم الخطابة : ٩٦/٢.

(٢) يقسم الشريف الرضي خطاب الإمام عليه السلام على اجزاء، فيضع على كل جزء منها المقصد الذي أراده، وإن كانت مشتملة على مضامين عتق جمعها الرضي بقوله "وله مقاصد

أخرى". نهج البلاغة : خ ٢٣٠، ص ٣٥١.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٣، ص ٤٨-٥٠.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٦٢، ص ٢٣١.

(٥) ينظر : م.ن : خ ٨٤، ص ١١٥.

(٦) ينظر : الأسلوب : ١١٧.

(٧) نهج البلاغة : خ ٢٢٦، ص ٣٤٨.

(٨) م.ن : خ ١٨٥ : ص ٢٧٠.

(٩) نهج البلاغة : خ ٩١ : ص ١٢٦.

فَأَدْرَكَتْهُمُ مَدُّ نُودٍ مُكُونًا وَمُؤَلَّفًا مَلُونًا وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْيِيدِ نَفْعِهِ^(٢).

ومن خطابه ما يكون موعظة حسنة يدعو بها مخاطبيه إلى إشغال قلوبهم بذكر الله تعالى لتجلية فطرتهم ومعرفة الخالق حق المعرفة وذلك بتحذيرهم من الدنيا وتنفيرهم عنها، وحثهم على العمل فيها لأنها دار عمل وفناء، وترغيبهم في ثواب الآخرة وترهيبهم من عقابها لأنها دار جزاء وبقاء، ووعظهم بالسابقين من أنبياء أو أناس عاديين لينتهي في وعظهم إلى حثهم على العمل للآخرة بقوله (وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلًا فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَخْلُقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لَتَذَرَوْهَا مِنْهَا الْأَعْمَالُ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ)^(٣).

ومن خطابه ما يكون نصحاً بأداء الفرائض لكونها وسائل موصلة إلى الله تعالى^(٤)، ودعوتهم للعمل بما أوجبه الله تعالى من فرائض ولا سيما فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٥) المرتبطة بوجود الإمام عليه السلام.

ومن خطابه ما يكون دعاء يتوجه به إلى الله تعالى، وهو جزء حيوي من العبادة التي خلق لأجلها الإنسان ففيه تشديد على العبودية المطلقة بازاء الربوبية للخالق، ففي الدعاء بث الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى، وإظهار لضعف الإنسان وعجزه أمام إرادة الله تعالى^(٦)، وحاجته المطلقة إلى الله عز وجل في كل حال، سواء كانت حاجة عقلية لاستكناه الحقائق^(١)، أو حاجة نفسية يختم بها خطابه لتنقية أرواحهم^(٢)، أو حاجة اجتماعية يتوقف عليها إصلاح أحوالهم وأحوال مجتمعهم باستئصال ما شح نتيجة اقتراف قبائح الأعمال، كما في ادعيته في الاستسقاء^(٣).

والدعاء وسيلة لتربية الإنسان على التحلي بالفضائل التي دعا إليها الإسلام واجتناب الرذائل من جانب، والتقرب إلى الله عز وجل من جانب

(٢) م.ن : خ ١٦٥ : ص ٢٣٨.

(٣) م.ن : خ ١٣٢ : ص ١٩٠.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١١٠، ص ١٦٣.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١٥٦، ص ٢١٩.

(٦) ينظر : علوم نهج البلاغة : ٣٨٧.

(١) ينظر : الإسلام والفن، محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ :

١٧١.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٣٦.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٥، ص ١٧١.

آخر بتحميده وتقديسه، فالدعاء عند أهل البيت عليهم السلام أسلوب صحيح للسير في الحياة، فهو سلوك عملي لمن أراد السير مؤتمماً بقائله، ونهج قويم لمن أكثر منه بلسانه ليكون طريقاً لاستقامة قلبه، فنلاحظ امتزاج هذه الأغراض من (حكمة، موعظة، نصح، دعاء) في خطب عديدة وتداخلها، ولكن بما لا يتنافى مع وضوحها التام، إذ يجمعها طابع ديني واحد ينظم أجزائها ويسلم قياد كل جزء إلى الآخر ويوحدها ولكن بترتيب محكم ووضوح تام حتى يمكن عدّ بعض خطابه "كلمة جامعة" ^(٤).

وتتوحد أغراض الخطاب جميعها لتقود إلى نتيجة حتمية ^(٥)، إذ تعضد الحكمة بالموعظة الحسنة، ويكون النصح دليلاً لمن لم ينتفع بهما، والدعاء طريق للوصول إلى ذلك الانتفاع، والإمام طريق الحق الذي جعله الله تعالى هادياً إلى طاعته، وهدايتهم بما سبقهم إليه.

ويعتمد الإمام عليه السلام في خطابه على المناهج الثلاثة (الروحي، والعقلي، والطبيعي) التي سلكها القرآن في خطابه للناس ^(٦). ففي المنهج الروحي يخاطب به أرواحهم ليجلي به فطرتهم ويصلح به نفوسهم ويهذب أخلاقهم ويحيي به قلوبهم للاهتمام إلى طريق الحق، مثل وصفه للمتقين ^(٧)، وحثهم على العمل الصالح الذي فيه رضا الله سبحانه وتعالى ^(٨).

وفي المنهج العقلي يسعى الإمام عليه السلام لمخاطبة عقولهم ومحااجبتهم بأقوالهم وإفهامهم حقيقة الوضع للسير في طريق الحق بوعي وإدراك ^(٩). أما في المنهج الطبيعي فيضع الإمام عليه السلام لمخاطبيه حجج الله تعالى التي جعلها آيات دالة عليه، ويحاول بها إثارة دافئ عقولهم وحثها على الإيمان بالغيب من جانب والعمل بطاعة الله من جانب آخر، ومنه وصفه لخلق الله من السماوات والأرض والملائكة، وتقريب ذلك بوصف ما تحت أعينهم من خلق يظهر لطائف صنعته وعجائب خلقته.

^(٤) يصف الشريف الرضي بعض خطابات الإمام عليه السلام بكونه كلمة جامعة، ومنها قوله (فَإِنَّ أَلْعَلِيَّةَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّ وَرَاءَكُمْ السَّاعَةَ تَدْخُوكُمْ تَهْفُوْا أَلْحَقُوا فَإِنَّمَا يُدْظَرُ بِأُولَئِكَ أَخْرُكُم). م.ن : خ ٢١، ص ٦٢-٦٣. ومثلها خ ٢٤، ص ٦٦.

^(٥) لذا فمن شروط جودة الموضوع (الوحدة، الترتيب، الوضوح). ينظر : فن الخطابة : ١٢٩.

^(٦) ينظر : في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، دار العلم، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨ : ٣/٣٨٣.

^(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

^(٨) ينظر : م.ن : خ ١٨٢، ص ٢٦٠-٢٦٤.

^(٩) ينظر : م.ن : خ ١٦٨، ص ٣٤٣.

فيصف بديع خلقة الخفاش بدقة متناهية ليصل بهم إلى تنزيه الله سبحانه عما حاول الجاهلون وصفه^(٤)، أو يصف لهم الطاووس محاولاً غرس الإيمان بالغيب في نفوسهم، الأمر الذي أنستهم الفتوحات إياه، وذلك بعد أن رأوا جناناً في الدنيا، وقصوراً استغنوا بها عما وعدهم الله جلّ وعلا به في كتابه، فيصف ما هو بعيد عن أعينهم فلا يراه إلا القلة منهم، فيذكر لهم الحيتان والفيلة محاولاً دفعهم عن العزوف عما في أيديهم لما يوعدون به في الغيب قائلاً (فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفْتَ فَسُكَّ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الثُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا وَ زَخَارِفِ مَلْظَرِهَا وَلَذَهَلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِافِقِ أَشْجَارِ غُيْتِ عُرُوقِهَا فِي كُنْبَانِ الْمُسْكِ عَلَى سَوَاجِلِ أَنْهَارٍ هُوَ فِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ الْأُلُوفِ الرُّطْبِ فِي عَسَالِيْجِهَا وَأَفْلَاحِهَا وَطُلُوعِ تِلْكَ الثَّمَارِ مُخْتَلَفَةً فِي غُلْفِ أَكْمَامِهَا تُجَنِّي مِنْ غَيْرِ تَكْلَفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةٍ مُجْتَنِّيَهَا)^(٥).

وقد يصف لهم طاعة خلق الله تعالى مما هو اكبر من الإنسان من سماء وملائكة ليوصلهم إلى طاعته^(١)، أو يصف ابتداء خلقه، مدققاً في خلق الملائكة وآدم، ليوصلهم إلى توحيده وعدم الإشراك به^(٢).
ويعد المنهج الروحي عند الإمام عليه السلام اكثر المناهج التي يتبعها لكونه الأساس في الوصول إلى طاعة الله تعالى، فالهداية مصدرها القلب السليم.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٥٥ : ص ٢١٧.

(٥) م.ن : خ ١٦٥، ص ٢٣٩.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٢٤-١٣٦.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١، ص ٣٩-٤٥.

المحاجة

تحتل المحاجة جزءاً كبيراً من الخطاب، وتتداخل مع أجزائه، فللمحاجة أهمية كبيرة، حيث ان "لكل كلام جزءان جوهریان، هما عرض الحالة ثم البرهنة عليها"^(١)، إلا أنها لا تلتزم دائماً كالعرض، فهي تسند غرض الخطاب وتدعمه، وتجبر المخاطبين على الانصياع للخطاب تدليلاً وتفنيداً، ولذا فقد حث الإمام أصحابه على اتباع ذلك^(٢).

والإمام هو حجة الله الناطقة على الأرض التي يهوي كل من وقف بازائها، و العلم الهادي بنور العلم الذي جعله الله سبحانه حجة على الخلق أجمعين، لذا كان خطاب الإمام عليه السلام حجة لا ترد و أدلته لا تفند، فهو المتكلم (بِعِدَّةِ اللَّهِ وَحُجَّتِهِ)^(٣)، ولا حجة لأحد عليه^(٤).

على اننا نرى كثرة محاججات الإمام عليه السلام لمخاطبيه، فقد كان تولي الإمام عليه السلام زمام الأمور في زمن شاعت فيه العقائد الباطلة وكثرت فيه الفرق التي تروج للبدع والشبهات، بعد أول خلاف جرى بينهم بعد وفاة الرسول ﷺ^(٥).

ولم يكن ذلك إرثاً ماضياً فحسب، بل كانت مستجدات الأحداث تغذيه، ولذا كان وقوف الإمام عليه السلام بازاء الخصوم ومحاجته لهم، فإن لم ينصاعوا فالحرب التي لا هوادة فيها ولا سبيل سواها لإعلان الحق، ولذا يقول الإمام عليه السلام (أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ)^(٦).

ولم تقتصر محاججات الإمام عليه السلام على أمور سياسية فحسب، بل كانت في مسائل دينية عقائدية، إذ لا يمكن فصل السياسة عن الدين، فالدين هو الذي أوجدها، لذا نجد أن "فتنة الكلام ومنازعة العقائد قد مهدت للفتن السياسية، تولدها وتتولد منها"^(١)، وعلى الرغم من كون الإمام عليه السلام لم يرد ولم يفند إلا ما له مساس بعقيدة المسلمين -والإمامة أمر

(١) النقد الأدبي الحديث : ١٣٦.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ٦٧، ص ٩٧-٩٨.

(٣) م.ن : خ ١٧٦، ص ٢٥١.

(٤) يقول الإمام عليه السلام (اعْمُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَهْلٌ). م.ن : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(٥) ينظر : الفتنة الكبرى : ١٠/١-١٩.

(٦) نهج البلاغة : خ ٧٥، ص ١٠٣.

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب : ١٢٧.

عقائدي-، لم يكد يخلو منها أي نوع من أنواع خطابه، محاولاً بمحاججاته زرع الوعي فيهم واجتثاث أصول الجاهلية.

ففي خطابه الديني يحتاج الإمام عليه السلام رلاً على الشك الذي سرى في الأمور العقائدية وتعزز بجهلهم وتجاهلهم في الاستعانة بمن خصّ بمحاججتهم، وذلك نتيجة اختلاط سكان البلاد العربية مع البلدان المفتوحة، ومحاولة أهل الديانات السابقة إثارة الشكوك في عقيدة المسلمين، مما أدى إلى إثارة أسئلة حول ماهية الله سبحانه وتعالى (كيف، لماذا، وماذا) الأمر الذي يثبت خطابه الإمام الرسالي في تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل النقولات، وافتقار الإنسان وحاجته لله تبارك وتعالى.

فيحاجج الإمام عليه السلام من كان يسأل عن ابتداء الخلق أو يحاول وصف الله تبارك وتعالى بحجة لا ترد، وقول لا يفند يثير تفكيرهم وينزّه الله عز وجل عن أي وصف نحو قوله (أُتِّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ وَالْمُذَنَّبُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُرِّثَتْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ وَوُضِعَتْ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَجَلٍ مَفْسُومٍ تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تُحِيرُ كُعَاءً وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْ هَـ وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَا لَفِيعَهَا فَمَنْ هَـ ذَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ هَـاتِ إِنْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِنِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَلْقِهِ أَعْزَ وَمِنْ تَلَوُّلِهِ بِدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَعْبَهُ^(٢).

ومثل ذلك خطبة الأشباح فهي خير مثال على ذلك الشك المتمثل بسؤال السائل عن وصف الله سبحانه، فكان جواب الإمام في الخطبة خير دليل على هذا النوع من الحجج^(١)، محاولاً تنزيه الله سبحانه وتعالى والاستدلال على وحدانيته بما استدل الله تعالى به في كتابه من آيات بينات وضعها أمام الخلق، ولا سيما خلق السماء وما فيها من شهب وشمس وقمر ثم خلق الأرض وما فيها من ماء ونبات، ثم خلق الملائكة محاولاً من ذلك محاججة عقل الإنسان ليوقظه من غفلته وسباته ويضع أمامه شواهد ذكرها القرآن ونسوها، فيتعمق فيها، وهنا تتجلى نعمة الإمامة في التذكير بما جاء في كتاب الله جلّ وعلا وتكييفه وتعميقه بما يتوافق مع عقولهم. أما في الخطاب السياسي فتأتي محاججات الإمام عليه السلام رداً على شكوك أعدائه وتفنيدها لمزامعهم وادعاءاتهم التي تمس مقام الإمامة

(٢) نهج البلاغة : خ ١٦٣، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٢٤-١٣٦.

منصباً وقائداً بشكل مباشر حتى تصل إلى بيعته عليه السلام^(٢)، طمعاً في الاستيلاء على المنصب وللتقليل من طاعة الناس للإمام عليه السلام التي لم يقصرهم عليها.

وإثارة الشك في الإمام عليه السلام متصل بزلزلة عقيدة المسلمين، فالإمامة أمر عقائدي وهي أصل من أصول الدين، وركن أساس يتجسد فيه التوحيد، ولذا يكون رّهُ بشكل مباشر محاولاً به قطع دابر المتكبرين وفضح المنافقين، كما في رّهُ على الأشعث الذي قاطعه ليشكك مخاطبيه في قيادته الحق، فردّ عليه الإمام عليه السلام بقوة تستجلي الحق وتعلنه واضحاً بما لا يسمح للنفاق بتضليله^(٣)، في الوقت الذي يتحير فيه الإمام عليه السلام بين الرد على أحد الخوارج والعفو عنه عندما لا يكون لذلك الكلام مساس مباشر بالعقيدة^(٤)، لا لكون الطعن الذي وجهه الأول في فضيلة امتاز بها الإمام عليه السلام، بل لكون هذه الفضيلة حجة عليهم مما له مساس بالعقيدة^(٥).

وتأتي محاجبات الإمام عليه السلام وتفنيده إما لمواقف سابقة اتخذها الناس عذراً لهم للمطالبة بدم من سبقوا إلى خذلانه^(١)، أو تهديده بتسليم قاتليه^(٢)، أو لمواقف صادرة عن أعدائه^(٣)، أو لما يبلغه من اتهامهم إياه بما كان سابقة له على حياة رسول الله ﷺ مما يحاولون إنكاره. ويأتي ردّ الإمام عليه السلام على ما نسبوا له من أقوال وما أثاروه من شكوك لتفنيدها تدليلاً على صدق موقفه وكونه الحق في حروبه العقائدية، حتى بعد انتهاء تلك الحروب وانتصار سيفه فيها^(٤).

وفي الخطاب الجهادي فتأتي محاجبات الإمام عليه السلام رداً على شكوكهم بازائه كما حدث عندما استبطأ أصحابه القتال في صفين وسرى الشك في كراهيته للموت أو كونه شاكاً في أهل الشام عندما حاججهم بقوله (أَمَّا قَوْلُكُمْ أ كُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي دَخْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَوَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ وَ أَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ

(٢) ينظر: م.ن: خ ١٧٣، ص ٢٤٨.

(٣) ينظر: م.ن: خ ١٩، ص ٦١.

(٤) ينظر: م.ن: قول ٤٢٠، ص ٥٥٠.

(٥) ينظر: شرح ابن أبي حديد: مجلد ٢٠، ٥/٤٥٠.

(١) ينظر: نهج البلاغة: خ ٣٠، ص ٧٣.

(٢) ينظر: م.ن: خ ١٧٤، ص ٢٤٩.

(٣) ينظر: م.ن: خ ٢٦، ص ٦٨.

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٥٦، ص ٢١٨.

يَوْمًا إِلَّا وَأَلَّا أَطْمَعُ أَنْ تُلَدَّ قَبِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَغْشَوْا إِلَيَّ ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَأَنْتَ تَبُوءُ بِإِثْمِهَا) (٥).

ويأتي تفنيد الإمام عليه السلام لأقوالهم السابقة وموقفه منها لتذكيرهم بها فتكون حجة عليهم عسى أن يهتدي مهتد، ولذا يحاجهم بالقول (أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةٌ وَغِيْلَةٌ وَمَكْرَأٌ وَ هَيْعَةٌ إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا اسْتَقَالُوا وَلَاسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُجَّدَ أَهْلُ الرَّاْيِ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ فَقُلْتُ لَكُمْ هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيْمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَآخِرُهُ دَآمَةٌ) (١)، وترد محاجبات الإمام عليه السلام للخوارج دليلاً على قوة حجته بما لا يمكن لأحد رثاها (٢).

وعلى الرغم من كون خطاب الإمام عليه السلام نفسه كافياً لإقناعهم دون حاجة إلى دليل أو وسيلة أو حجة، إلا أن الحجج التي يوردها الإمام عليه السلام لا تقتصر على مواضع التفنيد فحسب، بل تتجاوزها إلى ما كان يقوله إثباتاً وتدليلاً.

فقد كان الإمام عليه السلام يخاطب عقولهم محاولاً حثها على التفكير، وعدم القبول بكل قول -إن لم يكن صادراً ممن خصّ بالعلم الرسالي- وهو ما اعتمده الأسلوب القرآني حيث "كان يلجأ إلى البرهنة العقلية والاستدلال المنطقي" (٣)، فيجعل خطابه مقاييس منطقية تبدأ بمقدمات وتنتهي بنتائج منطقية نحو قوله (إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الشُّيَا وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ) (٤)، فإن كان حرث الدنيا حقير قياساً إلى حرث الآخرة وهو العمل الصالح، ينتج أن المال والبنين حقيران بالنسبة إلى العمل الصالح (٥).

ويحاول الإمام عليه السلام تثبيت عقيدتهم على أساس قوي يثبت أمام الهزات التي تحاول تقويض الإسلام من أساسه، فلا يأتي بما يهيج عواطفهم لترتفع في لحظة ثم تعود بعدها، بل يحاول بناءها على أساس متين من الوعي إن لم يكن تأثيره في زمان قريب، فإنه يترك أثره لمدى

(٥) م.ن : خ ٥٥، ص ٩١.

(١) نهج البلاغة : خ ١٢٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) ينظر : الكامل في اللغة والأدب، المبرد (٢٨٥هـ)، المعارف، بيروت : ١٣٥/٢-١٣٦.

(٣) الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ٤٦.

(٤) نهج البلاغة : خ ٢٣، ص ٦٤.

(٥) ينظر : شرح البحراني : ٢٢٥/١.

بعيد، وبهذا يبقى الإسلام قائماً على عرى وأصول متينة ويثير مكامن عقولهم مستقبلاً^(٦).

وقد ينقل الإمام عليه السلام لمخاطبيه حواراً معبراً عن وقائع أو قصصاً واقعية مستمدة من وقائع آنية - لا أدلة زائفة تثير عواطفهم وتهيجها - وذلك في خطابه السياسي ليعلم موقفاً صريحاً يخرس به تقولات السنة من لم يشهد الحدث ويفند مزاعم المتقولين، ولتكون دليل عمله السياسي المقترن بعدله المتفرد.

كوصفه لمن تقدم إليه بهدية بالقول (وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَائِهَا وَمَعْجُ وَتَشْتَتُّهَا كَأَنَّمَا عَجَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْهَا فَقُلْتُ أَمْ صَلَّةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيَّ أَهْلُ الْبَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهُ مَا هَؤُلَاءُ فَقُلْتُ هَلْ تَنْتَ الْهَبُولُ أَعَنْ هَذَا اللَّهُ أَتَيْتَنِي لِتَخْذَعَنِي أَمْ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ دُوْ جَنَّةٌ أَمْ تَهْجُرُ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبعةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي مَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ هَوَانٍ لِحُيَاكُمْ عِندَ هِيَ لَا هَوْنٍ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلَا نَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَقْبَى نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَفُجِجَ الزَّلَلُ وَبِهِ سَتَعَيْنُ)^(١)، مثلما ينقل حواراً سابقاً لتولييه الخلافة^(٢)، قرع به الحاضرين بالحجة ليكون دليلاً على عدم جهل أعدائه بحقه الذي ينكرون بل تجاهلهم، وحجة ناطقة على الباطل الذي يمثله ناكثوا بيعته، فيقول (وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا أبا أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ فَقُلْتُ بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَا حَرَصُ وَأَبْعَدُوا نَا أَعْصُ وَأَقْرَبُ وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ يَهُودَ ضَرْبُ وَنَ وَجْهِ هِيَ تُوْنُهُ فَلَمَّا قَرَأْتُ لَهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ مُبْهَتٌ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ)^(٣).

ويوضح الإمام عليه السلام في خطابه الجهادي ما حدث جراء تخاذلهم وتوانيتهم محاولاً تغيير مواقفهم المترددة بمنهج منطقي، فإن لم يكن الإيمان بالله تعالى دافعاً لهم للجهاد في سبيله، فلعل الغيرة الخلقية والحمية العربية تدفعهم للتوجه لسوح الجهاد^(٤).

(٦) "هذه الأدلة ضرورية للتأثير في الخطابة وقد تحدث عنها أرسطو واقتضاها في منهجه المنطقي". فن الخطابة وتطوره عند العرب : ١٣٨.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٢٤، ص ٣٤٧.

(٢) ينظر : شرح البحراني : ٩/٢.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٧٢، ص ٢٤٦.

(٤) ولهذا ينكر الإمام عليه السلام عليهم مواقفهم على اختلاف فرقهم (لَا يُؤْمِدُونَ بِغَيْبٍ وَلَا يَعْفُونَ عَنْ غَيْبٍ). نهج البلاغة : خ ٨٨، ص ١٢١.

فيذكر لهم — على سبيل المثال — قتل عامله على الأنبار وما فعله اتباع معاوية ويقابل فعلهم هذا مع انصرافهم دون أذى يمسهم لينتهي إلى نتيجة هي الأجر بالفعل عند الإمام عليه السلام إذ يقول الإمام عليه السلام (وَلَقَدْ بَلَغِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَأَن يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ فَيَنْتَزِعُ حُجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَ هَوْرُ عُنْهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا لَلْ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلَمٌ وَلَا أَرِيقٌ لَهُمْ دَمٌ فَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عَذِي جَيْرًا)^(٢)، وبذكره للمرأة يحاول إثارة النخوة في نفوس مخاطبيه للدفاع عنها^(٣)، فكان استخدامه للتدليل المنطقي والخطابي إمعاناً في الإقناع بالعقل والمنطق وبلاغاً في التأثير، فهذه الأدلة ضرورية لأنها تضع المخاطب "أمام واقع يشاهده ويتلمسه بحواسه وتسهم في إقناعه عن طريق العقل والمنطق"^(٤).

وعلى الرغم من كون الإمام عليه السلام حجة الله تعالى عليهم بأقواله وأفعاله وأخلاقه الناطقة بالعلم الإلهي المجسدة للعصمة، فقد كان الإمام عليه السلام يتمثل في خطابه بالآيات القرآنية وأحاديث السنة النبوية والشواهد الشعرية والنثرية، ليزيد في إقناع مخاطبيه ولتقوية حجته، ودحض وإبطال حجج معادية.

فقد كان خطاب الإمام عليه السلام يشع بآيات القرآن التي حفظها وتشربها في نفسه، ولا سيما "ان القرآن الكريم هو المصدر لكل بيان وشاهد صدق عليه"^(١)، فكان يدعوهم بها ناصحاً كدعوتهم للعمل بطاعة الله جلّ وعلا وتذكيرهم بآيات الله تعالى (فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُودًا إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُذِيبْ أَقْدَامَكُمْ وَقَالَ تَعَالَى مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ أَهْلًا هُوَ أَجْرُ كَرِيمٍ فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَا هُجْدُ وَالسَّمَاءُ اتَّوَالَتْ الْأَرْضَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَاسْتَقْرِضَكُمْ وَلَا هُخْرَائِنُ السَّمَاءُ اتَّوَالَتْ الْأَرْضَ وَهُوَ الْغِيُّ الْحَمِيدُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَلْبُوكُمْ أَتُكْمُ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٢).

(٢) م.ن : خ ٢٧، ص ٦٩-٧٠.

(٣) ينظر : الخطابة وفن الإلقاء، أشرف محمد موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨ : ٣٥.

(٤) في النقد والأدب، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٥، ١٩٨٦ : ١٠٥/٢.

(١) الأمثال في نهج البلاغة، محمد الغروي، فيروز آبادي، قم، ١٤٠١ هـ : ٥.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٨٣، ص ٢٦٧-٢٦٨.

فالإمام عليه السلام هو المحاجج لهم بما نزل من حقه في القرآن، والحاكم بشرائعه، المحل لما أحل الله فيه والمحرم لما حرم الله سبحانه فيه، فكان يأمرهم بما أمر الله تعالى به وينهاهم عما نهى الله تعالى عنه، تذكيراً بآياته وتثبيتاً لمعانيها الصحيحة، لا لكي يورث خطابه وقاراً وبهاء^(٣).

ومثلها أحاديث الرسالة الخالدة فالسنة هي مصدر التشريع الثاني في الإسلام بعد القرآن^(٤)، ولذا يذكرهم الإمام عليه السلام بالسنة النبوية مستشهداً بأحاديث الرسول ﷺ تارة، نحو قوله في نصحهم بالابتعاد عن النفاق (وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يُتَكَلَّمُ بِمَا آتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَذَرِي مَا ذَا لَهُمْ مَادَا عَلَيْهِمْ وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عِدْحَتِي يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُمْ لَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُمْ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ)^(١)، أو بأفعاله وأحكامه ليوضح لهم ان ما يصدر عنه امتداد لما صدر عن الرسول ﷺ وان مخالفته مخالفة لسنته كقوله للخوارج وهو يكشف لهم الشبهة بقوله عليه السلام (وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُخْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَدَّ هَاهُنَا)^(٢).

وقد كان السعي لإماتة السنة لا لتغيير معانيها كالقران بل لنقض حقه^(٣)، ومن هنا كان تشديد الإمام عليه السلام على السنة لإحيائها، وذلك بتبليغهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو قوله (أَتَيْهَا النَّاسُ خُذْ وَهْلَ عَنْ خَلْتِمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذْ يُهَيِّمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَئِنْ بَمَيِّتٍ وَيَلْبَى مَنْ بَلَى مِنَّا وَلَئِنْ بَبَالٍ فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيْمَا تُنْكِرُونَ)^(٤)، وتذكيرهم بما أوصاهم به من حق الإمام عليه السلام ولا سيما في حجة الوداع وحديث الثقلين، ولذا يقول الإمام عليه

(٣) وهي ما أفاده الخطباء ممن جاء بعده، إذ يقول الجاحظ "انهم كانوا يستحسنون ان يكون في الخطب يوم الحفل، والكلام يوم الجمع آبي من الفرقان فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وتسلسل الموقع". البيان والتبيين : ٦٠/٢.

(٤) يقول الإمام عليه السلام لابن عباس عندما بعثه للاحتجاج على الخوارج (لا تخاصمهم بالقران، فإن القران حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة، فانهم لن يجدوا عنها محيصاً). نهج البلاغة : كتاب ٧٧، ص ٤٦٥.

(١) نهج البلاغة : خ ١٧٦، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) م.ن : خ ١٢٧، ص ١٨٤.

(٣) ويتضح فيما وصف به الإمام الجائر (فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُودَةً)، ومثله ما أنكر على الوالي انه

(الْمُعْطِلُ لِلْسُنَّةِ فَيُهْلِكُ الْأُمَّةَ)، وما جعل من صفات الإمام عليه السلام (الْأَحْيَاءُ لِلْسُنَّةِ). م.ن :

خ (١٦٤-١٣١-١٠٥)، ص (٢٣٥-١٨٩-١٢٥) على التوالي.

(٤) م.ن : خ ٨٧، ص ١٢٠.

السلام (اغثوا من لا حجة لكم عليه وهو ألا ألم أعل فيكم بالنقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر) (٥).

ويحتج الإمام عليه السلام عليهم بموضعه من رسول الله ﷺ وكونه الأقرب إليه قرابةً ومنزلةً وتصديقاً تارة (٦)، والمجاهد معه تارة (٧)، والمطيع له تارة أخرى (٨)، فإن كان الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فالإمام عليه السلام أولى بالحكم بينهم وحل التنازع القائم (٩).

وكان تشديده على الجمع بين السنة وبين كتاب الله عز وجل وموقع الإمام عليه السلام منها بوصفه حلقة الوصل التي تجمع بينها لكونه المصدق بآيات الله تعالى الحافظ لها، والعالم بتأويلها، والمستفسر الأول عن معانيها، والمخصوص بما أنبأ به الرسول ﷺ، نحو قوله عن الفتنة (إِذْ هَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَيْهِ أَلَمَ أَحَدُ سَبِّ النَّاسِ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ إِلَّا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِنِي أَظْهَرَ لِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا فَقَالَ يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْرِي) (١٠).

وقد يستخدم الإمام عليه السلام الأمثال الشائعة التي ألفوها وفهموا معانيها لإفهامهم وتثبيت ما يريد قوله في عقولهم، للتأثير في قلوبهم "للمعنى الذي يتركه في النفس من الشبه الحاصل بين المناسبتين" (١١)، نحو قوله (لَوْ كَانَ يُطَاعُ الْقَصِيرُ أَمْرٌ) (١٢)، وكان مثلاً شائعاً في الجاهلية لكل ناصح يعصى ورأيه هو الأصوب (١٣)، فالأمثال "سرد حالات أو حوادث واقعية أو فرضية، حصلت لبعض الناس، فكانت نتائجها أحياناً حسنة، وأحياناً سيئة" (١٤).

(٥) م.ن : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٠-٣٠٢.

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٢٢، ص ١٧٩.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٧، ص ٣١١.

(٩) ينظر : م.ن : خ ١٢٥، ص ١٨٢.

(١٠) م.ن : خ ١٥٦، ص ٢٢٠.

(١١) أمثال القرآن وأمثال الحديث، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق : موسى بباي العليل،

مطبعة الجاحظ، بغداد : ١٢.

(١٢) نهج البلاغة : خ ٣٥، ص ٨٠.

(١٣) ينظر : شرح البحراني : ٢٧٣/١.

(١٤) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، محمد طي، مركز الغدير، إيران، ط ٢، ١٩٩٧ : ٢١٣.

وقد يستخدم المثل القرآني القريب إلى عقولهم ونفوسهم لتقريب المعنى لأذهانهم ولتقوية حجته في الخطاب، ولا سيما عند وصفه لمن أضلّ الأمة (فَهُوَ مِنْ لُؤْسِ الشُّبْهِ اتِّفِيَ مِثْلُ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ جَاهِلٌ كَلَّطَ جَهَالًا تِ)^(١)، فالشبهات كنسج العنكبوت الذي يضرب مثلاً للأمور الواهية^(٢).

ومثل ذلك استخدام الإمام عليه السلام للقصص القرآني لتقوية حجته في الخطاب، وإن كان أسلوباً غير مباشر لتربية مخاطبيه بالربط بين النبوات واخذ العبرة والدرس منها كما في ذكره لقصة موسى عليه السلام للاعتبار بتواضع الأنبياء عليهم السلام^(٣)، فلا يكتفي بذكر القصص، وإنما يكمل بما يقيم الحجة عليهم بخطابه الرسالي.

وقد يسند خطابه بالشاهد الشعري^(٤)، "ومدار العلم على الشاهد والمثل"^(٥)، لإقناعهم وليكون خطابه أكثر تأثيراً فيهم من الكلام، وليكون لمخاطبيه انتفاع به ولا سيما في ختام خطاب يقطر أسفاً وحسرة عليهم ليتردد صده في أذهانهم.

ومع ان كل قول نطق به دليل لهم وحجة عليهم، إلا أنه لا يترك باباً إلا طريقه وخاض فيه ليكون ابلغ في الإيصال وأكثر تأثيراً فيهم^(٦)، إذ لا ينتقي من الحجج إلا ما كان مؤثراً فيهم بما لا يمكنهم إنكاره، ولذا يحتج الإمام عليه السلام عليهم بالإجماع على بيعته لا بالنص عليها وإن كان هو الحق - لأنه يأتي بما لا ينكرونه ليكون دليلاً على ما ينكرون^(٧).

(١) نهج البلاغة : خ ١٧، ص ٥٩.

(٢) ينظر : شرح البحراني : ٢٠٨/١.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٣٥، ص ٨٠.

(٥) البيان والتبيين : ٢٧١/١.

(٦) ومن خطاب الإمام عليه السلام وقدرته الإيصالية فيه اتخذت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه واله وسلم والشاهد الشعري والنثري، وخطابه الذي أصبح حكماً وأمثالاً... وسائل اتصال للبلاغة العربية. ينظر : البلاغة العربية ووسائل الاتصال، محمد بركات، الآفاق العربية، الأردن، ٦٤، ص ٢، ٢٠٠٢ : ٤٣.

(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٧٣، ص ٢٤٨.

خاتمة الخطاب

وهي آخر ما ينهي الإمام عليه السلام به خطابه، ويهتم الإمام عليه السلام بخاتمة الخطاب بما لا يقل عن اهتمامه بافتتاحه، وذلك لما يتركه ختام الخطاب في نفوس مخاطبيه من أثر، فخاتمة الخطاب "آخر ما يتردد صده في قلوبهم وبه تتم الفائدة"^(١).

ويتصل ما يختتم به الإمام عليه السلام خطابه بابتداء ذلك الخطاب، والغرض المراد منه، مع تكيف ذلك تبعاً لمخاطبيه. وعلى غرار الافتتاح يجعل الإمام عليه السلام ذكر الله خاتمة عامة لخطابه، مثلما جعل حمد الله والثناء عليه مفتتحاً لها، وينوع الإمام عليه السلام في ذلك الذكر.

وغالباً ما يختتم الإمام عليه السلام خطابه بآية قرآنية تناسب ما وصل إليه من كلام نحو قوله في ختام وصفه لتقاعس مخاطبيه (وَتَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)^(٢)، أو بخاتمة تشهد له بصدق المقال، نحو قوله في ختام وصيتهم بالزهد لزوال الدنيا وتغير حالها (هَاتَ هَاتَ قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ وَمَضَتِ الشُّيَا لِحَالِ بِأَلْهَا فَمَا بَكَتْ عَظْمُهُمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)^(٣)، ولитردد صدى ذلك الخطاب في أذهانهم دالاً على عدم خروج الإمام عليه السلام فيه عن آيات الله تعالى، تفعيلاً لتلك الآيات بتجديد الاستشهاد بها على حال مخاطبيه، فلا تخص عصرًا نزلت فيه ولا تقف عنده.

ولذا يختتم وصفه للمنافقين مثلاً بكونهم حزب الشيطان (فَهُمْ لَمَّةُ الشَّيْطَانِ وَحَمَّةُ النَّيِّرَانِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)^(٤).

وأكثر ما يختتم به الإمام عليه السلام خطابه آيات من كتاب الله عز وجل توجز ما أراده من ذكر خطابه، فيختتم خطاباً له في توحيد الله الذي يشدد فيه على خلق الله جلّ وعلا ليوجز فيه ما أراده من عبرة بالخطاب بقوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)^(٥)، أو يختتم خطابه بآيات

(١) علم الخطابة : ١٣٤/٢.

(٢) نهج البلاغة : خ ٣٩، ص ٨٢.

(٣) م.ن : خ ١٩١، ص ٢٨٥.

(٤) م.ن : خ ١٩٤، ص ٣٠٨.

(٥) نهج البلاغة : خ ٢١١، ص ٣٢٩، (سورة النازعات/٢٦).

قرآنية يمكن عدها "مثلية" ^(٢) أي تذهب مذهب الأمثال نحو قوله (وَلَوْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) ^(٣)، فيكون تمثله بالآية القرآنية دليلاً على عفو عن ظلم الناس له، وتذكيرهم بعفو الله تعالى وصفحه عمن تاب. وقد يكون الاختتام بآية قرآنية يتبعها بما يدل على استعانته وإياهم بالله عز وجل نحو قوله (أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى فُيُوسَى وَأَنْفُسِكُمْ وَهُوَ خَسْبُكُمْ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ^(٤)، فالاستعانة بالله مشتركة بين طرفي الإرسال.

وقد ينهي الإمام عليه السلام خطابه بدعاء يوضح الحاجة لله تعالى، وعبوديته المطلقة التي تجمعها بمخاطبيه وتدفع الغلو في تقديرهم لمنزلته نحو قوله (أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهَمَانَا وَإِيَّاكُمْ الصِّدْقَ) ^(٥)، بوصف الدعاء وسيلة لتربيتهم وتهذيبهم على الخلق القويم والآداب الرسالية، وقد يجمع بين الآية القرآنية والدعاء ^(٦).

ويؤكد الإمام صفة العبودية لله تعالى عند ختامه لخطاب أثنى فيه عليه بعدم الاكتفاء بالدعاء بل يجمعه بالقول (فَأَيُّمَا أَلْهَ وَأَنْتُمْ عِدِّ يَدَمَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَارَ بَعُوهُ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا مَلِكُ مِنْ أَنْفُسِ وَأَخْرَجَ لَمْ مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَّحَ لَعَلَّهِ فَأَبْدَلَهُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى) ^(١)، فيجعل الخاتمة تعبيراً عن المسؤولية المشتركة التي تجمعها بمخاطبيه وتوضيحاً لسيره في الخط نفسه الذي يدعوهم إليه وهي طاعة الله عز وجل وعبادته.

وقد يختتم الإمام عليه السلام خطابه بما هو حجة عليهم إما بذكره منزلة آل محمد عليهم السلام نحو قوله (أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّلَاحُ وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ) ^(٢)، ليذكرهم بامتداد صنائع الله فيهم، وكونهم الأئمة من بعده، وفي محبتهم النجاة بقوله (نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوءَةِ

(٢) الأمثال في نهج البلاغة : ٧.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

(٤) م.ن : خ ١٨٣، ص ٢٦٨.

(٥) م.ن : خ ٢٠٥، ص ٣٢٢.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٩١، ص ١٣٦.

(١) نهج البلاغة : خ ٢١٦، ص ٣٣٥.

(٢) م.ن : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

وَمَحَطُ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَ إِنْ الْعِلْمِ وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ لَصِرُّ لَدَّ
وَمُدِّ بُيِّنَتُ الرِّحْمَةِ وَعَوُّ لَدَّ وَمُغْضُ لَدَّ يَنْتَظِرُ السَّطَوَمَ^(٣).

وقد اختتم الإمام عليه السلام خطابه بذكر منزلته التي خبروها
مسبقاً نحو قوله (أَنَا كَابُّ الشُّبَا لَوْجُهَا وَقَائِرُهَا بِقَدْرِهَا وَلَظَرُهَا
بِعَيْنِهَا)^(٤)، أو لكونه الحق الذي انتصر به الإسلام وسيكون بقر الباطل
على يديه بقوله (وَ أَيْمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا
وَاسْتَوَسَقَتْ فِي قِيٍّ إِنَّهَا مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ وَلَا خُنْتُ وَلَا وَهْتُ وَ أَيْمُ اللَّهِ
لَأُفَرِّنَ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَصِرَتِهِ)^(٥)، ليكون كلامه هادياً لمن
لم يهتد بهديه.

وقد يختم الإمام عليه السلام خطابه بإيجاز الصفة التي دعاهم
للتمسك بها والتي تعد أساساً للسير في نهجه، ولا سيما خطابه الديني
ودعوتهم لتقوى الله وطاعته فيجعل وصف الزهاد ختاماً يلخص في
وصفهم العمل الذي دعاهم له وحثهم للإسراع والجد فيه، ويضع أمامهم
أنموذجاً حياً ومثلاً للطاعة يحتذونه^(١)، أو يوجز فيها الموعظة التي
وعظهم بها^(٢).

وقد يختم خطابه بالتشديد على الاتعاظ بمواعظه والانتفاع بعبره
التي ذكرها في خطابه الديني نحو (فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ وَ اعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ
وَ انْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ)^(٣)، والاعتبار يكون بالحال التي يتوصل بها الإنسان من
معرفة ما يراه ويشاهده إلى ما لا يراه^(٤)، أو يذكرهم بالسبب الذي يدعوه
لذلك الإسراع والتنفير من الدنيا، إذ يحاول الإمام حثهم على التقوى لقصر
عمر الإنسان فيها وسرعة مرور الوقت^(٥)، وتنبيه حواس القلب الذي يمثل
الجهة التي يتوجه لها الإمام في خطابه بعد ذكر دوره الرسالي الذي يريد
تثبيتهم عليه ليعقد صلة بينه وبين قلوبهم وينبهم أن لا هداية إلا بقلب
سليم^(٦)، ويريه سمات من لا يستمع خطابه بقلب سليم^(٧)، بالتحذير عما

(٣) م.ن : خ ١٠٩، ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) م.ن : خ ١٢٨، ص ١٨٦.

(٥) م.ن : خ ١٠٤، ص ١٥٠.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢٣٠، ص ٣٥٣.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٩٤، ص ١٤٠.

(٣) م.ن : خ ١٥٧، ص ٢٢٣.

(٤) ينظر : الإمام علي ومشكلة نظام الحكم : ٢١٣.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٨٨، ص ٢٧٩.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٨٧، ص ٢٧٨.

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٦٥، ص ٢٣٩.

نهاهم عنه لكونهم بعين الله مرة^(٨)، ولأن ما يحذرهم منه واضح لا غبار عليه^(٩).

وقد يختتم الإمام عليه السلام خطابه بوصف موجز لسمات المؤمنين يلامس شغاف القلب وتطمئن له النفس بقوله (إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِيدُونَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خُلُوفُونَ)^(١٠).

ان الطابع الديني لخطاب الإمام عليه السلام يجعل خطابه جسداً واحداً بحسن تخلص من الابتداء إلى الغرض ومنه لخاتمة الخطاب.

أما في خطاب الجهاد فيختتم الإمام عليه السلام خطابه بحثهم على الجهاد بدعوة تلهب مشاعرهم وتحثهم على سرعة إجابة دعوة قائدهم (الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ أَلَا وَإِنِّي مُعَسِّكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاخَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ)^(١١)، ولا سيما مع تخاذلهم وحسرة الإمام عليه السلام عليهم وأسفه على فقد الاتباع والأخيار.

وإذا رأى الإمام عليه السلام الخذلان واضحاً في مخاطبيه، والشك في بطولته سارياً، ولا جدوى من الخطاب، فيقيم الحجة عليهم ويكون الختام بعدم الطاعة (لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطِيعُ)^(١٢)، بعد أن كان يختتم خطابه بدعوتهم لطاعة الله تعالى^(١٣)، واتباع الإمام عليه السلام^(١٤).

وعلى الرغم من تجانس خواتم الإمام عليه السلام مع العرض والابتداء وتناسبها في الطول، نجد أن الإمام عليه السلام غالباً ما يختتم خطابه بخاتمة قصيرة، تشديداً على إيصال معاني الخطاب بإيجاز ما ورد ذكره^(١٥)، ويمكن عتّها دليلاً على بلاغة ذلك الختام، فيحاول تلخيص المعاني البارزة في الخطاب بألفاظ أخرى غير ما ذكرها في الخطاب وبعبارة قوية ليردد صداها في أذهانهم فتجعل لهم من أنفسهم واعظاً وزاجراً.

(٨) ينظر: م.ن: خ ١٥١، ص ٢١١.

(٩) ينظر: م.ن: خ ١٦١، ص ٢٣١.

(١٠) م.ن: خ ١٥٣، ص ٢١٥.

(١١) نهج البلاغة: خ ١٨٢، ص ٢٦٤.

(١٢) ينظر: م.ن: خ ٦٤، ص ٩٥.

(١٣) ينظر: م.ن: خ ١٧٦، ص ٢٥٥.

(١٤) ينظر: م.ن: خ ١٦٦، ص ٢٤١.

(١٥) ينظر: م.ن: خ ٦٤، ص ٩٥.

ولم يرد عن الإمام عليه السلام اختتام خطابه السياسي والجهادي بأوامر عسكرية أو خطاب تهديدي لإكراههم على الطاعة، على الرغم من موقع الإمام عليه السلام القيادي و صعوبة القضايا التي واجهته. ويكف الإمام عليه السلام خواتم خطابه تبعاً للظروف التي أحاطت به لتواكب الأحداث، فعند خروجه إلى حرب الجمل التي حدثت بعد أشهر قليلة من توليه الحكم، يختتم الإمام عليه السلام خطابه بتعهده لمخاطبيه بالعمل بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ انطلاقاً من موقعه القيادي بقوله (وَلَكُمْ عَلاَءُ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ)^(١)، وما يمكن عده ربطاً لخطابه السياسي بالخطاب الجهادي، وتشديداً على الطابع الديني السائد فيها الجامع لأنواعها.

وقد يجعل اختتام خطابه ببیت شعري في خطابه الجهادي والسياسي ولا سيما عند مخالفتهم كلامه محاولة منه في التأثير فيهم، فيختتم خطاباً سأم فيه من تناقلهم للجهاد بقوله (أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ دُتُّ أَنْ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ نِي عَمِّ

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ)^(٢).

ومن هنا فقد تعددت خواتم خطاب الإمام عليه السلام بتعدد خطاباته، إلا ان ذكر الله تعالى يجمعها والطابع الديني السائد في الخطاب كله بجعلها متقاربة في أنواع خطابه.

وقد يقتطع الإمام عليه السلام خطابه دون خاتمة عندما يجد أن السكوت ابلغ من الكلام بما لا يجهله مخاطبيه، وعدم إكمال للخطبة الشقشقية خير مثال، وذلك عندما اقتطعه سائل وطلب منه ابن عباس إتمامه، فلم يعد لما بدأ به وأجابه (تِلْكَ شِقْثَةٌ هَرَّتْ ثُمَّ قَرَّتْ)^(٣).

وقد يترك خطابه دون ختام في خطاب أجاب فيه من سألته عن وصف المتقين عندما يرى تأثر السائل الذي صعقت روحه شوقاً لوصف الإمام عليه السلام وهو ما كان يخافه عليه فلم يجيبه أول الأمر لعلمه بنفس السائل ومدى استعدادها لتلقي ذلك الخطاب، مع وجود شخص آخر يحدث فيه الوصف أثراً مخالفاً فيتسائل متأثراً ليكون السؤال نفسه جواباً

(١) نهج البلاغة : خ ١٦٩، ص ٢٤٤.

(٢) م.ن : خ ٢٥، ص ٦٧.

(٣) م.ن : خ ٣، ص ٥٠.

وتوضيحاً لموقف المخاطبين، واستجابتيهما المتناقضتين بقوله (أَكْذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا)^(١).

وغالباً ما تكون خاتمة الخطاب تلخيصاً لموضوعه أو إيجازاً لأهم عناصره^(٢)، ولذا نجد خاتمة خطاب الإمام عليه السلام قصيرة موجزة، بما يتناسب مع طول الخطاب وموضوعه وحال سامعيه، وبما يتناسب مع طول الابتداء فإن كان مبتدأ الخطاب بكلمات كانت خاتمته كلمات تشكل قاعدة يقرأها الإمام عليه السلام بقوله (أَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنْ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِلُهُمْ مُعَاوِيَةُ وَمُؤَدِّبُهُمْ أَنْ النَّابِغَةُ)^(٣)، وقد يوجز في الخاتمة ما يمكن عده قاعدة في تعامله مع مخاطبيه^(٤).

وتتناسب الخاتمة مع بقية أجزاء خطاب الإمام عليه السلام، فيكون هذا التناسب ربطاً لأجزاء الخطاب، إذ ترتبط فيما بينها "ارتباطاً عضوياً يوفّر للموضوع وحدته"^(٥)، ولا سيما في خطابه الجهادي^(٦).

وفي معالجة الإمام عليه السلام لسمة الكبر - على سبيل المثال - يتّضح تناسب أجزاء الخطاب، حيث نجد مبتدأ خطابه قصيراً يشير فيه إلى تفرد الله عزّ وجلّ بالعزة والكبرياء، ثم يأتي بخطاب طويل تكثّر فيه العبر والدروس والأمثال، فمن تكبر إبليس عن الطاعة إلى التحذير منه، ومن طاعة الملائكة والأنبياء لله سبحانه إلى طاعته لله عزّ وجلّ ورسوله، ومن معصية إلى نعمة، حتى يختم خطابه بوصف الصّديقين وهو أولهم (سَيَمَاهُمْ سَيِّمَاتُ الصِّدِّيقِينَ وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ عُمَارُ الْأَيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُحْيُونَ سُدْنِ اللَّهِ وَسُدَّنِ رَسُولُهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْزُونَ وَلَا يَعْزُونَ وَلَا يَفُونَ قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ)^(٧)، وبهذا يكون نفي الاستكبار الذي نهى عنه في خطابه واختصّ به الله تعالى عند ابتداء الخطاب خير ما يختم به خطابه ليكون نموذجاً للاحتذاء به، فيكون الكبر سمة تجمع أجزاء الخطاب وتوضح مواقف عديدة بازاء هذه السمة.

(١) نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٦.

(٢) ينظر : الأسلوب : ١١٧.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٨٠، ص ٢٥٩.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

(٥) الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي : ٣٧٣.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٢٧، ص ٦٩.

(٧) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠٢.

ومثلها سمة الزهد حيث يبدأ الإمام عليه السلام خطابه بحمد الله وتعظيمه بما لا يمكن إدراكه حتى بإفراغ قلب وإعمال فكر، ثم ينتقل لتهوين الدنيا التي يرون ما فيها عظيماً في أعينهم، إذ يضع الإمام عليه السلام أمامهم الأنبياء الذين ذموا الدنيا ونذوها مبتدئاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومختتماً به ليصل إلى زهده بالدنيا، وموقفه منها فهو امتداد لموقف الأنبياء وتأسياً برسول الله ﷺ فيقول (وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ مِزْرَعَتِي ههْ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أ لَا تَنْبِذُ هه عَنْكَ فَقُلْتُ اغْرُبْ عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى)^(١).

فيكون المثل خير ما يختتم به الإمام عليه السلام خطابه، ويدل على ارتباط الخاتمة ببقية أجزاء الخطابة، مثلما كان دليلاً وحجة تقوي ذلك الخطاب.

(١) م.ن: خ ١٦٠، ص ٢٢٩.

أنواع الخطاب الرسالي

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم وجعله دستوراً لشرعية متكاملة شاملاً جميع نواحي الحياة ومناسباً لكل زمان ومكان، ولكون النبوة المحمدية هي الخاتمة، فقد اصطفى الله سبحانه وتعالى من أهل بيت النبي ﷺ قرآناً ناطقاً عن القرآن الصامت حافظاً للذكر بحفظ المعاني الحقيقية التي نزلت فيه مزيلاً للاختلاف.

إلا أن فترة التتكر لحقه بعد وفاة الرسول ﷺ، جعلت أمام الإمام مهام كثيرة، فخصّ جزءاً كبيراً من خطابه لإصلاح المجتمع وبناء الجماعة الصالحة، التي تتمسك بأهل البيت قدوة وتتبعهم قيادة، ولذا يتوجه الإمام في معظم خطبه لمخاطبيه^(١)، مشيراً ناصحاً هادياً حتى فيما كان يأمر به^(٢)، فليس على الإمام إكراههم بما جعله الله سبحانه وتعالى اختياراً.

ومن هنا فقد تنوع خطاب الإمام عليه السلام بحسب تنوع الموضوعات التي يطرقها^(٣)، فخطاب الإمام عليه السلام على ثلاثة أنواع

وهي (ديني، وسياسي، وجهادي)، إلا أنها جميعاً تتداخل فيما بينها ويوجهها

هدف الإمام عليه السلام في إصلاح الجمع وهدايتهم للحق، و يجمعها الطابع الديني، ويحد من الفواصل بين كل نوع، فالدين هو الأساس المنظم للمجتمع العربي وهو الدستور الشامل للحياة ومنه تستمد الأحكام والتعليمات المنظمة لحياة الجماعة الإسلامية.

(١) يقسم البحراني أنواع الخطاب بحسب أغراضها إلى ثلاثة أقسام -معتمداً على تقسيم أرسطو- إلى (مشاورة، مفاخرة، مشاجرة)، ويضع جلّ خطاب الإمام عليه السلام ضمن المشاورة، لكونه المقرر للشرعية والمثبت لها والموضح لمقاصد سنن الرسول صلى الله عليه واله وسلم والمفرع لأحكامها. ينظر : شرح البحراني : ٦٠-٥٥/١.

(٢) (إن الله أمر عباده تحذيراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً). نهج البلاغة :

قول ٧٧، ص ٤٨٠.

(٣) وهو ما قام عليه التقسيم الحديث للخطابة بحسب الموضوع، لا بحسب الزمن أو الغرض كما ساد عليه تقسيم أرسطو. ينظر : فن الخطابة : ص ٦٦.

الخطاب الديني

احتلّ الخطاب الديني الجزء الأكبر من خطاب الإمام عليه السلام، لكون الدين هو العقد الناظم للمجتمع والسبيل الأقوم لمعالجة الانحراف من جانب، ولارتباط الخطاب بخطب الجمع والأعياد، التي استمرت بعد وفاة النبي ﷺ مما جعل الخطابة "تتمتع بقُدسية خاصة" ^(١) من جانب آخر، ولذا كان خطاب الإمام عليه السلام دينياً في الأساس قبل أن ينحى منحى آخر فالإمامة قوام الشريعة ^(٢)، وأصل من أصول الدين، ويعد الإيمان بها ومعرفة حقها فرضاً واجباً تعظيماً لمنزلة مستحقها من جانب، وما يترتب عليه من الجزاء الأخروي من جانب آخر، لأنها هداية ربانية بأوامر ونواه جعلها الله سبحانه كسَلْم يرتقي الإنسان باتباعها إلى ما يوصله للكمال الإنساني الذي تتناسب درجته مع العلم والصلة الروحية بمصدره ^(٣)، فالإمامة ليست اقتداء وائتمام فحسب، بل هي رئاسة في أمور الدين والدنيا ^(٤).

وقد كان الخطاب الديني عند الإمام عليه السلام تثبيتاً لما جاء في كتاب الله شرحاً وتفصيلاً لآيات الله تعالى، وتعمقاً في معانيها، وبياناً لأحكامه، وتذكيراً بها ^(٥)، وإحياءاً للسنة بتذكيرهم بأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ودور النبوة الخالد في بناء الأمة الإسلامية، ولذا فقد كان الخطاب الديني للإمام عليه السلام دعوة إلى سبيل الله عز وجل، وهداية الناس بو عظهم ودعوتهم للعبادة الحق والعمل بأحكام الشريعة وتبصيرهم بأمور الدين، محاولاً بها خلق الوازع الديني في نفس الإنسان ليكون له

(١) الخطبة كنثر فني : ٩١.

(٢) خلق الله تعالى الإنسان وزوده بثلاث مقومات وهي (العقل، النفس، والبدن)، وجعل بالمقابل لهذه المقومات حاجات، تلبي كل واحدة منها نداء أحد المقومات وتغذيها وتحقق الغرض الذي خلقت لأجله وترمز إلى إنسانيته المتكاملة، وتوصله إلى الكمال والرشد الذي خص الإنسان بالوصول إليه وهي (الأفكار، الصفات، الملكات، والأعمال) على التوالي. وفي هذه الحاجات نزلت الشرائع والأديان لاستيعاب مكونات الإنسان وتغذية حاجاته، وأعطاه حرية الاختيار والسعي لتكميله من النواقص المادية والمعنوية، فكانت العقائد تهذب الإنسان فكراً وعقلاً وتبعده عن الجهل وتنير أمامه ضياء الحكمة والمعرفة، والأخلاق تهذب نفسه وتهديها إلى الصفات والملكات الفاضلة، والأحكام تهذب في علاقاته ومعاملاته وتنظم تعامله مع نفسه ومجتمعه وربه. ينظر : المظاهر الإلهية : ١٥-١٧.

ومن هنا فقد كان الخطاب الديني للإمام عليه السلام يدور حول هذه الأقطاب الثلاثة.

(٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) ينظر : المظاهر الإلهية : ٢٧/١.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ٨٥، ص ١١٦.

منها واعظ وزاجر، فلا يجد الشيطان له سبيلاً، لأن (مَنْ لَمْ يُعِنْ عَلَى فُسَيْهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَوْهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ)^(١).

وفي خطاب الإمام الديني دعوة عامة مستمرة إلى آخر الزمان للإيمان الحق الذي لا يقتصر على النطق بالشهادتين، بل يتجاوزها إلى تقوى الله وطاعته، وأداء الفرائض الواجبة^(٢)، فالإسلام لم يأت لأقوام دون سواهم ولا خص بالقران قوم دون غيرهم^(٣)، ودعوة الإمام عليه السلام دعوة لكافة الازمان، فالامم تحتذي مثال سابقتها^(٤).

كانت موضوعات الخطاب الديني متشابكة ومتداخلة فيما بينها ومتراصة بما لا يمكن الفصل بينها -إلا لأجل الدرس-، ولذا فقد تناول الخطاب الديني للإمام عليه السلام الموضوعات التالية:

وصف الدنيا والآخرة:-

خلق الله تعالى الإنسان (مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلَفَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُؤْتَلَفَةِ وَالْأَضْدَ إِذَا الْمُتَعَالِيَةِ وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرِّ دَوَابِّهِ وَالْجُمُومِ)^(٥)، وهو الأعلم بخلقه وبما سيكون عليه كل إنسان. إلا ان الله تعالى بعدله أراد أن يلقي الحجة إلى الخلق، فجعل الدنيا دار اختبار لهم لا دار مستقر وبقاء، لتأدية المهمة العبادية التي خلقوا لها^(٦)، والآخرة هي دار الحيوان^(٧)، ودار القرار^(٨)، وفيها المستقر والمقام والبقاء والدوام والجزاء والخلود، فإما طاعة لله جلّ وعز في الدنيا وجنة في الآخرة، وإما معصية في الدنيا ونار جديدها لا يبلى في الآخرة.

(١) نهج البلاغة : خ ٩٠، ص ١٢٣.

(٢) أصول الكافي : ٥٩/٢.

(٣) ينظر : م.ن : ٢١٥/١.

(٤) يخاطبهم الإمام عليه السلام بالقول (أَ لَسْتُمْ أَ بِلَاءِ الْقَوْمِ وَالْأَبَاءِ وَإِخْوَاهُمْ وَالْأَقْرَبَاءِ تَدُدُونَ أَمْثِلًا لَهُمْ وَتَكْبُونَ فِيهِمْ وَتَطُدُونَ بِهِمْ). نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١١١.

(٥) م.ن : خ ١، ص ٤٢.

(٦) في قوله تعالى ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) (سورة الذاريات/٥٦).

(٧) في قوله تعالى ((وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)) (سورة العنكبوت/٦٤).

(٨) في قوله تعالى ((يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار)) (سورة المؤمن/٣٩).

والدنيا والآخرة سبيلان مختلفان وعدوان متفاوتان^(٤)، فالدنيا كما يصفها الإمام عليه السلام بقوله (إِنَّ الثُّنْيَا رَنِقٌ^(٥) مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا^(٦) يُونِقُ مَنَظَرُهَا وَيُوبِقُ^(٧) مَخْبَرُهَا غُرُورٌ حَائِلٌ وَضَوْءٌ أَفِلٌ وَظِلٌّ زَائِلٌ وَسِدَنَادُمَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنَسَ لَفِيفُهَا وَاطْمَأَنَّ تَلَكُّرُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وَقَصَصَتْ بِأَحْبِلِهَا وَأَقَصَدَتْ بِأَسْنُهِمِهَا وَأَغَقَّتِ الْمَرْءَ أَوْ هَلَقَ الْمَذْيَةَ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَصْجَعِ وَوَدَّ شَيْءَ الْمَرْجِعِ وَمُعَايَنَةَ الْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ)^(٨)، ويحذّرهم الإمام عليه السلام منها لاختلاط الأمور فيها مخاطباً إياهم بالقول (وَأَحْذَرُكُمْ الثُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنَزِلُ قُلْعَةٍ وَلَيْسَتْ بِدَارٍ تُجْعَلُ قَدَتْ زَيْتٍ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزَيْتِهَا دَارٌ هَا هُنْتُ عَلَى رَهَّهَا فَحَطَّ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا وَخَرَّهَا بِشَرِّهَا وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا وَخُلُوُّهَا بِمُرِّهَا لَمْ يُصْنَفِهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ وَلَمْ يُصْنِ بِهَا عَلَى أَعْيَانِهِ)^(٩).

فما وجد في الدنيا من أموال وبنين لا يعدو كونه فتنة وابتلاء^(١)، فالمال والبنون حرث لها (وَلَيْسَ الْمَتَجَرُّ أَنْ تَرَى الثُّنْيَا لِفَيْكِكَ ثَمَنًا وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضًا)^(٢)، وأما الآخرة فحرثها العمل الصالح، (وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ)^(٣)، فالمضادة بين الدارين "نوع من المضادة بين الناقص والكامل"^(٤).

ولذا يحذّرهم الإمام بتذكيرهم بآيات الله سبحانه^(٥)، فإن الدنيا دار ابتلاء (فَمَا أَخْذُوهُ مِنْهَا لَهَا أَخْرَجُوا مِنْهُمُوسِبُوا عَلَيْهِ وَمَا أَخْذُوهُ مِنْهَا لِغِيٍّ هَا قَهْمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفْيَاءِ الظِّلِّ بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغًا حَتَّى قُلُوصَ وَزَائِدًا حَتَّى قُصَ)^(٦)، فهذا التحذير "هو القدر الجامع

(٤) ينظر : نهج البلاغة : قول ١٠٣، ص ٤٨٦.

(٥) رَنِقٌ : كدر.

(٦) رَدِغٌ : كثير الوطن والوحل، والمشرع : مورد الشاربة للشرب.

(٧) يُوبِقُ : يهلك.

(٨) نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١٠٨.

(٩) م.ن : خ ١١٣، ص ١٦٧.

(١) ينظر : نهج البلاغة : قول ٩٣، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٢) م.ن : خ ٣٢، ص ٧٥.

(٣) م.ن : خ ٢٣، ص ٦٥.

(٤) في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، الدار الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ : ١٨٤.

(٥) نهج البلاغة : قول ٩٣، ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٦) م.ن : خ ٦٣، ص ٩٤.

ولم يكن تحذير الإمام عليه السلام لأمر غير قائم، فقد تحول الناس عن زمن النبي ﷺ إلى الرغبة في الدنيا و الرضا بها داراً ومنزلاً، وقد نهى الله سبحانه عن الرضا بهذه الدنيا داراً، فقد أيقظت الفتوحات نفوس المسلمين بمظاهر الترف التي اطلّعو عليها^(٨)، من زينة وقصور وجنان، شغلت تفكيرهم وحوّلتهم عمّا وعدهم الله تعالى به من جنان في الآخرة إلى حصر تفكيرهم في الدنيا، ولذا فقد تأثرت مصالحهم بسياسة الإمام عليه السلام وبدا منهم السخط بازائها لذا كان يقول الإمام عليه السلام (إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَوَّهَهَا وَتَرْتَفِعُ فِيهَا وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَنَازِلِكُمْ إِلَيَّ خُلِفْتُمْ لَهَا وَلَا إِلَيَّ يُعِينُ إِلَيْهَا إِلَّا وَاتِّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَقْوَنَ عَلَيْهَا وَهِيَ وَإِنْ عَوَّتُكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْتُكُمْ شَوْهًا فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا)^(٩).

ولذا يحذر الإمام عليه السلام من الدنيا بذمها، ويسعى إلى تنفيرهم منها^(٤)، ويوصيهم بالقول (أوصيكم بالرِّفْضِ لِهِنَّ الشَّيْءُ التَّارِكَةُ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُدُوا تَرْكَهَا وَالْمُلِيَّةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجَرِيدَ هَفَائِمًا مَثَلَكُمْ وَمَثَلَهَا كَسَفَرٍ سَلَكَوا سَبِيلًا فَكَانَتْهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ وَأَمْوَا عِلْمًا فَكَانَتْهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَلِيَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَأْبُهَا وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ

(٤) ينظر: م.ن: خ ١١٣، ص ١٦٧.

لَهُمْ يَوْمَ لَا يَعْبُدُونَ وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِّنَ الْمَوْتِ يَدْعُوهُ وَمُزَعِّجٌ فِي الشُّبَّاءِ حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا^(٥).

ومن هنا فالدنيا دار يبتلي فيها الله خلقه ليقيم الحجة عليهم، ويكشف ما هو اعلم به منهم، ويصف ذلك الإمام بقوله (أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخُفُوفَ كَشْفَةً لَا أَذُّهُ جَهْلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَّصُونٍ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونٍ ضَمَائِرِهِمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً وَالْعِقَابُ بَوَاءً)^(١).

أما الآخرة فإنها الغاية التي تقابل ما عمل الإنسان بالجنة والنار جزاءً (فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ السَّابِقِينَ وَالنَّارُ عَلَيْهِ الْمُفْرِطِينَ)^(٢)، فإن كان ترك الشهوات والأهواء والعمل بطاعة الله حاله في الدنيا فالجزاء هو الجنة^(٣)، أما النار فهي مثوى المتكبرين، فالمتقون هم من (أَرَادْتَهُمُ الشُّبَّاءَ فَلَمْ يَرِ يُوْهُ وَأَسْرَتْهُمْ فَقَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا)^(٤).

ومن هنا يأتي خطاب الإمام عليه السلام تشويقاً لما أعدَّ الله تعالى من ثواب وتخويفاً من عقابه بذكر ما بعد الموت والبعث وتحذيرهم من هول الصراط ومزالقه وما ينتظر الإنسان في الآخرة من جزاء، ولذا قال الإمام عليه السلام في وصف الدنيا والآخرة (إِنَّهَا الشُّبَّاءُ دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَأَخْرِجُوا مِنَ الشُّبَّاءِ قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ فَفِيهَا اخْتَبِرْتُمْ وَلَمْ تَعْرِ هَلْ خَلَقْتُمْ إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَرَّمْتُمْ اللَّهُ آبَاءَكُمْ فَقَدِمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً وَلَا تَخْلِفُوا كُلًّا فَيَكُونَ قَرْضاً عَلَيْكُمْ)^(٥).

وللآخرة مواقف كثيرة لا موقف واحد عليهم تذكرها والتفكير بها، والعمل لأجلها لا للدنيا، ولذا كان الإمام عليه السلام يأمرهم بالتجهز للآخرة بقوله (تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُذِيهِ فَيْكُم بِالرَّحِيلِ وَأَقْلُوا الْعُرْجَةَ عَلَى الشُّبَّاءِ وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَدَتْ صُوتُكُمْ مِنْ الزَّادِ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَثُوداً وَمَلَزَلٌ مَخُوفَةٌ مَهُولَةٌ لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ وَدَعْلَاهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَ هَا)^(١)، لا سيما البعث بعد الموت حيث يخرجهم الله تعالى (مِنْ ضُرَائِحِ الْقُبُورِ وَأَوْكَارِ

(٥) م.ن: خ ٩٩، ص ١٤٤.

(١) نهج البلاغة: خ ١٤٤، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) م.ن: خ ١٥٧، ص ٢٢١.

(٣) ينظر: م.ن: خ ١٧٦، ص ٢٥١.

(٤) م.ن: خ ١٩٣، ص ٣٠٤.

(٥) م.ن: خ ٢٠٣، ص ٣٢١-٣٢٠.

(١) نهج البلاغة: خ ٢٠٤، ص ٣٢١.

الطُّيُورَ وَأَوْجِرَةَ السِّبَاعِ وَمَطَارِحَ الْمَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَاذِهِ رَعِيلاً صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفاً يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَيُسْمِعُهُمُ اللَّاعِي عَلَيْهِمُ لَبُوسُ الْإِسْتِكَائَةِ وَضُرُّعُ الْإِسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ قَدْ ضَلَّتِ الْحِيلُ وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ وَهَوَّتِ الْأَفِيدَةُ كَاطِمَةً وَخَفَّتِ الْأَصْوَاتُ مَهْنِمَةً^(٢)، فالجميع يخرجون في الآخرة حينذاك لموافاة الجزاء ثواباً كان أم عقاباً.

وتختلف موازين الآخرة عن موازين الدنيا، فإن (مَا قَصَّ مِنْ الثُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ حُجْرٌ مِمَّا قَصَّ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الثُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاحٍ وَمَرٍ يَدْخُلُ سِرٍّ)^(٤)، ولذا يحذرهم الإمام عليه السلام من اتخاذ ما يروونه في الدنيا ميزاناً للحكم على الإنسان بقوله (لَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتُهُ التَّقْوَى وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعْتُهُ الثُّنْيَا وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا وَلَا تَسْمَعُوا لَطِيقَهَا وَلَا تُجِيبُوا كَلِمَتَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا وَلَا تُفْتَدُوا بِأَبْغَاقِهَا فَإِنَّ بَرَقَهَا خَلْبٌ وَنُطْقَهَا كَذِبٌ وَأُمُورُهَا مَحْرُوبَةٌ وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ)^(٥)، ومثلها موازين الآخرة، فجنة الآخرة ليست كجنة الدنيا ولا نارها كذلك^(٦)، إذ يقول الإمام عليه السلام (الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَهِيدٌ يَمِينٌ هُوَ جَرَحاً بِالْمُدَى وَلَا ضَرْباً بِالسَّيَاطِ وَلَكِنَّهُمْ مَا يُسْتَصَدُّ ذَلِكَ مَعَهُمْ)^(٧).

ويحاول الإمام عليه السلام بخطابه الارتقاء بتفكير الخلق عما يروونه من أسباب النعم الدنيوية التي شغلته عن التفكير والشوق إلى نعيم الآخرة، فجعلتهم يأمنون عقاب الله تعالى، ويمنون عليه بطاعتهم، وهو ما أنبأ عنه رسول الله ﷺ في حديثه عن الفتنة^(١)، حيث انهم نسوا ما ذكروا به، وأمنوا ما حذروا منه من عذاب الله بما أمهلهم في الدنيا، فتاه عنهم الرأي وتشنت عليهم الأمر، حتى نسوا الآخرة.

ولذا يحاول الإمام عليه السلام لفت أنظار مخاطبيه وإثارة انتباههم للتبصّر في خلق جميل واحد من خلق الله تعالى وهو الطاووس مما لا يملكه إلا الملوك وعجزهم عن وصف جماله لينقلهم إلى معرفة ما لا تراه أعينهم في الجنان، ويحاول الإمام عليه السلام توصيل ذلك للارتقاء بهم

(٢) مهينة : متخافية، والهيئة : الكلام الخفي.

(٣) نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) م.ن : خ ١١٤، ص ١٧٤.

(٥) م.ن : خ ١٩١، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٨٣، ص ٢٦٧.

(٧) م.ن : خ ١٧٦، ص ٢٥٥.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٥٦، ص ٢٢٠.

إلى تخيل عالم آخر^(٢)، وذلك التخیل للتقليل من هيمنة العالم المادي عليهم وما يرونه فيه، وإلى التفكير بما أعدّ الله للمطيعين مما لا تصل إليه الأذهان، وللارتفاع عن وصف الله سبحانه وتعالى وتصويره بأذهانهم فهو الذي صور كل شيء فأحسن تصويره^(٣)، لذا يقول الإمام عليه السلام (لَا تَلَأُ لَهُ الْأَوْهُمُ فَتَقْدَرُهُ وَلَا تَتَوَهَّمُ لَهُ الْفِطْنُ فَتُصَوِّرُهُ وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحَسِّسُهُ وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْبَى فَتَمَسُّهُ وَلَا يَتَّعِزُّ بِحَالٍ وَلَا يَتَبَلَّى فِي الْأَحْوَالِ وَلَا تُؤْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ)^(٤).

توضيح العلاقة الصحيحة للإنسان بالدنيا :-

سعى الإمام عليه السلام إلى ترغيبهم في عمل الدنيا وحثهم على الإسراع فيه والتزود منها بزيادة التقوى، إلا أنه في الوقت نفسه عمل على تنفيرهم من الدنيا وتحذيرهم من عواقبها وترغيبهم في خير الآخرة وجزائها الذي يترتب على سعي الإنسان في الدنيا، فدعاهم الإمام عليه السلام إلى الزهد بالدنيا، فالدنيا دار ممر لا مقر^(٥)، وحال الإنسان فيها كمن كان على سفر إذ لا بد له من العودة إلى دار البقاء والإقامة، ولكن بناءً على ما قدمه في سفره لا بمعزل عنه.

ولم تكن بغية الإمام عليه السلام منع الإنسان من نعم الله عز وجل، أو حرمانه من الطيبات فيها^(٦)، بل أراد صرفهم عن الاغترار بالدنيا والتشديد على نظرة الإنسان للدنيا والعلاقة التي تربطه بها، فالدنيا (سُرُورٌ هُمْ مَشْتَوِبٌ بِالْحُزْنِ وَجَدُّ الدَّرَجَالِ فِيهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ فَلَا يَغُرَّتْكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا)^(٧)، فذم الإمام عليه السلام للدنيا هو "ذم العلاقة القلبية الموجبة لأسر الإنسان بيد الدنيا ومن في يده شيء منها"^(٨)، لا ذم الدنيا نفسها، فالدنيا محل تكريم الله عز وجل، وهي مسجد أحبائه ومصلى ملائكته ومهبط وحيه، ومتجر أوليائه، وهي

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٦٥، ص ٢٣٨.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٦٣، ص ٢٣٣.

(٤) م.ن : خ ١٨٦، ص ٢٧٤.

(٥) ينظر : م.ن : قول ١٣٣، ص ٤٩٣.

(٦) في قوله تعالى ((قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق))

(الأعراف/٣٢).

(٧) نهج البلاغة : خ ١٠٣، ص ١٤٨-١٤٩.

(٨) في رحاب نهج البلاغة : ١٧٤.

دار صدق وعافية و غنى وموعدة، ولكن لمن نظر إلى حقائقها ولم يخدع بأباطيلها^(٤).

فمن اغترّ بالدنيا وهو يرى مصارع أهله فيها فلم يتذكر ولم يتعظ، ولم يذكره بلاؤها ببلاء الآخرة، ولم يشوقه سرورها إلى سرور الآخرة^(٥)، فإنه سيتحول إلى عبد مملوك للدنيا يعشق مباحها بعد أن خلقه الله حراً طليقاً من القيود وأخلص طاعته وعبادته لله تعالى، ولذا يحذر الإمام عليه السلام من ذلك بقوله (وَمَنْ عَاثَقَ شَيْئاً عَاثَقَ بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بَعْنِي عَوْصِيحَةٍ وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ عَوْسَمِيَةٍ قَدْ خَوَّاتِ الشَّهَوَاتِ عَقْلَهُ وَأَمَاتِتِ الْفُتَا قَلْبَهُ وَلِهَتْ عَلَيْهِ أَفْسُدُ فَهُوَ عَابِلُهَا وَلَمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا حَتَّى زَالَتْ زَالَ إِلَهِهَا وَحَتَّى مَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا لَا يَذَرُجُ مِنْ اللَّهِ بِزَاجِرٍ وَلَا يَنْعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ)^(١)، ولذا ورد قول الرسول ﷺ (الهُوى أبغضُ إليه عبد على وجه الأرض)^(٢).

والدنيا لا تكذب على الإنسان ولا تغرّه، فله فيها من المواقف ما يكفي ليراهها على حقيقتها، ولكن الإنسان هو المغترّ بها المتغافل عن عظاتها، المتناسي لتذكيرها، ولذا يقول الإمام عليه السلام (وَحَقّاً أَقُولُ مَا أَتُفِي عَوَّتِكَ وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ وَلَقَدْ كَاثَفْتُكَ الْعِظَاتِ وَأَذْتُكَ عَلَى سَوَاءٍ وَلَهِيَ بِمَا تَعُوكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْفِكَ أَوْ تَعْرِكَ وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُنْتَهَمٌ وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكْذَبٌ وَلَيْسَ تَعْرِفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَلَوِيَّةِ وَالرُّبُوعِ الْخَلِيَّةِ لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذَكِيرِكَ وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ وَالشَّحِيحِ بِكَ وَلَنِعَمَ دَارٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً وَمَحَلٌّ مَنْ لَمْ يُوطِّنْهَا مَحَلّاً)^(٣).

وفي تزهيد الإمام عليه السلام لمخاطبيه بالدنيا "دعوة إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق"^(٤)، وحثهم على التقوى والعمل الصالح فيها دون اللهاث وراء أحلام كاذبة وأباطيل زائفة فيها لا واقع لها، وذلك بغية

(٤) ينظر : نهج البلاغة : قول ١٣١، ص ٤٩٢-٤٩٣.

(٥) ينظر : م.ن : قول ١٣١، ص ٤٩٢-٤٩٣.

(١) نهج البلاغة : خ ١٠٩، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) ينظر : شرح البحراني : ٤٣٢/١، وفي ذلك قوله تعالى ((أفأريت من اتخذ إلهه هواه))

(الجاثية/٢٣).

(٣) نهج البلاغة : خ ٢٢٣، ص ٣٤٥.

(٤) حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام : ٤٧.

تقويتهم على مواجهة الحياة بعد أن أصبح المجتمع متغافلاً عما ينتظره من مصير ومقبلاً على الثراء والطمع والاستزادة، واتباع الأهواء والشهوات التي عثها القرآن الكريم مداخل للشيطان^(٥)، ففي دعوته للزهد تغليب للنزعة الروحية عند الإنسان على النزعة المادية^(٦).

ولذا يحاول الإمام عليه السلام تزهيدهم في الدنيا بالنظر إليها (قَالَ الزَّاهِدُ فِيهَا الصَّافِي عَنْهَا)^(١)، على أن يكون ذلك الزهد نية قلبية لا لباساً يتزين به^(٢)، فالزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة (تَكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا وَيَسْتَنْدُ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرَحُوا وَيَكْثُرُ مَفْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اغْتَبَطُوا بِمَا رَزَقُوا)^(٣).

ولذلك فقد جمع الإمام عليه السلام الزهد كله بين كلمتين من القرآن^(٤) تحثان الإنسان على العمل في الدنيا، وانتظار الجزاء في الآخرة، لذا يذكرهم الإمام عليه السلام بآثار الأولين ويبصّرهم بآبائهم الماضين ليعتبروا بهم في الدنيا بعد أن يزهدهم بها قائلاً (لَا تَلَفْسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرَها وَلَا تَعْجَبُوا بِزَيْتِهَا وَنَعِيمِهَا وَلَا تَجَزَعُوا مِنْ ضَرَائِهَا وَبُؤْسِهَا فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَها إِلَى انْقِطَاعٍ وَإِنْ زَيْتُهَا وَنَعِيمُهَا إِلَى زَوَالٍ وَضَرَاءُها وَبُؤْسُهَا إِلَى فَاِدْوَكُلٍّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءِ وَاِدْوَكُلٍّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَاِلْمِ)^(٥)، فدعوة الإمام عليه السلام للزهد دعوة إلى سلامة القلب بإفراغه لعمل الآخرة^(٦)، وإلى خلق حالة من التوازن عند الإنسان بين الدنيا والآخرة^(٧)، كي لا تكون الدنيا قيداً يكبل الإنسان فيكون عبداً لها^(٨).

(٥) ينظر : البيان في مداخل الشيطان، عبد الحميد البلالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٩٨٦ : ٥٠-٥١.

(٦) ينظر : فلسفات إسلامية، محمد جواد مغنية، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٨ : ٣٤٣.

(١) نهج البلاغة : خ ١٠٣، ص ١٤٨.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٣٢، ص ٧٥.

(٣) م.ن : خ ١١٣، ص ١٦٨.

(٤) يقول الإمام علي عليه السلام (الزهد كله بين كلمتين من القرآن : قال الله سبحانه ((لكيلا تأسوا على ما فاتكم. ولا تفرحوا بما أتاكم)) ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد اخذ الزهد بطرفيه). نهج البلاغة : قول ٤٣٩، ص ٥٥٣-٥٥٤، (سورة الحديد/٢٣).

(٥) م.ن : خ ٩٩، ص ١٤٤-١٤٥.

(٦) ينظر : أصول الكافي : ٤٠/١.

(٧) ينظر : دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، ط٤، ٢٠٠١ : ٣٨٥.

(٨) الزهد في الدنيا صفة مدحها رسول الله ﷺ (من زهد في الدنيا أثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه سالماً إلى دار القرار). تحف العقول عن آل الرسول ﷺ : ٥٨.

الدعوة إلى عبادة الله:-

العبادة سلوك ينهجه الإنسان في الدنيا لتأدية المهمة التي خلق من أجلها الإنسان^(١)، وهي "سلسلة من المراسم والطقوس والتقاليد والعادات والآداب والتعاليم"^(٢)، التي يقوم الإنسان بتأديتها في الدنيا لنيل الجزاء عليها في الآخرة، إلا أنها وإن كانت أفعالاً جسدية، فهي كمالات روحية تطهر القلب من الأمراض التي تصيبه من نفاق وحسد...، وتخلق لدى الإنسان القدرة على مواجهة الذنوب والتخلص من الرذائل ولكن على قدر معرفته ببواطن تلك العبادات وصلته الروحية بها، فالعبادة علاقة الفرد بخالقه عز وجل "لأنها علاقة العبودية المطلقة، من حيث الطاعة والامتثال"^(٣) بازاء الربوبية.

والعبادة يقظة للإنسان وانتباهة له، وسلوك له في دار الدنيا يبعده عن الغفلة فيها من خلال الاشتغال بطاعة الله تعالى، وذلك بذكر الله وتناسي ما سواه والعمل للآخرة، فقد جعل الله تعالى الذكر (جِلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْفَةِ^(٤) وَتُصِرُّ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ^(٥) وَتَنْقُأُ بِهِ بَعْدَ الْمَعَانِدَةِ^(٦))، فذكر الله تعالى يجلي القلب وينقي السريرة ويجعلها تصفو لربها، فلا تتشاغل عن موعظة.

أما الانقطاع عن عبادة الله عز وجل فإنه ينسي الإنسان نفسه^(٧)، فالعبادة تجعل الإنسان ينتبه إلى نفسه ويشعر بنقصها وافتقارها فيعرف فيها معنى العبودية لله عز وجل، ومن عرف تمام العبودية والنقص في نفسه عرف الربوبية، ووصل إلى معرفة الله تعالى معرفة قلبية، ومن ثم ستكون عبادة الإنسان خالصة لله عز وجل فيتحرر من كل ما سواها من مصائد الشرك بالله، "فالعبودية له هي الحرية، وفقدان الشخصية فيه هو وجدان للشخصية الواقعية"^(٨).

(١) في قوله تعالى ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) (سورة الذاريات/٥٦).

(٢) في رحاب نهج البلاغة : ٦٣.

(٣) ظاهرة القسم في القرآن الكريم، فارس علي، أنوار الهدى، قم، ط ١، ١٤١٤ هـ : ٤٦.

(٤) الوقفة : ثقل في السمع.

(٥) العشوة : ضعف البصر.

(٦) نهج البلاغة : خ ٢٢٢، ص ٣٤٢.

(٧) في قوله تعالى ((نسوا الله فأنساهم أنفسهم)) (سورة الحشر/١٩).

(٨) في رحاب نهج البلاغة : ١٩٥.

وقد اختار الله سبحانه وتعالى من خلقه أئمة عبدوا الله تعالى حق عبادته فجعلهم قوامه على خلقه وعرفاءه على عبادته^(٢)، بعد ان علم منهم العبودية المطلقة التي كانوا يتفاضلون بها^(٣)، وبمعرفتهم معرفة كاملة يتم إيمان المرء وتكون عبادته صادرة عن قلب سليم، ويمكن تلمس تلك العبودية عندهم من خلال الأدعية والمناجاة التي يتوجهون بها إلى الله سبحانه وتعالى لا بقصد تعليم الناس وتوجيههم فحسب - وإن كان هذا يشكل جانباً أساساً - بل كانت تلك الأدعية تعبيراً عن المدى الذي وصلوا إليه في معرفتهم لله عز وجل.

وقد دلّ الله عز وجل عباده على عبادته بفرائض جعلها سبحانه وسائل موصلة للعبادة الحق^(٤)، وأمر بتأديتها في مهمته العبادية لما لتلك العبادة من اثر تربوي وروحي في الهداية إلى الإيمان بالله تعالى، ولذا يذكرهم الإمام عليه السلام بها بالقول (إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُ وَنَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجَهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ يُؤَوِّدُ الْإِسْلَامَ وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مِّنَ الْعِقَابِ وَحُجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ^(٥) الذَّنْبَ وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ الشُّوْءِ وَصَدَقَةُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ)^(٦).

ومثلها الدعاء الذي أمر تعالى به ففيه إشعار للإنسان بعبوديته وافتقاره في كل أمر لله عز وجل وتقوية ارتباطه به وتوجهه إلى الله تعالى بسد ذلك النقص من فيض جوده وعطائه وما يغمر به العبد عند توجهه للسؤال وعلى قدر توجهه^(٧)، ولذا فقد كان الإمام عليه السلام يختم بعض

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٥٢، ٢١٢.

(٣) يقول الإمام زين العابدين (علي بن الحسين) عليه السلام (عبادتي عند جدي كعبادة جدي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه واله وسلم). شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ٢٠/١.

(٤) قال أمير المؤمنين عليه السلام (ولا عبادة كأداء الفرائض). نهج البلاغة : قول ١١٣، ص ٤٨٨.

(٥) يَرْحَضَانِ : يَغْسِلَانِ.

(٦) نهج البلاغة : خ ١١٠، ص ١٦٣.

(٧) قال تعالى ((ادعوني استجب لكم)) (سورة غافر/٦٠)، وقال تعالى ((وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي)) (سورة البقرة/١٨٦).

خطبه بالدعاء^(٣)، أو يكون جلّ خطابه دعاء يتوجه به لخالقه كما في خطاب الاستسقاء^(٤).

الدعوة إلى تقوى الله:-

إن تقوى الله تباك وتعالى "قوة روحية تتولد للإنسان من التمرين العملي الذي يحصل من الحذر المعقول من الذنوب"^(٥)، وتبدأ بإشعار القلب بها^(٦)، وتكرار الحذر بالتمرين والممارسة لتحويل تلك القوة إلى ملكة أصيلة تمكن الإنسان من امتلاك زمام نفسه، ولذا غالباً ما تكون تقوى الله عز وجل أول ما يدعوهم إليه الإمام عليه السلام عند اعتلائه المنبر^(٧)، فالتقوى أقوى موجه للإنسان بسيطرته على ذاته ومراقبتها واجتناب الذنوب والمعاصي والحذر من تبعاتها الدنيوية والأخروية، إذ (أَنَّ النَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُمْ وَلَا يُحَرِّزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ إِلَّا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا وَبِالْيَقِينِ تُدْرِكُ الْعِلْيَةُ الْقُصْوَى)^(٨). ولذا يوصي الإمام عليه السلام بالتقوى (فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقُّكُمْ وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهِ بِإِلَهِكُمْ وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ)^(٩)، وبالتقوى تستقيم الأقوال والأفعال، وبها تقبل الأعمال، ومن هنا يحث الإمام على العمل بجِد^(١٠)، والسعي في الدنيا والابتعاد عن اللهو واللعب^(١١).

ولكن على الإنسان أن ينتبه قبل العمل (يَعْلَمُ أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَا هُفَايُنْ كَأَن لَّهُ مَضَى فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَدُّ هُفَايُنِ الْعَامِلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ فَلَا يَزِيهِ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ فَلْيَنْظُرْ نَظِيرُ أَسَائِرٍ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ)^(١٢)، فالعمل لا يقبل إلا بعد العلم بصحته، ولا يعرف ذلك إلا بالتمسك بالسبيل الموصل للتقوى وهو الإمام عليه السلام، فان التقوى (لَهَا دَبْلٌ

(٣) ينظر: نهج البلاغة: خ ٩١، ص ١٣٥-١٣٦.

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٤٣، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٥) في رحاب نهج البلاغة: ١٣٦.

(٦) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٣٢، ص ١٩٠.

(٧) ينظر: م.ن: قول ٣٧٠، ص ٥٤٠.

(٨) م.ن: خ ١٥٧، ص ٢٢١.

(٩) نهج البلاغة: خ ١٩١، ص ٢٨٤.

(١٠) ينظر: م.ن: خ ١٧٦، ص ٢٠٢.

(١١) ينظر: م.ن: خ ٨٦، ص ١١٦.

(١٢) م.ن: خ ١٥٤، ص ٢١٦.

وَتَقْوَى اللَّهِ تَجْمَعُ الْخَيْرَ كُلَّهُ، فَهِيَ مَا تَمَيَّزَ بِهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ، وَبِهَا النِّجَاةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنِيْلُ الدَّرَجَاتِ، وَعَلَى أَسَاسِهَا تَقُومُ الْمَفَاضِلَةُ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالتَّقْوَى هِيَ الزَّادُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّزَوُّدِ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَى حَسَنِ الْعَاقِبَةِ فِي الْآخِرَةِ فَهِيَ (الزَّادُ أَدْوَبُهَا الْمَعَادُ) ^(٦)، وَلَا خَيْرَ فِي زَادِ سِوَاهَا.

وَلِذَا يَحْتَثُّهُمْ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى التَّقْوَى بِوَصْفِهَا وَبِوَصْفِ مَنْ أَرَادَ التَّخَلُّقَ بِهَا تَارَةً ^(٧)، وَبِوَصْفِ مَنْ لَازَمُوهَا فَأَصْبَحُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ تَارَةً أُخْرَى ^(٨)، فَفِي تَقْوَى اللَّهِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ ^(٩)، وَمِنْهَا يَسْتَمِدُّ الْإِنْسَانُ قُوَّتَهُ لِلْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ وَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ ^(١٠)، وَلِذَا تَقْتَرِنُ دَعْوَتُهُمْ لَتَقْوَى اللَّهِ بِالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، فَلَا سَبِيلَ لِلتَّزَوُّدِ بِهَا إِلَّا بِالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَلِذَا نَجِدُ تَشْدِيدَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى دَعْوَةِ مُخَاطَبِيهِ إِلَى الزَّهْدِ بِالدُّنْيَا فَ (الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ) ^(١١)، بِحَثِّهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَالْإِنْتِهَاءَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، فَفِي اجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْوُصُولُ إِلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي تَعْدُ ضَالَّةَ الْمُؤْمِنِ ^(١٢)، إِذْ لَا يُمْكِنُ اتِّخَاذُهَا دَلِيلًا عَلَى تَقْوَى الْإِنْسَانِ، وَلِذَا يُوصِيهِمُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقَوْلِ (لَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتُمْهُ التَّقْوَى وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعْتُمْهُ الشُّيَا) ^(١٣).

الدعوة إلى طاعة الله :-

طاعة الله هي الخضوع لله عز وجل، وامتنثال أوامرهِ واجتناب نواهيه للخروج من ذل المعاصي إلى عز الطاعة، ولذا فقد قال الإمام عليه

^(٥) م.ن : خ ١٩٠، ص ٢٨١.

^(٦) م.ن : خ ١١٤، ص ١٦٩.

^(٧) ينظر : م.ن : خ ٨٣، ص ١١١.

^(٨) ينظر : م.ن : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

^(٩) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٨، ص ٣١٢.

^(١٠) ينظر : السياسة الإدارية في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بين الأصالة والمعاصرة، خضير كاظم، ١٩٩٩ : ١٣.

^(١١) نهج البلاغة : خ ٨١، ص ١٠٦.

^(١٢) ينظر : شرح البحراني : ٤٥/٢.

^(١٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩١، ص ٢٨٤.

السلام (من أراد عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، وغنى بلا مال، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته) ^(٦).

ولذا يَبْه الإمام عليه السلام الإنسان إلى ما خلق الله تعالى له من جوارح وأعضاء وأدوات يستخدمها في شبابه قبل هرمه وفي حياته قبل مماته ^(٧)، وهي في الوقت نفسه تنطق شاهدة على عمل الإنسان في يوم الحساب الذي تفحص فيه الأعمال وتجازى به الأفعال، ليؤدي حق هذه النعم في العمل بطاعة الله سبحانه، فالدنيا عمل والآخرة جزاء، ولذا يذكرهم الإمام عليه السلام (اعْمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ عَلَيْكُمْ رَصْدًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَغُيُونًا مِنْ جَوَارِحِكُمْ وَحُقَاقٍ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلُمَةٌ أَلِيٌّ دَاجٌ وَلَا يَكُنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِثَاجٍ وَإِنْ غَا مَنِ الْيَوْمَ قَرِيبٌ) ^(٨)، ولا سبيل إلى طاعة الله جل وعلا إلا بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والوصي عليه السلام الذي قرن الله طاعته بطاعته ^(٩)، لكونه طريق الحق الذي لا يخرج من هدى ولا يقود إلى ضلالة.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الولاية فرضاً واجباً على العباد لتعريفهم بمنزلة المطيعين لله تعالى حق طاعته، وهم ولاية الأمر عليهم السلام من جانب، وللإنعام على الخلق بدليل يجسد صفات الحق ويسير بطريقه ليوصلهم إلى الكمال الذي خلقوا له من جانب آخر، فإن الله سبحانه قد (بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهَا وَبَ أَنْتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لِمُؤَلَّرُجُوعِ إِيَّاهِ) ^(١٠)، لذا فإن الطاعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ذمروا الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن) ^(١١).

وتتجسد طاعة الله عز وجل في التسليم له، فالإسلام الحق هو التسليم لأمر الله عز وجل بعدم إصدار حكم مع حكم الله تعالى ذكره ^(١٢)، أو

^(٦) انساب الأشراف : ١١٣. يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله من نقله الله من ذل المعاصي إلى عز الطاعة أغناه بلا مال أعزّه بلا عشيرة وأنسه بلا أنيس). تحف العقول عن آل الرسول : ٥٧.

^(٧) نهج البلاغة : خ ٨٣، ١١٠.

^(٨) نهج البلاغة : خ ١٥٧، ص ٢٢٢.

^(٩) في قوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم)) (سورة النساء/٥٩).

^(١٠) نهج البلاغة : خ ١٥٢، ص ٢١٢.

^(١١) أصول الكافي : ٤٣/٢.

^(١٢) في قوله تعالى ((لا يشرك في حكمه أحداً)) (سورة الكهف/٢٦).

سبقه بحكم^(٦)، أو التعقيب على حكمه^(٧)، ولذلك فقد جعل الله تعالى طاعة الإمام عليه السلام تجسيدا لطاعة الله عز وجل وتعبيراً عنها، فالإمام عليه السلام حجة الله تعالى ذكره التي احتج بها على عباده، وما مروق الخوارج إلا دليلاً حياً على عدم الطاعة لله بمحاولة سبق الإمام برأيهم – وإن ندموا عليها فيما بعد- ظناً منهم أنهم أعلم منه، واسبق إلى معرفة كلام الله، وتطبيق آياته وأحكامه، الأمر الذي جرّهم إلى الابتعاد عن الكوفة، وما تبع ذلك من مبتدعات تشديداً "على مروقهم النفسي عن التمسك بمحاسن التجمع السياسي والتظافر العسكري والاجتماعي بين المسلمين"^(٨)، على الرغم من محاجبات الإمام عليه السلام لهم ومحاولاته لإرجاعهم^(٩).

ومن هنا نجد تشديد الإمام عليه السلام على الطاعة ونهيهم عن الكبر^(١٠)، وتكراره في خطابه التنبيهي (عباد الله) لتذكيرهم أنهم عباد لله محاولاً إلغاء الكبر في نفوسهم، وعندما لا يجدي ذلك نفعاً يحثهم على ترك التكبر عن عبادة الله بخطب كاملة يحاول بها استئصال هذه السمة منهم، ويذكرهم بما قابلت قريش به رسول الله ﷺ فما نهجهم إلا امتداد لنهج سابقهم، وما التكبر عن طاعة الإمام عليه السلام إلا امتداد للتكبر عن طاعة الرسول ﷺ انقياداً لإمام المتكبرين إبليس^(١١).

ولذا فقد نهى الإمام عليه السلام المسلمين عن القول بالرأي^(١٢) -فقد كان أول الفتن كلاماً-، الأمر الذي كان سبباً رئيساً في اختلاف الناس^(١٣)، فلم تكن آراؤهم قليلة أو في مسائل عامة، بل كانت آراء عدة تجمعها مجالس^(١٤)، وتتناقلها أفواه تدعي المعروف وتضمر المنكر، ممّا له مساس بأمور العقيدة التي لا علم لأحد بها سوى من عيّنه الله تعالى ولياً لأُمور المسلمين بعد النبي محمد ﷺ، ولذا كان الإمام عليه السلام يحتاج الفرق ويفند أقوالها وافتراءاتها التي تصل إلى وصف الله جلّ وعز وإثارة الشكوك حوله.

(٦) في قوله تعالى ((أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون)) (سورة العنكبوت/٤).

(٧) في قوله تعالى ((لا معقب لحكمه)) (سورة الرعد/٤١).

(٨) صحائف من نهج البلاغة، محمد جعفر الكرباسي، الجاحظ، بغداد، ط١، ١٩٩١ : ١٧٨.

(٩) الجمل وصفين والنهروان : ٣٩٧-٤٠١.

(١٠) وقد قال الإمام الصادق عليه السلام (أدنى الإلحاد الكبر). أصول الكافي : ٣٠٩/٢.

(١١) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٣٠٢.

(١٢) ينظر : م.ن : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(١٣) ينظر : م.ن : خ ١٨، ص ٦٠.

(١٤) ينظر : م.ن : خ ٢٩، ص ٧٣.

فقد تعامل القرآن مع وجود الله تعالى كأمر ثابت مودع في فطرة الإنسان^(١)، أما بعد الانحراف العقائدي فكانت الحاجة شديدة لتصحيح أمور العقيدة ممن تميز بقوة العقيدة، ولذا كان الإمام عليه السلام يحتاج الفرق ويفند أقوالها وافتراءاتها التي تصل إلى وصف الله جل وعز وإثارة الشكوك حوله -وكانت إحدى متركزاته الرسالية-.

ومن هنا فقد كان الإمام عليه السلام يدعوهم لأخذ العلم من مصدره ، وهو القرآن الذي (لَا تَفْنَى عَوَائِدُهُمْ وَلَا تَنقُضِي عَجَائِبُهُ)^(٢)، صامتاً وناطقاً^(٣)، اللذين جعلهما الله ورسوله ﷺ ثقلين لا ضلالة لمن جمعهما وتمسك بهما، فالإمام يأمر بما أمر به الله ورسوله، وينهى عما نهى عنه الله ورسوله ﷺ ولذا فقد جعل الله الإمام عليه السلام مع أهل بيته سبيلاً لطاعة الله وركناً لتوحيده وآياته، فالكتاب وأهله (صَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ)^(٤).

الدعوة إلى توحيد الله وعدم الشرك به:-

التوحيد أول أصول الدين ومركزاً لها، مثلما الولاية أساس دعائم الإسلام^(٥)، فالتوحيد قوام الدين وأساسه الذي قام عليه "وهو نقطة التوازن التي إذا ما احتلت موقعها الصحيح فستكتسب جميع الأمور مواقعها الطبيعية، وإلا سيصاب كل شيء بالخلل"^(٦).

وأساس عقيدة التوحيد هي التحرر من كل قيد إلا من طاعة الله، فكلمة الإسلام (لا إله إلا الله) نفي وإثبات، بإثبات الله ونفي ما سواه^(١)، فالإسلام دين التوحيد في أشد معانيه صفاء وقوة وبساطة ووضوحاً^(٢).
لقد فطر الله تعالى الخلق جميعاً على وجوده^(٣)، ولذا لم يحتج الأنبياء في مهمتهم إلى إثبات وجود الله، بل إلى توحيده ونفي الشرك به.

(١) ينظر : التوحيد، كمال الحيدري، جواد علي الكسار، دار فرقد، إيران، ط٣، ١٤٢٤ هـ : ٤٠/١.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٥٢، ص ٢١٢-٢١٣.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٥٨، ص ٢٢٣.

(٤) م.ن : خ ١٤٧، ص ٢٠٤.

(٥) ينظر : أصول الكافي : ٤٢/٢.

(٦) التوحيد : ٤٥٣/١.

(١) في رحاب نهج البلاغة : ١٩٠.

(٢) ينظر : حياة محمد : ١٧.

والإمامة هي الشرط الرئيس للتوحيد، والإمامة هي الطريق الموصل إلى التوحيد الحق^(٤)، ولذا فقد كان ابتعاد الناس عن خط الإمامة إيذاناً بانحراف عقائدي بدأ باتباع أهواء وآراء وابتداع أحكام واجتهادات في دين الله^(٥) - إلا ما كان ينقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيجلى الأمر ويحفظ للإسلام هيئته-، ثم انتهى الأمر بتفرق وتحزب وتشنت في دين الله تعالى، وانحرف عنه، بعد أن كانت الفتوحات ومستجدات الأحداث، والاختلاط مع أهل الديانات السابقة ولا سيما اليهود، ومحاولاتهم العديدة لتشكيك الجهلة بأمور العقيدة، وتضليلهم لإبعادهم عن الحق، وذلك لإضعاف هيمنة الإسلام على الديانات الأخرى؛ دافعاً لتلك الفرقة.

ولذا كانت حروب الإمام عليه السلام عند توليه الحكم حروباً عقائدية تثبتاً لعقيدة التوحيد بطاعة الإمام عليه السلام وقتال الخارجين عنها^(١) بتثبيت حق الإمامة.

ويتصل تنفير الناس من الدنيا في خطاب الإمام عليه السلام بدعوتهم لتوحيد الله سبحانه لتحويلهم من عبادة المال وطاعة الآراء والسير بالأهواء، وجميعها شرك بالله إلى توحيده، فالتوحيد والشرك يصاحبان الإنسان في كل تصور يخطر في ذهنه ويصاحبان حركته في الحياة، ولا سيما أن الشرك بالله منه ما هو ظاهر ومنه ما خفي^(٢).

^(٣) يروى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى ((فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (سورة الروم/٣٠)، أنه قال (فطرهم جميعاً على التوحيد)، ويروى أيضاً أنه قال عن الفطرة : (هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال ((ألست بركم)) وفيه المؤمن والكافر). وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ قوله (كل مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه). ينظر : أصول الكافي : ٣٥/٢-٣٦.

^(٤) التوحيد : ٤٥٩/١. ويروى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)، ثم تبعها بالقول (إن لا إله إلا الله شروطاً، وإنني من شروطها).

^(٥) ينظر : الفتنة الكبرى : ٤٤.

^(١) يرد عن الإمام علي عليه السلام وهو في لجة المعركة من يوم الجمل، وإذا برجل يسأله : يا أمير المؤمنين، أقول إن الله واحد؟ فما كان من الناس إلا حملوا عليه، متذرعين بأن الساحة ساحة معركة، والساعة ساعة حرب واحتدام سيوف لا سؤال ولا معرفة، وقالوا : يا أعرابي، أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم النفس؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : دعوه، فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، علام نحاربهم؟ نحاربهم على التوحيد الحق بمكوناته ولوازمه). بحار الأنوار : ٢٠٦/٣، نقلاً عن التوحيد : ٧/١.

^(٢) قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام (الإشراك في الناس أخفى من دبيب النمل على المسح الأسود في الليلة المظلمة). تحف العقول عن آل الرسول : ٤٧٨.

وقد كانت بعض خطب الإمام عليه السلام في التوحيد بحوثاً عقائدية "تقرب من حد الإعجاز" ^(٣)، لتصحيح أمور العقيدة التي خص الإمام عليه السلام بالعلم بها، حتى كانت دليلاً ناطقاً حياً وحجة ثابتة على المنصب الإلهي الذي خص به، وعلمه الذي لا يدانيه علم، وحفظه للشرعية و تثبيته للعقيدة بحفظ القرآن الذي خصّ وأهل بيته من بعده عليهم السلام بحفظه ^(٤). والإمام عليه السلام هو المخصوص بشرح حقائق التوحيد التي لا تخالطها الشبهة، فقد جاءت بحوثه في التوحيد بحوثاً علمية تفنيداً للعقائد المحرّمة وما حاولوا نحلّه وهو الواضح في تنزيهه سبحانه عنها بقوله (كَذَّبَ الْعَالُونَ بِكَ إِذْ شَهِوْكَ بِأَصْدَٰلِمِهِمْ وَنَخَلَوْكَ ^(٥) جَلِيَّةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْ هَامِهِمْ وَجَزَّؤَكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمِ اتِّبَحُوا طِرْهُمْ وَقَرَّوْكَ عَلَى الْخُلُقَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْقَوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِّنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَالْعَالِي بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَوَلَّيْتُ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِكَ) ^(١)، مثلما كان بعضها تصحيحاً للاعتقادات الخاطئة من سحر وكهانة وسواها ^(٢).

وفي خطابه التوحيدي لفت لأنظار مخاطبيه إلى تأمل العالم المحسوس، والنظام الذي خلق الله سبحانه وتعالى به الكون والقدرة التي تسره، وما أودع الله سبحانه مخلوقاته من آثار الحكمة الإلهية، فكل ما في الكون مرآة تظهر كمال الخالق وحكمته وتدبيره، وهو سبحانه (الظَّاهِرُ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ) ^(٣)، ولا مدبر سواه (فَحَجَّثُهُ بِالتَّدْبِيرِ لَطِيفَةً) ^(٤)، مثلما في الخطاب إثارة لدفائن العقول وحثها على التفكير لتثبيت العقيدة، وتقوية الإيمان بالغيب، ببحوث إلهية يحثهم فيها على التفكير في الخالق، وفي القرآن الذي أمر بتدبره ^(٥)، لتفعيل آياته والإيغال في مسأله، ولا سيما بعد نضج العقل البشري واستعداده لتقبل تلك العلوم، وحثهم على عدم الاكتفاء بظاهرة الأنيق،

^(٣) في رحاب نهج البلاغة : ٣٥.

^(٤) في قوله تعالى ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) (سورة الحجر/٩).

^(٥) نخلوك : أعطوك صفاتهم الخاصة.

^(١) نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٢٦.

^(٢) ينظر : م.ن : خ ٧٩، ص ١٠٥.

^(٣) م.ن : خ ٢١٣، ص ٣٢٩-٣٣٠.

^(٤) م.ن : خ ٩١، ص ١٢٦.

^(٥) قال تعالى ((أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)) (سورة محمد/٢٤).

فالقِرَانُ (ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَا تَقْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقَضِي عَوَائِدُهُ وَلَا تُكَتِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ)^(٦).

فكان أول واضع لأصول التوحيد، وعلم الكلام الذي اشتهر به المعتزلة بعد ان استنبطوا أدلتهم بعقولهم من خطاب الإمام عليه السلام^(٧)، مثلما وضع أصول النحو^(٨)، وسواه من العلوم التي عرفها العرب في العصور التالية^(٩).

(٦) نهج البلاغة : خ ١٨، ص ٦١.

(٧) بهج الصباغة : ٢٣٢/٢.

(٨) مصادر نهج البلاغة : ١٠٢.

(٩) ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ١٦/١-١٧.

الخطاب السياسي

لم يكن للعرب كيان سياسي سابق للدين، فالسياسة نشأت وترعرعت في كنف الدين وعليه أقيم أساسها ^(١)، ولا يمكن فصل امتزاجهما معاً، إذ تشكل الخلافة في شكلها الخارجي "سلطة سياسية، ومنصباً دنيوياً" ^(٢)، إلا أن الخلاف على الإمامة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكان أعظم خلاف في الأمة الإسلامية ^(٣) قد جرّ إلى الفصل بينهما.

وقد حاول الإمام عليه السلام منذ توليه زمام الأمور إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، بعدما "لعبت الأهواء السياسية دوراً خطيراً في الحياة الدينية نفسها" ^(٤)، فالإمامة قيادة سياسية روحية للأمة الإسلامية ^(٥)، للسير بها في طريق الحق الذي لا ضلالة بعده والحكم بالعدل بين المسلمين وإزالة ما اختلفوا فيه، وقد تضمّن خطاب الإمام السياسي الموضوعات الآتية:

نظرته للخلافة: -

يشدد الإمام عليه السلام على الخلافة بوصفها قيادة للمسلمين، إلا أننا نجد في خطاب الإمام عليه السلام نظرتين للخلافة، يشدد الإمام عليه السلام في إحداها على حقّه في الخلافة ^(٦)، لأنها منصباً إلهياً خصّ به بوصفه خليفة لرسول الله ﷺ وولياً لأُمور المسلمين من بعده ووصياً يحمل علمه، ويطالبهم بأداء ما عليهم من حقّه ^(٧).

ويزهد الإمام عليه السلام بهذه الخلافة في الأخرى حتى لا تصل قيمتها عنده إلى نعلٍ يخصفه لا قيمة له، ولذا يقول الإمام عليه السلام لابن عباس (وَاللّٰهُ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَمْرِتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا) ^(٨)، وذلك بعد أن أصبحت الخلافة دنياً يتكالبون عليها، ولذا قال الإمام عليه السلام (أَمَّا وَالْإِنِّي فَلَقَّ الْحَدِيثَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ

^(١) ينظر : فن الخطابة وتطوره عند العرب، ١٣٠.

^(٢) خلفاء الرسول : ٤١٦.

^(٣) ينظر : الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق : محمد بدران، مصر، ١٩٥٦ : ٣٠/١.

^(٤) حياة محمد : ٤٧.

^(٥) ينظر : دولة الإمام علي ع، محسن الموسوي، دار البيان العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣ :

٢٨٩.

^(٦) ينظر : نهج البلاغة : خ ٧٤، ص ١٠٢.

^(٧) ينظر : م.ن : خ ٣٤، ص ٧٩.

^(٨) نهج البلاغة : خ ٣٣، ص ٧٦.

الْحُجَّةُ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَدِّ غَيْبِ مَظْلُومٍ لِأَلْقَيْتُ دَلِيلَهَا عَلَى غَرِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَاسٍ أَوَّلَهَا وَلَا لَفَيْتُمْ تُنْيَاكُمْ هَهُ أَزْ هَ عَذِي مِنْ عَفْطَةِ عَنَزٍ^(٢).

ولولا منصب الإمام الرسالي للقيام بالحق لكان أول الرافضين لها، ومن هنا لم تكن الخلافة للإمام مطلباً إلا لاختلاف أمور المسلمين (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا نِي كَانِ مِنَّا مُتَفَسِّةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا التَّمَّاسِ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ هَيْبِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَاكَ قِيَامَ الْمَظْلُومِ وَنَمِنْ عِدَاكَ وَتُقَامَ الْمُعْطَلَةُ مِنْ دُحُولِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ^(٣).

التشديد على شكل البيعة: -

على الرغم من حق الإمام عليه السلام في الحكم السياسي لنص النبي ﷺ عليه خليفة من بعده^(٤)، إلا أن علم الإمام عليه السلام بنوايا نفوسهم دفعه إلى اشتراط البيعة في المسجد بعد ترده في قبولها، لتكون بحضور الجميع، فلا تكن لناكث عليه حجة، ولم يمض أكثر من أشهر حتى نكثت البيعة أول يدمدت لتصافح يد الإمام عليه السلام.

فقد كانت بيعة الإمام عليه السلام إقبالاً لم يسبق له فيصفه الإمام عليه السلام بالقول (وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُمْهَا وَمَدَدْتُمْ وَهَ فَقَبَّ ضُتْهَا ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهَيْمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرَ نَهَ حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ وَ سَقَطَ الرِّدَاءُ وَوُطِئَ الضَّعِيفُ وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِدُعَايِهِمْ إِيَّايَ أَنْ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ وَ هَدَجَ^(١) إِلَيْهَا الْكَبِيرُ وَتَحَامَلَ نَحْوُهَا الْعَلِيلُ وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكَعَابُ^(٢))، فلم يجبر على بيعته أحداً، ولم يضغط على أحد أو يكره أحداً، بل كانت بيعتهم له بيعة جماعية بحماس واندفاع، لم يتخلف عنها إلا قلة من الناس، ويصفها بقوله (فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوَّلِ نَهَا تَقُولُونَ الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ قَبَّ ضُتْ كَفِّي فَبَسَطْتُمْ وَهَ وَ نَارَعْتُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمْ وَهَ^(٣))، ولذا فقد كان الإجماع على بيعة الإمام حجة يحتج بها على

(٢) م.ن : خ ٣، ص ٥٠.

(٣) م.ن : خ ١٣١، ص ١٨٩.

(٤) ينظر : أصول الكافي : ٣٢٤/١ - ٣٣٠.

(١) هـ دج : مشي مشيه الضعيف في ارتعاش.

(٢) نهج البلاغة : خ ٢٢٩، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣) م.ن : خ ١٣٧، ص ١٩٥.

من خالفه من أهل البغي، إذ يقول الإمام (لَيْنٌ كَ أَنْتَ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقُ دُحْتَى يَحْضُرَ هَ عَامَّةُ النَّاسِ فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَلَبَ عَنْهَا ثُمَّ لَا يَسْأَلُ لِلشَّاهِدَانِ يَرْجِعَ وَلَا لِلْغَلَبِ أَنْ يَخْتَارَ) (٤).

ولذا لم يقبل الإمام عليه السلام بعودة ناكث لأنه يعلم الغدر الكامن وراء عودته بعد إلقاء الحجة عليه، إذ يصف الإمام كف مروان التي بايعه بها ثم اخلف فأطلقه بعد أن شفع له الحسنان عليهما السلام (لَا حَاجَةَ لِي فِي بَايَعَتِهِ إِنَّهَا كَفَتْ يَهُ وَهُوَ لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَخَرَّ بِسَدَّتِهِ) (٥).

ويشدد الإمام عليه السلام على جوهر البيعة لكونه الإمام الحق الذي لا يظلم عنده أحد بالقول (لَمْ تَكُنْ بَايَعْتُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً وَلَأَيِّنَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاجِدًا إِنِّي أُرِيكُمْ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ تَرِيُونِي لِأَنْفُسِكُمْ أَتُهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَ أَلِمَ اللَّهُ لِأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ وَلَاقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أَوْرِدَهُ مَنَهْلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهَاً) (١).

ويفند الإمام عليه السلام بيعة اعدائه، ويؤكد شراء معاوية لذمم بعضهم وبيعته بأموال المسلمين، إذ يصف بيعة عمرو بن العاص لمعاوية (٢) (وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرِطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ وَخَرِيَتْ أَمَّا أَلْفُ الْمُتَبَاعِ) (٣)، وفي ذلك تشديد على عدم استخدام الإمام عليه السلام لقوة التهديد أو الوعيد لإجبارهم على البيعة، إذ لم تكن بيعته إكراهاً لتكون طاعته تظاهراً.

التشديد على الدستور الذي يعمل به: -

يشدد الإمام عليه السلام في خطابه على الدستور الذي يعمل به وهو القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ التي سار فيها بعلمه الرسالي الذي لا يحتاج معه إلى نصح أو مشورة من أحد، ولذلك كانت سياسة الإمام عليه السلام اتباعاً لآيات القرآن الكريم، وإضفاءً للفاعلية على آياته، واقتداءً بالسنة الشريفة للرسول المصطفى ﷺ التي أحيها بنهجها، وقد تعهد الإمام عليه السلام أول بيعته بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بقوله (وَلَكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ

(٤) م.ن : خ ١٧٣، ص ٢٤٨.

(٥) م.ن : خ ٧٣، ص ١٠٢.

(١) نهج البلاغة : خ ١٣٦، ص ١٩٤.

(٢) ينظر : شرح البحراني : ٢٣٧/١.

(٣) نهج البلاغة : خ ٢٦، ص ٦٨.

وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ^(٤)، مستمداً من القرآن والسنة سياسته الرسالية كما يستمد منهما أحكامه الدينية فهو الأعلّم بهما، إذ ما من متدبرٍ لمعاني القرآن وأحكامه ولا متابع للسنة وحافظٍ لها يفوق الإمام علي عليه السلام، فكتاب الله تعالى مع الإمام (قَدْ أَمَكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زَمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقْلُهُ وَيُنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ)^(١)، والإمام عليه السلام هو الأحق بسنة رسول الله ﷺ^(٢)، ولذا يحثهم على لزوم السنة القائمة بقوله (فَالزُّمُوا السُّنَّةَ الْقَائِمَةَ وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ)^(٣).

ويخاطب الإمام عليه السلام من عاتبه على ترك المشورة بقوله عن الخلافة انها لما (أَفْضَتْ إِلَيَّ تَطَرُّتْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرََنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُمُومًا اسْتَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَافْتَدَيْتُهُمْ فَلَمْ أُحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمْ وَلَا رَأْيِ عَوْنِكُمْ وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُ مَفَاسِدَ شَيْرِكُمْ وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٤).

طاعة الله حق متبادل بين الوالي ورعيته:-

مميز الله تعالى الإنسان بالعقل من سائر مخلوقاته، وجعله راعياً مسؤولاً عن كل ما تقع عليه يداه وما يتصل به، حتى البقاع والبهائم^(٥)، ولذا قال رسول الله ﷺ (كَلِمَاتُكُمْ رَاعٍ وَكَلِمَاتُكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)^(٦).

وتعد طاعة الإمام عليه السلام فريضة أوجبها بوصفها حقاً واجباً الأداء على الخلق جميعاً بازاء الخالق، بعد أن قرن الله تعالى طاعة ولي أمره بطاعته وطاعة رسوله ﷺ^(٧)، لما علم منه سبحانه من السير بطاعته وعدم الخروج عنها.

إلا ان آية الطاعة قد تحولت إلى شعار يتمسك به كل من سمح لنفسه بولاية أمور المسلمين بعد تحويلها إلى ولاية عامة دون ان تلزمه تلك الولاية بأمر، فالطاعة حق واجب على الرعية يفرض بالقوة عليهم بازاء

(٤) م.ن : خ ١٦٩، ص ٢٤٤.

(١) نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١١٩.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٢٥، ص ١٨٢.

(٣) م.ن : خ ١٣٨، ص ١٩٦.

(٤) م.ن : خ ٢٠٥، ص ٣٢٢.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١٦٧، ص ٢٤٢.

(٦) سنن الترمذي : ١٢٤/٣.

(٧) في قوله تعالى ((أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم)) (سورة النساء/٥٩).

الوالي أياً كانت سمته ومهما كانت هويته، إذ كانت مسؤولية من جانب واحد. وقد كان ذلك صحيحاً لو سار الأمر كما أراد الله تعالى، أما بعدما ظهر للناس جميعاً من أمر عثمان، فقد حاول الإمام عليه السلام معالجة هذا التحول بإعلانه في خطابه ان الطاعة حق متبادل بين الإمام ورعيته مثلما هي فريضة واجبة على كلا الجانبين، وصلاح أحدهما متوقف على صلاح الآخر ومدى طاعته لله عز وجل^(١)، وتشديده على ان لا طاعة إلا للإمام الذي تصب طاعته في طاعة الله تعالى مذكراً إياهم بقاعدة اقرها الرسول ﷺ من قبل بقوله (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)^(٢).

وقد كان الإمام عليه السلام يعلن الحق أقوالاً وأفعالاً، علماً وحكمة، تعليمًا وتأديباً، نصائح ومواعظ، أوامر ونواهي – هذا في مجال الخطاب- لأداء حق طاعته لله تعالى، مع (إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ : الْإِبْلَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالِاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَالْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإِقَامَةُ الدُّعَا عَلَى مُسْتَحَقِّهَا ، وَإِصْدَارُ السُّهُمَانِ عَلَى أَهْلِهَا)^(٣)، فكان يتحملة لرعيته وصبره على ما يلاقيه منهم من إجحاف ابتلاء له^(٤)، سبباً لنيل الرفعة والدرجات العالية في الجنان، فتكليف الإمام عليه السلام ارتقاء به إلى الدرجات العالية في دار البقاء.

أما الحق الواجب على الرعية بازاء الإمام عليه السلام فهو السير خلف راية الحق التي يحملها ولي الأمر والتسليم والطاعة لكل أمر دون اعتراض أو تردد أو شك، تدليلاً على أفضليته وكرامته عند الله فان دعا أجابوا، وإن أمر أطاعوا، فالإمامة نعمة هداية من الله للعباد إلى طريق الحق، وقد جعلها الله سبحانه (نِظَاماً لِأَلْفَتِهِمْ وَعِزّاً لِّبَيْنِهِمْ)^(١)، وفي أداء الرعية لحق الوالي تعبير عن طاعتهم لله ورسوله ﷺ من جانب، وعن منزلته وعصمته المرتبطة بعصمة رسوله ﷺ من جانب آخر^(٢)، إلا أن الإمامة ابتلاء لصدق العبادة وحقيقة الطاعة، وحجة على العباد، فتكليف الرعية حق يسألون عنه بازاء الأئمة المخصوصين الذين (هُمُ أَسَاسُ الدِّينِ

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢١٦، ص ٣٣٣.

(٢) م.ن : قول ١٦٥، ص ٥٠٠.

(٣) م.ن : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٢٧، ص ٦٩.

(١) نهج البلاغة : خ ٢١٦، ص ٣٣٣.

(٢) الألفين، العلامة الحلي (٧٢٦هـ)، كيميا، إيران، ط ١، ١٤٢٥هـ : ١٠٣.

وَعَمَّ أَدَالِيَقِينَ إِلَهُهُمْ يَفِيءُ أَلْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ النَّالِي وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ
الْوَلَايَةِ وَ فِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ^(٣).

ومن هنا فالطاعة حق متبادل المسؤولية بين الطرفين ، لذا يقول
عليه السلام (إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ
وَتَوْفِيرُ فَعْيُكُمْ عَلَيَّكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا وَتَأْيِيْبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّي
عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَالْإِجَابَةُ دِينَ أَدْعُوكُمْ
وَالطَّاعَةُ دِينَ أَمْرُكُمْ)^(٤).

وقد سعى الإمام عليه السلام إلى معالجة السمات التي تقف حائلاً
دون الطاعة من كبر وغل وحقد ومطالبتهم بالطاعة بكونها حقاً واجباً
يتحمل العبد بازائه الجزاء منه سبحانه، فلا ترغيب في تلك الطاعة بهدايا
أو أشياء مادية، ولا تهديد بمعاقبة الممتنعين عنها. ويثبت الإمام عليه
السلام كون الجزاء في الآخرة مترتباً ثواباً وعقاباً على ما كان الناس ولذا
نجد أن الإمام يقسم خطابه إلى مطيعين وعاصين فيمدح المطيعين ويطلب
مناصحتهم^(٥) ، ويحذر العاصين من معصية فعلهم.

وقد كان تحريرهم من العبودية وإخراجهم إلى طاعة الله عز وجل
أمراً أعلنه الإمام عليه السلام في أواخر خطبه (لَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ
وَأَحْطْتُ بِجُهِدِي مِنْ وَرَائِكُمْ وَأَعَفْتُكُمْ مِنْ رَبِّكَ الدُّلَّ وَحَلَقِي الضِّمِّ شُكْرًا
مِنِّي لِلْبَرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ وَ شَهْدَةً الْبَدَنُ مِنْ الْمُنْكَرِ
الْكَثِيرِ)^(٦).

تفنيد الخصوم السياسيين:-

يفند الإمام عليه السلام في خطابه من كان يضع نفسه في مقابل
الإمام عليه السلام ليكون له نلّ، ولا سيما أولئك الذين كانوا يحاولون إثارة
بلبله ليدفعوا الناس بكلامهم إلى الشك في قائدهم.

ويفند الإمام عليه السلام معاوية إمام الضلالة الذي يستخدم ذكائه في
غير الحق -بعكس الإمام عليه السلام- ومثله تعامله مع أصحابه ليكشف
لأنصاره حقيقة الاندفاع الذي يرونه من أصحاب معاوية، فما ذلك إلا لان
ما يدعوه لهم لا يتنافى مع هوى أنفسهم^(٧).

(٣) نهج البلاغة : خ ٢، ص ٤٧.

(٤) م.ن : خ ٣٤، ص ٧٩.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١١٨، ص ١٧٥.

(٦) نهج البلاغة : خ ١٥٩، ص ٢٢٤.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٢٥، ص ٦٧.

ويوضح الإمام عليه السلام ما كان يعمّه الناس ذكاءً من معاوية وما هو إلا شيطنة^(٣)، بأنه سير بغير الحق، فقد استولى على قلوب أهل الشام بأمواله، "واشترى دينهم بدراهمه"^(٤)، وهم أعراب أهل الشام الجفاة الطغام^(٥)، بنهج يتفق مع هوى نفوسهم — بعكس الإمام علي عليه السلام —، فإن غضب وأعلن الحرب فذلك بدافع التعصب والثأر، وإن دعا فإلى الضلالة التي توافق شهواتهم، ولم يذكر لهم الحق ولم يخاطبهم به^(٦)، فقد (عَمَسَ^(٢) عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَذْيَةِ)^(٣)، مع كل بني أمية بسابقة الإمام عليه السلام^(٤)، حتى أوغر قلوبهم على الإمام عليه السلام وأشعل نار الحقد والكراهية عليه فانقادت له الشام بأسرها^(٥).

ويردّ الإمام عليه السلام على مزاعم معاوية^(٦)، ويفند سماته التي كان يتّبعي بها التفوق على الإمام عليه السلام فيقول (وَاللّٰهُ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَدَّ هِيَ مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْرُبُ وَيَفْجُرُ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّاسِ وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فُجْرَةٌ وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ وَلِكُلِّ غُلُوٍّ لَوَاءٌ يُعْرِفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّٰهُ مَا أَسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أَسْتَغْمَرُ^(٧) بِالشَّرِيدَةِ)^(٨).

ويرد الإمام عليه السلام على مزاعم عمرو بن العاص، ويفند أقواله بالقول (عَجَبًا لَأَنِّي النَّابِغَةُ يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ بُعَابَةً وَأَنِّي أَمْرٌ وَتُلْعَابَةٌ أَعَافِسُ وَأَمَارِسُ لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا وَظَقَّ أَثِمًا أَمَّا وَتَوَّ الْقَوْلُ الْكَافِبُ إِذْ لِيَقُولُ فَيَكْذِبُ وَيَعْدُو فَيُخْلِفُ وَيُسْأَلُ فَيَبْئِي وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ وَيَخُونُ الْعَهْدَ وَيَقْطَعُ الْإِلَّ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ رَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ مَا لَمْ تَأْخُذْ بِالسُّيُوفِ مَأْخِذَهُ)^(٩)، ومثله الفئة الباغية^(١٠).

(٣) ينظر: أصول الكافي: ٢٨/١.

(٤) عصر الانطلاق (الخلفاء الراشدون): ٢٥٢/٢.

(٥) ينظر: نهج البلاغة: خ ٧٥، ص ١٥٥.

(٦) ينظر: أئمة أهل البيت: ١٦١.

(٧) عمس عليهم الخير: أبهمه عليهم وجعله مظلماً.

(٨) نهج البلاغة: خ ٥١، ص ٨٩.

(٩) ينظر: م.ن: خ ٧٥، ص ١٠٣.

(١٠) ينظر: سيرة المرتضى: ٣٢٠.

(١) ينظر: نهج البلاغة: خ ٨٤، ص ١١٥.

(٢) لا أستغمر: أي لا أستضعف.

(٣) نهج البلاغة: خ ٢٠٠، ص ٣١٨.

(٤) م.ن: خ ٨٤، ص ١١٥.

(٥) ينظر: م.ن: خ ١٣٧، ص ١٩٤.

ويحتج الإمام لحقه وأهل بيته عليهم السلام فهم المخصوصون بالخلافة الشرعية بحجج دامغة تفند الخصم وتثبت أحقيته وأهل بيته من بعده بالأمر، وبرهان قاطع لا يمكن لأحد إنكاره، ليفند ما احتج به سابقوه، وليسترد ما دار على السنة الجميع من ألقاب خصت به، نحو قوله عليه السلام (نَحْنُ الْأَصْحَابُ وَالْحَقُّ وَالْأَوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَوَابِهَا فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً)^(١)، ويقول محتجاً بشجاعته (أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغْرِ بِكَلاَئِلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ)^(٢)، فإن كانت الشجاعة ما يجب توفره في القائد فمن الإمام عليه السلام نبعت، وعنه صدرت.

التشديد على صاحب الحق في تولى أمور الأمة الإسلامية:-

لقد خصّ أهل البيت عليهم السلام بولاية أمور المسلمين وهم الأحق بها، ولذا لا يمكن معرفة صاحب الحق إلا بمعرفة الحق نفسه، فالحق أهلية وكفاءة لا توجد عند سواه، والكفاءة التي ينبغي أن تكون عند الإمام عليه السلام هي قوة ربانية تشكل الشجاعة جانباً منها تساعد على قيادة الأمة الإسلامية، مثلما هي علم رسالي لا يخطئ معه بحق أحد، ولذا يخاطبهم بالقول (أَتُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ فَإِنْ تَغَبَّ تَلَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ فَإِنْ أَبِي قُوْتِلَ)^(٣).

ف نجد الإمام عليه السلام يضع هذه السمات أمام الناس في خطابه ليتسنى لهم معرفة صاحب الحق الأول بالخلافة الذي يكون أقوى الناس وأكثرهم قدرة على السياسة وأكثرهم علماً بمواقعها^(٤)، ويتجاوز ذلك إلى تنزيه الأحق بالإمامة عن السمات المخلة بالحكم من بخل وجهل وقطيعة وظلم ورشوة وتعطيل، وذلك حين يقول (وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدِمَاءٍ وَالْمَعَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ تَهْمَةٌ هَوْلًا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ وَلَا الْحَائِفُ لِلْهَوْلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً لَوْ قَوْمٍ وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهِ لَوْ قَوْمٍ الْمَقَاطِعِ وَلَا الْمُعْطِلُ لِلْسُنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ)^(٥).

(١) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥.

(٢) م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٣) م.ن : خ ١٧٣، ص ٢٤٨.

(٤) ينظر : شرح البحراني : ١٤٠/٢.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٣١، ص ١٨٩.

والحق مرتبط بالإمام عليه السلام، فمحلّه من الخلافة (محلُّ القُطبِ مِنْ الرَّحَى)^(٢)، وقد كان سلبه لهذا الحق (أثرةٌ شَحَّتْ عَلَیْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَدَحَتْ عَنْهَا نُفُوسٌ آخَرِينَ)^(٣)، ومن هنا لم تكن طاعة المسلمين لأمر الرسول ﷺ طاعة لشخص، بل طاعة لله سبحانه وتعالى^(٤).

ولذلك فقد جعل الله عز وجل للإمام عليه السلام السوط والسيف، فأما السوط فقد أتب به المصرين على ارتكاب المعاصي ولذا يقول (أَيُّتُ إِلَيْكُمْ مَا أَتَى الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ وَأَبْتُكُمْ بِسَوَاطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا)^(٥)، ويشير الإمام عليه السلام هنا إلى اشتراط العصمة من الذنوب فيمن يتولى الأمر^(٦)، وهو ما وجد عنده والأئمة من ولده عليهم السلام الذين اذهب الله عنهم الرجس.

وأما السيف فقد توعّد به أهل الباطل قائلاً (فَإِنْ أَبَوْا أَطَّيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ تَلْفِيئاً مِنَ الْبَاطِلِ وَتَلَصُّراً لِلْحَقِّ)^(٧)، حتى قاتل به الناكثين والقاسطين والمارقين بعد إقامة الحجة عليهم، إذ يقول (أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكَثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّكَثُ وَنَفَقَاتُهَا وَأَمَّا الْقَاسِطُ وَنَفَقَاتُهَا وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ وَأَمَّا الشَّيْطَانُ الرَّذْهَةُ فَقَدْ كُفِّتُ لَهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةٌ قَلْبِهِ وَرَجَّةٌ صَدْرِهِ وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ)^(٨).

التشديد على سياسة العدالة التي يتبعها: -

العدالة بين الناس سياسة سار فيها الإمام عليه السلام، وسبب أساس لتخصيص منصب الإمامة بأهل بيت العصمة بوصفهم أعلاماً للسنة، إذ ان (أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَالِمٌ هُدًى وَهُدًى فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ وَأَمَاتَ بِدْعَةٍ مَجْهُولَةٍ وَإِنَّ السُّنَّةَ لَنَزِيرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ)^(٩)، فالعدل يضع الأمور في

(٢) م.ن : خ ٣، ص ٤٨.

(٣) م.ن : خ ١٦٢، ص ٢٣١.

(٤) م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٣٠٢.

(٥) م.ن : خ ١٨٢، ص ٢٦٣.

(٦) ينظر : بهج الصباغة : ٥٥٦/٢.

(٧) نهج البلاغة : خ ٢٢، ص ٦٤.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٩) م.ن : خ ١٦٤، ص ٢٣٤-٢٣٥.

مواضعها الصحيحة^(٣)، ولذا يشدد الإمام عليه السلام في خطابه على عدله وسيره بالحق دون هوادة.

وأكثر ما كان تشديد الإمام عليه السلام على سياسته بشكل فعلي أي بعد أن سار فيها وشهداها الجميع لا بوعود مسبقة بما سيعمل به، لذا يقول عليه السلام (أَلَمْ أَهَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ وَأَتْرُكُ فِيكُمْ الثَّقَلَ الْأَصَدَّ قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى دُحُولِ الْحَالِلِ وَالْحَرَامِ وَالْبَسْتُكُمْ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمْ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَامِ الْأَخْلَاقِ مِنْ فُؤَادِي)^(٤).

ويرد الإمام عليه السلام على من طلب منه تغيير سياسته (أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ وَاللَّهُ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ وَمَا أَمْ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بِهِمْ فَكَفَيْ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ)^(٥).

وقد جعل الإمام عليه السلام سياسته إعلاناً، فكان يعلن ما يجري في مجلسه ممّا لا يطلع عليه سائر الناس، إلا أنه يتصل بشكل مباشر بعدالته وبموقف الناس منها، فيعلنه ليكون لهم به انتفاع، محاولاً إخراس التقولات وقطع دابر الشك والقضاء على الفتن ويريده الإمام عليه السلام أن يكون موعظة لهم، ومنها موقفه من أخيه ورّاه عليه، ومحاولة أحدهم تقديم هدية ورفضه لها شارحاً موقفه، معلناً قوله (وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّيِّئَةُ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاقِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهُ فِي مَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ سَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ لَهَا وَإِنْ يُنْيَاكُمْ عَذَابِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلَا نَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَقْبَى)^(١).

وقد كان العدل والمساواة بين الناس نهجه القويم الذي سار فيه، إلا أن تطبيق العدل أمر صعب مع تغير نفوسهم^(٢) "في زمن كانت القبلية والوجاهة قد استعادتتا من أنفاسهما ما كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أخمدته"^(٣)، إلا أن الإمام لا يرضى بغير العدل بديلاً، ولا يسير إلا

(٣) ينظر : م.ن : قول ٤٣٧، ص ٥٥٣.

(٤) م.ن : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(٥) م.ن : خ ١٢٦، ص ١٨٣.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٢٤، ص ٣٤٧.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٣٣، ص ١٩٢.

(٣) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم : ٢٤.

بما سار به رسول الله ﷺ، فلا يثنيه عن ذلك عتب عاتب على مساواته بمن دونه مرتبة^(٤)، ولا يحاول إصلاحهم بإفساد نفسه.

ولم يقبل الإمام عليه السلام بغير الحق، وكان الحق دينه ودينه، فالجميع أمام الحق سواء لا فرق بين رحم أو سبق، قريب أو بعيد، عربي أو موالي، فكان يعلن (وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيِّتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعَبَادِ وَغَضَباً لِمَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعَبَادِ) (١)، وقد كان العدل سبباً في تأليب الخصوم عليه بعد تضرر مصالحهم بسياسته، وذهاب هيبتهم بمساواتهم بسواهم من الناس، وعدم موافقتهم للهدي الذي سار به الإمام عليه السلام (لَأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى)^(٢).

التشديد على الفتن مبتدؤها وسيرها وعواقبها الوخيمة:-

يحاول الإمام عليه السلام في خطابه تحديد كيفية ابتداء تلك الفتن وانتقالها، ليتحول إلى المستقبل بالتحذير من عواقبها، والفتنة "ظاهرة سياسية"^(٣)، إلا انها معوقة لنهج الإسلام والمسبب الرئيس لانحرافه عن الطريق الحق الذي أراده الله، وقد كانت فتنة مقتل عثمان فتنة شاملة في مجتمع سرت روح الشك بين أفرادها.

ولذا يوضح الإمام مبتدأ الفتن وهو ظهور البدع، ولا سيما ان لها أعلام^(٤)، فيقول (إِنَّمَا بَدْءُ وَفُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامُ تُدْبَدُ عُيُ خَالَفَ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رَجَالٌ رَجَالًا عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ)^(٥)، فقد ترك النبي محمد ﷺ ديناً كاملاً وأتمه بنعمة الولاية، وما ظهور الفتن إلا لمحدثات الأمور التي أوصاهم الرسول ﷺ باجتنابها قائلاً (إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ

كل بدعة ضلالة)^(٦).

(٤) نهج البلاغة : خ ٢٠٥، ص ٣٢٢.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٢٤، ص ٣٤٦.

(٢) م.ن : خ ١٤٧، ص ٢٠٥.

(٣) حركة التاريخ : ١٦٣.

(٤) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٦٤، ص ٢٣٥.

(٥) م.ن : خ ٥٠، ص ٨٨.

(٦) سنن الدارمي، عبد الله بن بهرام الدارمي (٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق : ٤٥/١.

إلا أن الفتنة لا تظهر للعيان مباشرة عند مبتدئها فهي تنمو وتتطور وتتسع في حركتها وتعم المجتمع، وتؤثر بشكل واضح في أفرادها، عندها تظهر جليلة، ولذا يقول الإمام عليه السلام (فَاتَّقُوا سَكْرَاتِ النِّعْمَةِ وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ وَتَذَبُّوا فِي قَتَامِ الْعُشْوَةِ وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا وَظُهُورِ كَمِينِهَا وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا وَمَدَارِ رَحَاهُ تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ خِيَاةٍ وَتَنْتَوِلُ إِلَى فُضَاعَةٍ جَلِيَّةٍ سَبَابُهَا كَثَبَابِ الْغُلَامِ وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السِّلَامِ يَتَوَارِثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُھُورِ) (١).

ومن هنا كان سبب تطور تلك الفتن وتسببها في انحراف المجتمع عدم تمسكهم بسبيل النجاة منها وتخاذلهم عن نصرة الحق (لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنْ صِرِّ الْحَقِّ وَلَمْ تَهْتُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَا يَسِ مِنْكُمْ وَلَمْ يَقَوْ مِنْ قَوِي عَدُوِّكُمْ لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ مَتَاهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَعَمْرِي لِيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ الَّتِي هُمِنْ بَعْثِي أَوْ ضَعُفًا بِمَا كَفَفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَقَطَعْتُمُ الْأَدَنِي وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُ اللَّاعِي لَكُمْ سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَا جِ الرَّسُولِ وَكُفَيْتُمْ مَذْوَنَةً إِلَّا عُتْسَافٍ وَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَاحِجَ عَنِ الْأَعْلَقِ) (٢).

والفتن تشبه الحق بالباطل، ويصفها الإمام عليه السلام بقوله (إِنَّ الْفِتْنَ إِذَا أَقْبَلَتْ سَهَتْ وَإِذَا أَدْبَرَتْ سَهَتْ يُنْكَرُ نَاقِلَاتٍ وَيُعْرَفُ مُدِيرَاتٍ يَحْمُنُ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِدُّ بِلْدًا وَيُخْطِئُ بِلْدًا) (٣)، فالشبهات نتاج الفتن مثلما البدع أسبابها.

أما السبيل الذي جعله الله نوراً وخلصاً من تلك الفتن فهو الإمام وأهل بيته عليهم السلام، إذ يقول الإمام علي عليه السلام (نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ وَلَسْ لَهَا فِيهَا بِحُجَاةٍ) (٤)، فأهل البيت هم الناجون من الفتن المنجون منها ولا أمل بالنجاة منها إلا بالتمسك بهم. فالفتن تجعل الوضع ظلاماً، وتخلط الحق بالباطل ولا يمكن الخروج منها إلا بمن جعله الله تعالى نوراً مبيناً ولذا يقول الإمام عليه السلام (إِنَّمَا مَثَلِي بِكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا) (٥).

(٧) بوائق : جمع بائقة وهي الداهية.

(١) نهج البلاغة : خ ١٥١، ص ٢١٠.

(٢) م.ن : خ ١٦٦، ص ٢٤١.

(٣) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(٤) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٨.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٨٧، ص ٢٧٨.

ولذا لم يكن من سبيل للقضاء على الفتنة إلا بالإمام عليه السلام الذي أنبأه الرسول ﷺ عن تلك الفتن وأنه سيقاقل كما قال له الرسول ﷺ (على

الإحداث في الدين)^(٢)، فقد جعلت تلك الفتن الباطل حقاً بمن يظهر الإسلام،

ويبطن التنكر لتعليماته وأحكامه، ولذا يقول الإمام (فَإِنِّي فَقَأْتُ عَنِّي الْفِتْنَةَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَ عَلَيَّهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ عَهْبُهَا وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقَهُونِي)^(٣)، فقد استطاع الإمام عليه السلام بعلمه الرسالي ان يعرف الفتنة ويدق حجر الأساس في نعشها.

ولذلك فقد حذر الإمام عليه السلام من التخلي عن طريق الحق وسبيل النجاة الذي كان التخلي عنه سبباً للفتن السابقة لأنه سيؤدي بهم إلى فتنة أوسع وأكثر إطلاقاً وهي فتنة بني أمية التي يصفها الإمام عليه السلام بأنها (فِتْنَةٌ عَمِيَاءُ مُظْلِمَةٌ)^(٤).

والفتن عامل مشترك بين الخطابة الدينية والخطابة السياسية، لان ابتداء الفتن خروج عن الدين بابتداع آراء واتباع أحكام تلغي أحكام الدين وتشبه الحق بالباطل، وتحزب في فرق سياسية تدعي كل منها "ان هدفها نصره الدين وإعلاء كلمته"^(٥)، زيادة على ان لا سبيل للخلاص من الشبهات إلا بالتمسك بأولياء الله عز وجل، ولذا يقول الإمام عليه السلام (وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الشُّنَّةُ شُنَّةً لِأَنَّهَا تُشَدُّهُ الْحَقُّ فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِدَّ أُوْهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَضِدَّ أُوْهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَلْفَهُمْ وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءُ مَنْ أَدْبَاهُ)^(٦).

وقد كان خطاب الإمام عليه السلام يتطور بفعل واقعه السياسي دون ان يتخلى عن النزعة الدينية في خطابه^(٧)، ولو كان سياسياً خالصاً لغلب على الخطابة السياسية طابع العنف والقوة لإكراه المسلمين على تنفيذ أوامر قائد الدولة، والتهديد والوعيد كما أصبح حالها في العصر التالي له^(٨).

(٢) المناقب : ١٧٥.

(٣) نهج البلاغة : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(٤) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(٥) الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ١٩٦.

(٦) نهج البلاغة : خ ٣٨، ص ٨١.

(٧) ينظر : فن الخطابة وتطوره عند العرب : ١٢٦.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٥٥، ص ١٥٦.

الخطاب الجهادي

الجهاد فريضة مستقلة كفريضة الصيام ووسيلة للوصول إلى رضا الله تعالى لأن (إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُ وَنَ إِلَى اللَّهِ سُبْدَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجَهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ يُثَوِّقُ الْإِسْلَامَ)^(١)، وتعد جزءاً من فريضة أوسع حين يكون موضعها نصرته الإسلام وإعزاز الدين.

والجهاد دعامة من دعامات الإيمان الأربع^(٢)، وهو جزء مما فرض الله تعالى على عباده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣)، ويصفها الإمام عليه السلام بالقول (وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْدَ اللَّهُ تَعَالَى لَاحِقَاتُهُمَا لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ)^(٤).

والجهاد دليل حي على طاعة الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم بطاعة الإمام المفترض طاعته، والجهاد تحت راية الحق التي يحملها بيده، إذ يعد الجهاد تجسيدا عمليا لصدق العبد في عبادة الله سبحانه وتعالى وإخلاصه في طاعته.

وقد خاض الإمام عليه السلام الجهاد مرات عديدة، إذ كان سخيًا بنفسه جواداً بها في سبيل الله، حاملاً للواء المسلمين بيده، ومدافعاً عنهم باليد الأخرى، حتى انتصر الإسلام بسيفه.

وقد شهد له الجميع بتفرد وسبقه وحنكته السياسية مرة قائداً بنفسه وأخرى تحت إمرة رسول الله ﷺ، فكان الحق الذي خاطبه رسول الله ﷺ مع أهل بيته قائلاً (أَنَا سَلَمٌ لِمَنْ سَالَمْتُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتُمْ)^(١)، وأعلن صلى الله عليه وآله وسلم للجميع الخصوصية التي تجمعها بالإمام عليه السلام بقوله (مَنْ سَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ سَبَّنِي) وقوله (مَنْ آذَى عَلِيًّا فَقَدْ آذَانِي)^(٢).

وقد اضطرته الفتن التي أشبهت الحق بالباطل إلى خوض حروب الجهاد بعد تسلمه الخلافة إعلاناً للحق بعد أن كل اللسان عن التصريح به

(١) نهج البلاغة : خ ١١٠، ص ١٦٣.

(٢) ينظر : م.ن : قول ٣١، ص ٤٧٣.

(٣) ينظر : م.ن : قول ٣٧٤، ص ٥٤٢.

(٤) م.ن : خ ١٥٦، ص ٢١٩.

(١) سنن ابن ماجه : ٥٢/١.

(٢) المناقب : ١٤٩، ١٥٤ على التوالي.

وإظهاره، وذلك حين لم يجد إلى السلم من سبيل لصيانة الإسلام من الانحراف.

لقد كان الإمام عليه السلام مصيباً في حروبه، فحروب الإمام عليه السلام "لم تكن حروب فتح وبسط سلطان سياسي، وإنما كانت حروباً عقيدية يراد منها حماية الإسلام من التحريف، وحماية المجتمع الإسلامي من الانحراف" (٣)، وهو ما تّنه إليه مسبقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (تقاتل يا علي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله) (٤)، فالجهاد تحت راية

الإمام عليه السلام أحد عوامل قوة المجتمع الإسلامي في تثبيت عقيدة التوحيد، ولذا فقد قال الإمام عليه السلام (عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين) (٥).

ولذا لم يعرف المؤمنون حقاً بعد رسول الله ﷺ لولا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وتصريحه بالحق وتشخيصه لغدرهم ونكثهم وخوضه لحروب الجهاد الأمر الذي أفرز الحق عن الباطل بيده بعد أن كلّ لسانه، ولذا وقد كثرت خطب الإمام الجهادية، وقد تضمن الخطاب الجهادي للإمام عليه السلام الموضوعات الآتية:

دعوتهم إلى الجهاد وترغيبهم فيه:-

للجهاد قدسية عظيمة تنال المجاهدين بإعزاز دين الله ونصرته من جانب، ونيل طاعة الله والحصول على رضاه من جانب آخر، (فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَوَابِ الْجَنَّةِ فَتَدْعُهُ اللَّهُ لِخَصَّةٍ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَهُوَ عُمُ الْوَحْيِ وَالْحَصْدِيَّةُ وَجُنْدُهُ الْوَثِيقَةُ) (١).

ولذا يحاول الإمام عليه السلام ترغيبهم في الجهاد لما له من ثواب في الآخرة، لا في الدنيا خلافاً لما درجوا عليه من السعي للانخراط في الجيش ابتغاء لمطامع دنيوية مادية بما يتفق مع أهوائهم، بعد أن تحول الجهاد بعد رسول الله ﷺ إلى مورد رزق يدر على صاحبه مالا في الدنيا حتى أغناهم عن طلب الآخرة.

وقد سعى الإمام عليه السلام في ترغيب المجاهدين بالجهاد وبيان منزلته عند الله تعالى ذكره لإعادتهم إلى أيام الرسالة الخالدة، التي كان

(٣) دراسات في نهج البلاغة : ٤٥-٤٦.

(٤) الإرشاد : ٦٥.

(٥) المناقب : ١٧٦.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٧، ص ٦٩.

يندفع فيها المؤمنون لنصرة الإسلام، ويبذلون أرواحهم ويتسابقون للوصول إلى ما كان يعدهم الله عز وجل في كتابه، ويصف ذلك الإمام عليه السلام بقوله (وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَتْلُ آبَاءِنَا وَأُكْلُ بَنَاتِنَا وَإِخْوَانِنَا وَأَعْمَامِنَا مَا يَزِيحُ ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَدْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجَلًّا فِي جَهْدِ الدَّعْوَى وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَمَلِهِ لَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَخْرَانِ يَدُ خَلْسَانٍ أَنْفُسُهُمَا أَتُهُمَا يَسْقِي صَاحِبُهُمَا كَأْسَ الْمُنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَمَلِهِ وَمَرَّةً لِعَمَلِهِ لَنَا فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَهُ أَنْزَلَ بِعَمَلِهِ الْكَتَبَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَفَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَ الْهُومِ مُتَبَوِّنَا أَوْطَانَهُ^(٢)).

ولصلة الجهاد بالأخلاق الأصلية التي فطر الله عز وجل الإنسان عليها، فقد كان الإمام عليه السلام لا يكتفي بترغيبهم في دعوته بما عند الله من اجر بآرائه، وانما يحاول إثارة حميتهم عسى أن يصل إلى أخلاقهم الحق التي فطروا عليها، فتدفعهم الغيرة والخلق القويم وتثير حماسهم لنصرة الإسلام والمسلمين^(١).

ونجد في خطاب الإمام عليه السلام خير مثال يحتذونه، وأسوة حسنة يقتدون به ويتبعونه، إذ يمثل الإمام عليه السلام نفسه الخلق الجهادي العظيم، الذي يصفه الإمام عليه السلام بالقول (إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ وَالْأَبْيَ فَنَسُ أَنْ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفَرَّاشِ فِي عَمَلٍ طَاعَةِ اللَّهِ)^(٢)، وشجاعته حجة دامغة لا ترد، فالإمام عليه السلام هو الذي وضع بكلاكل العرب في زمن الرسول ﷺ^(٣) الذي لم يجبن ولم يتراجع يوماً^(٤)، مثلما هو (حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُزْتَابِينَ)^(٥).

تعليم المجاهدين وإغنائهم بتجاربه:-

يحاول الإمام عليه السلام نقل تجربة الجهاد التي خاضها مرّات عديدة وانصهرت في أعماقه قبل أن يدعوهم إليها بشكل مباشر، فيصف الإمام عليه السلام جهاده مع رسول الله ﷺ وإخوانه المسلمين أمامهم

(٢) م.ن : خ ٥٦، ص ٩٢.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٧، ص ٦٩.

(٢) م.ن : خ ١٢٣، ص ١٨٠.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٣٠٠.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٣٣، ص ٧٧.

(٥) م.ن : خ ٧٥، ص ١٠٣.

ليعكس صورة المجاهد الحق الذي يرى الله تعالى صدقه فيجعل النصر حليفه، فإما ان ينقلها بشكل مباشر في خطابه -كما في ترغيبهم للجهاد-، أو ينقلها بشكل غير مباشر من خلال ما يوصيهم به وما يحاول تعليمهم إياه فيشدد على صدق النية قائلاً (وَلْتَصَدُقْ ذِلَّتُكُمْ فِي جَهْدِ إِدْعَائِكُمْ)^(١)، ويسبق حروب الجهاد بتعليمهم فنون الحرب وما يلزم من الاستعداد لها.

ولا يتوقف عند توجيه الجنود إلى الحرب والمقاتلة، وما يمكن أن يكون سبباً في نصرتهم على العدو، بل يحاول الإمام تعزيز العوامل النفسية وتربية الأخلاق الروحية التي تعلمهم الصبر والسكينة والثبات في القتال، فتكون خشيتهم من الله تعالى فقط، لا من العدو لذا يقول (مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْهَيْبَةَ وَتَجَلَّبَّوْا السَّكِينَةَ وَاعْضُوا عَلَى النَّوَاجِذِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَأَكْمَلُوا الْأَمَّةَ وَقَلِّلُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَ إِهَائِهَا قَبْلَ سَلِّهَا)^(٢).

ويتجاوز ذلك إلى حواسهم فيحاول توجيهها إلى المسلك الصحيح الذي يقودهم للنصر^(٣) بقولهم (فَقَدِّمُوا التَّلَرَّعَ وَأَخَّرُوا الْحَاسِرَ وَاعْضُوا عَلَى الْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوَلُّوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ لِلْأَسِنَّةِ وَاعْضُوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَ دُلْفَتَلِ)^(٤).

ويحاول الإمام عليه السلام إفهام المجاهدين بموقف العدو ليتيح لهم إصدار القرار الصائب بقتاله من أعماق نفوسهم، ولا يشعرهم بإجبار على طاعة وإن كانت حق الله عليهم، كما حدث عندما استولى معاوية وأصحابه على الفرات ومنعواهم الماء إذ قال لهم الإمام عليه السلام (قَدِ اسْتَطَعْتُمْوَكُمْ الْقِتَالَ فَأَقْرُوا عَلَى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوْوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنَ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ)^(٥).

تشجيع المجاهدين وذم المقصرين:-

(١) م.ن : خ ١٩٧، ص ٣١١-٣١٢.

(٢) نهج البلاغة : خ ٦، ص ٩٧.

(٣) ينظر : م.ن : خ ١١، ص ٥٥.

(٤) م.ن : خ ١٢٤، ص ١٨٠.

(٥) م.ن : خ ٥١، ص ٨٨-٨٩.

يستخدم الإمام عليه السلام مع المجاهدين أسلوب التحفيز لإثارة دوافعهم^(١)، وتوجيهها للعمل بطاعة الله والجهاد في سبيله، فقد كان الإمام عليه السلام دائم الإطراء على شجاعة أنصاره الأخيار بوصفهم بالقول (أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ وَالْجُنَّةُ يَوْمَ الْبَاسِ وَالْبَطْ أَنَّهُ لَوْ أَنَّ النَّاسَ بِكُمْ أَضْرَبُ الْمُدْبِرِ وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ فَأَعْيُونِي بِمَلَصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِّنَ الْغَيْشِ سَلِيمَةٍ مِّنَ الرَّيْبِ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوَّلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ)^(٢).

وكان الإمام دائم الثناء على حسن بلاء المجاهدين لدفعهم إلى القتال وحثهم على بذل أنفسهم في سبيل الله والتشديد على أهمية رباطة الجأش في سوح القتال، بوصفها هبة من الله تعالى لبعض من يخلص بها، وحثهم على مساعدة من يفتقدها، وتمييز الشجعان منهم بإعطاء الراية بقوله عليه السلام (وَرَأَيْتَكُمْ فَلَا تُمِيزُ وَلَا تَخْذُ وَلَا تَجْعَلُ وَهًا إِلَّا بِأَيِّ شُجْعَانِكُمْ وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ)^(٣)، ويثني الإمام عليه السلام على المواقف المشرفة للمجاهدين قائلاً (وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ وَأَنْحَدَ أَرْكَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ تَحُورُكُمْ الْجَفَاءُ الطَّغَامُ وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ وَأَنْتُمْ لِهَامِيمِ الْعَرَبِ وَيَأْفِيخِ الشَّرَفِ وَالْأَنْفِ الْمُقَتَّلِ وَالسَّعْلِ الْأَعْظَمِ وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتَكُمْ بِأَخَوَةٍ تَحُورُ وَهُمْ كَمَا حَارُوكُمْ وَتُزِيلُ وَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَرَأَلُوكُمْ حَسّاً بِالتَّصَالِ وَتَجَرّاً بِالرِّمَاحِ تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودَةِ تُزْمَى عَنْ حَيَاضِهَا وَتُذْ أَدْعَنُ مَوَارِئَهَا)^(٤).

على أننا لا نجد في خطب الجهاد إثارة للهمم وإنعاشاً للنصرة فحسب، بل نجد الإمام عليه السلام في أواخر خطبه يستخدم أسلوب تعنيفهم وتقريعهم، بعد تصوير توانيهم وعجزهم وما كان يبدو عليهم من إمارات دالة على تراجعهم وهزيمتهم، محاولاً استنهاض همهم لخلق الفاعلية الجهادية، متأملاً بتقريعه هدايتهم إلى طريق الحق، مؤمناً بالبداة^(٥).

(١) ينظر : السياسة الإدارية في فكر الإمام : ١٥-١٥١.

(٢) نهج البلاغة : خ ١١٨، ص ١٧٥.

(٣) م.ن : خ ١٢٤، ص ١٨٠.

(٤) م.ن : خ ١٠٧، ص ١٥٥.

(٥) وذلك في قوله تعالى ((يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)) (سورة الرعد / ٣٩). ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية قوله (وهل يمحي إلا ما كان ثابتاً، وهل يثبت إلا ما لم يكن)، وقوله (إن الله عز وجل أخبر محمداً ﷺ بما كان منذ كانت الدنيا وبما يكون إلى انقضاء الدنيا وأخبره بالمحتوم من ذلك واستثنى عليه فيما سواه). أصول الكافي : ١/ ١٦٧-١٦٩.

ويذكر الإمام عليه السلام المجاهدين بما دعاهم له، ويضع أمامهم صورة العدو، ويقابل بها مواقفهم منه، ويذكرهم بأعدائهم الواهية التي لا تعبر إلا عن هزيمة متوقعة بالقول (فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقُلُوبَ وَيَجْلِبُ إِلَيْهِم مِّنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرْحاً حِينَ صِرْتُمْ عَوْصاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُ وَلَا تَغْرَوْنَ وَلَا تَغْرُ وَلَا وَيُعْصِي اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هِيَ حَمَارَةٌ الْقَيْطِ أَمْهَلْ لَا يُسَدِّجُ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هِيَ صَبَارَةٌ الْفَرِّ أَمْهَلْ لَا يَنْسِلُخُ عَنَّا الْبَرُّ دُكُلٌ هَذَا فِرَارٌ مِّنَ الْحَرِّ وَالْفَرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِّنَ الْحَرِّ وَالْفَرِّ تَقِرُّ وَنَفَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِّنَ السَّيْفِ أَفَرُّ)^(٢).

ويصور الإمام عليه السلام خلاتهم من دورات أعين وسواه (إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَةٍ ادْعَاؤُكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِّنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُّ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُ وَنَوَكَا نَفُوبُكُمْ مَّا لَوْسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ)^(٣).

ويشدد الإمام عليه السلام على رفضهم لاستنفاره (اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَةِ إِذَا فَلَمْ تَنْفَرُوا وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشْهُهُ وَدُكُلُ يَابٍ وَعَدِيدُكَارِبَابٍ أَتَلَوْا عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفَرُوا وَمِنْهَا وَأَعْظَمُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَنْفَرُوا وَنَعْنَهَا وَأَحْتَكُمُ عَلَى جِهَةٍ إِذَا أَهْلُ الْبَغْيِ)^(١).

متوقفاً ما سيكون منهم بقوله (وَ أَيْمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنَّ لَوْ حَمَسَ الْوَعْيَ وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَدْ انْفَرَجْتُمْ عَنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّاسِ)^(٢)، وعندما لا يجدي ذلك نفعاً يكون ذمهم على تقصيرهم في حق الله، وتهاونهم في طاعته، وتخاذلهم عن نصرته الإسلام خير أسلوب يحاول به الإمام عليه السلام ان يستحثهم (يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومِ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رِبَلَتِ الْحِجَالِ لَوْ دُنْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمُ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ تَدَمّاً وَأَعْقَبَتْ سَدَمّاً فَاتْلُكُمْ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُ قَلْبِي فَجْياً وَشَحَنْتُ صَدْرِي غَيْلاً وَجَرَّ غَمُونِي دُغْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُ عَلَى رَأْيِي بِالْعَصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ)^(٣)، فكان

(٢) نهج البلاغة : خ ٢٧، ص ٧٠.

(٣) م.ن : خ ٣٤، ص ٧٨.

(١) نهج البلاغة : خ ٩٧، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) م.ن : خ ٣٤، ص ٧٨.

(٣) م.ن : خ ٢٧، ص ٧٠.

خطاب الإمام عليه السلام غنياً باستخدامه لأسلوب الثواب والعقاب مع المقاتلين.

التشديد على عدالة الحرب الجهادية التي يقودها:-

يمثل الإمام عليه السلام جانب الحق الذي لا باطل فيه، وعلى الرغم من كون عصمة الإمام عليه السلام من جانب، وأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من جانب آخر كافيين لإثبات ذلك، وكان الإمام عليه السلام يشدد على هذا الجانب في خطابه الجهادي معلناً عدالة موقفه وداعياً لهم إلى التزام جانبه، إذ لم يكن الإسراع إلى الحرب طريق الإمام عليه السلام مثلاً لم يكن الإسراع إلى معاقبة المقصرين، فالكي آخر دواء يستخدمه الإمام عليه السلام^(٤).

لم تكن حروب الإمام عليه السلام دفاعاً عن حق شخصي بل كانت حفاظاً على الإسلام وفضحاً للباطل الذي كان خافياً تحت شعار الحق المعلن، فقد كان النفاق سمة أعداء الإمام عليه السلام الذين كان طريقهم الباطل، إلا أنهم يتّعون الحق ويوهمون المسلمين أنهم أهله، ولذا لم يجدوا من الإمام عليه السلام سوى حد السيف وكفى به ناصراً للحق، فكان الإمام عليه السلام يحاول التفاوض وإرسال الوفود حقناً للدماء، على الرغم مما يعلمه من سمات أعدائه، نحو وصفه لأصحاب الجمل بالقول (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَّوْا عَلَى سَخَطَةِ إِمَارَتِي وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَؤُلَاءِ حَسِداً لِمَنْ أَفَاءَ لَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَرَأُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهِ)^(١).

ولم يكن الإمام عليه السلام ليبدأهم بالحرب محاولاً لآخر لحظة أن يقرع الخصم ويفند حجته علّه يعود ويتراجع عن موقفه، فكان يتهيأ للجهاد، ويحث أصحابه عليه والأمل يحده لآخر لحظة قبل ابتدائهم بالقتال في أن تكون الهداية للحق والانصياع له بديلاً عن القتال، وقد يستغرق ذلك أياماً فيثير اللغط والكلام، فيجيبهم (فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ وَأَمَّا قَوْلُكُمْ سَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْدَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْذِي بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِإِثْمِهَا)^(٢).

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

(١) نهج البلاغة: خ ١٦٩، ص ٢٤٤.

(٢) م.ن: خ ٥٥، ص ٩١.

في حين يصف الإمام عليه السلام العكس في موقف آخر يحاول به أصحابه منعه في صفين من قتال أهل الشام بالقول (فَتَدَاكُوا عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلُ الْهَيْمَ يَوْمَ وَرَبِّهِ وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيَهَا وَخُلِعَتْ مَنَانِيهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ وَقَدْ قَلَبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنُهُ وَظَهَرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُدُّ وَدُبَمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَأَنْتَ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَى نَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ وَمَوْتَاتُ الشُّيَا أَهْوَى نَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ)^(١).

فالإمام عليه السلام يوصي بعدم مبادرة العدو بالقتال^(٢)، مثلما لا يقود حرباً إلا بعد أن يكون الخيار هو (الْقِتَالُ أَوْ الْكُفْرُ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)^(٣)، فإن أجبر على القتال فعدالة الحرب تجعله يوصيهم بالتزام خلقي حتى مع أعدائه^(٤)، ولذا لا يجدون سوى حدّ السيف وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق.

تثبيت قلوب المجاهدين:-

يحاول الإمام عليه السلام تثبيت قلوب المجاهدين، حيث إن لذلك أثر كبير ولا سيما في حروب الإمام عليه السلام العقائدية التي لا تقوم إلا بتثبيت القلوب ومنع الشك من السريان فيها، الأمر الذي كان يرد مع كثير من أنصار الإمام عليه السلام قبل أعدائه.

ومن هنا كان تشديد الإمام عليه السلام للجميع على كونه الحق الذي يهتدون بنهجه^(٥)، وتنفيرهم من الفرار بوصفه عاراً عليهم، وترغيبهم في الجهاد وتثبيت قلوبهم بذكر الآيات القرآنية التي تقويها وتثير عزائمهم وتذكي الحماسة فيهم وترغبهم بالقتال في سبيل الله تعالى، والتشديد على منزلة الإمام عند الله سبحانه ورسوله ﷺ بتذكيرهم بأنهم مع خليفة الله تعالى في الأرض بالقول (اعْمُوا أَنْكُمْ بِعَنِ اللَّهِ وَمَعَ أُنِي عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ)^(٦)،

(١) نهج البلاغة : خ ٥٤، ص ٩٠-٩١.

(٢) يوصي الإمام علي ابنه الحسن عليهما السلام (لا تدعون إلى مبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع). م.ن : قول ٢٣٣، ص ٥٠٩.

(٣) م.ن : خ ٤٣، ص ٨٤.

(٤) إذ يوصيهم الإمام عليه السلام قبل وقعة الجمل (لا يرمين رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح، حتى أحدث اليكم، وحتى يبدؤكم بالقتال وبالقتل). الجمل وصفين والنهروان :

١٦٣.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٦٢، ص ٢٣٢.

(٦) م.ن : خ ٦٦، ص ٩٧.

وعلى مكانته الجهادية بوصفه قطب رحي الوجود (وَإِنَّمَا أَتَى الْقُطْبُ الرَّحَى
تَلُورٌ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُ هَوِّ اضْطَرَبَ ثِقَالُهَا^(١))،
وكونه الحق الذي تعد أي راية ضلال تقف بوجهه وتخرج عن طاعته راية
واهية، وفي ذلك تشديد لا على ضلالة من يخرج عليه فحسب، بل إثارة
الهمم بالرد على التقولات التي تثبت شكهم فيه وتغذيه.
ومن هنا تجمع خطب الجهاد عند الإمام بين صنفَي الخطابة وتؤكد
امتزاجهما، فدعوة الإمام الجهادية دعوة قائد سياسي له حنكة سياسية
وخبرة من يعرف الحق ويحمل رايته ويدعوهم للسير تحت لوائه وطاعته،
وواعظ ديني متعظ يدعوهم للاقتداء به.

(١) نهج البلاغة : خ ١١٩، ص ١٧٦.

مدخل : الإمامة قدرة وهداية

اصطفى الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ لآخر النبوات بالشرعية الخاتمة التي خصها بإقامة الحكم الإسلامي وتطبيقه على الناس، لبقاء الغاية التي خصت بها الشريعة في معرفة الله سبحانه وتعالى من جانب والوصول إلى الكمال من جانب آخر.

ولقد جعل الله تعالى الإمام عليه السلام بعد رسول الله ﷺ ولياً لأمر الله، مبلّغاً عنه رسول الله ﷺ، ومن بعده الأئمة من ذريته عليهم السلام قنوات اتصال توصل الخلق بحسب استعدادهم وقابليتهم إلى الغاية الكمالية. فقد جعل الله تعالى أوليائه أدلاءً مرشدين إليه، مفوضين بإذنه تعالى ومديرين لأمر التكوين بأمره، ولا يتصرفون إلا بمشيئته التي جعل الله قلوبهم أوعية لها، وجعلهم مظاهر لقدرته وإرادته^(١)، ولذلك لا تقتصر الإمامة على اقتداء أو رئاسة، أو ولاية تشريعية غايتها سنّ الأحكام وتشريعها وتوضيح الأخلاق.

فقد تجسدت في الإمام والأئمة من ولده عليهم السلام العبودية المطلقة لله التي وصل بها إلى أعلى درجات اليقين بالله حتى أصبح قلبه مستودعاً لمشيئة الله تعالى^(٢)، بعد أن فوض تعالى إلى رسوله تشريع الأحكام، بما يجري في الخط العام لمشيئته سبحانه.

الإمامة ولاية تكوينية -مثلما هي تشريعية- أي "بمعنى النفوذ الروحي للأئمة عليهم السلام وتأثيرهم على نفوس الآخرين لهداية القلوب القابلة للهداية والتأثير فيها بحسب استعدادها لذلك، إذ تمثل ماهيتهم المقدسة حقيقة الأسماء الحسنى .

إن الإمامة قدرة وسلطة روحية وتفويض من الله سبحانه وتعالى مثلما هي هداية لطريق الكمال، لان "السائر في طريق الكمال لا بد له من

(١) ينظر : المظاهر الإلهية : ٢٧٩/١.

(٢) يقول الإمام الصادق عليه السلام (قلوبنا أوعية لمشيئته فإذا شاء شئنا، والله يقول ((وما تشاءون إلا أن يشاء الله))) (سورة الإنسان/٣٠). بحار الأنوار : ٣٣٧/٢٥، نقلاً عن التوحيد : ٤٤٨/١.

*يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في تفسير قوله تعالى ((والله الأسماء الحسنى فادعوه بها)) (سورة الأعراف/١٨٠) انه قال (نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا). وعن الإمام الباقر عليه السلام قوله (بنا عبد الله وبنا عرف الله وبنا وحد الله تبارك وتعالى، ومحمد حجاب الله تبارك وتعالى). أصول الكافي : ١٦٤-١٦٦ على التوالي.

قدوة وأسوة يعرف فيها نفسه وربّه والطريق الذي يوصله إليهما بالشكل الأتم والأكمل^(١).

ومن هنا فقد كان الإمام وأهل بيته من بعده عليهم السلام كما يصفهم الإمام بقوله (فإننا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا)^(٢)، "أي إن الله سبحانه صنعهم، أي ربّاهم وعلمهم وأدبهم فتخلقوا بأخلاقه سبحانه، وهم عليهم السلام أتوا وعلموا البشر على الآداب والأخلاق والطاعات"^(٣)، فقد جعلهم الله سبحانه وتعالى أعلاماً هادية كما في وصف الإمام عليه السلام إذ يقول (أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا هِيَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ فَكَانَتْكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنْ اللَّهِ فَيَكُمُ الصَّدَقُوعُ وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ)^(٤).

فقد جعل الله تبارك وتعالى الإمام عليه السلام -والأئمة من بعده عليهم السلام- علماً هادياً إلى الحق^(٥)، وباباً لكل علم^(٦)، وهو قيم القرآن المفترضة طاعته، والحجة على الخلق بعد رسول الله ﷺ^(٧)، فقد جعل الله تبارك وتعالى الإمام عليه السلام -وأهل بيته من بعده عليهم السلام- دليلاً على الخير، ودعامة للحقائق، وعصمة للطاعة، وعوناً عليها، إذ يقول الإمام عليه السلام (أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبِّحَ أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِلَّهِ خَيْرَ أَهْلًا وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ وَلِلطَّاعَةِ عَصَمًا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنْ اللَّهِ سُبِّحَ أَنَّهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلِّ سَبَّحٌ وَيُذَبِّبُ الْأَفْنِدَ فِيهِ كِفَاءً لِمُكْتَفٍ وَشِفَاءً لِمُسْتَشْفٍ)^(٨)، مثلما جعله شاهداً على إخلاصهم في طاعة الله سبحانه^(٩)، كما كان رسول الله (شاهداً على

(١) المظاهر الإلهية : ٢٧١.

(٢) نهج البلاغة : كتاب ٢٨، ص ٣٨٦.

(٣) المظاهر الإلهية : ٢٦٠.

(٤) نهج البلاغة : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

(٥) عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل ((إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)) (سورة الرعد/٧) أنه قال (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذر ولكل زمان منا هادي يهديهم إلى ما جاء به نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم الهداة من بعده علي ثم الأوصياء واحداً بعد واحد). أصول الكافي : ٢١٤/١.

(٦) قال الإمام الصادق عليه السلام (أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً، عرفه من عرفه وجهله من جهله، ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن). أصول الكافي : ٢٠٥/١.

(٧) ينظر : أصول الكافي : ١٨٩/١-١٩٠. ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن القائم قوله (كلنا قائم بأمر الله، واحد بعد واحد حتى يجيء صاحب السيف، فإذا جاء صاحب السيف جاء بأمر غير الذي كان). أصول الكافي : ٦١٢/١-٦١٣.

(٨) نهج البلاغة : خ ٢١٤، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٩) ينظر : م.ن : قول ٣٢٤، ص ٥٣٢.

الْحَقِّ)^(٤)، ولذا يقول الإمام عليه السلام (أَلَا تَلَهُ دُلْكُم وَحَجِيجُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُم)^(٥)، ذلك اليوم الذي تأتي فيه (كُلُّ فُسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَيْ يُدْسَائِقُ يَسُوقُهَا إِلَى مَدَنٍ هَلْ وَ تَلَهُ دَيْشَهُ دَعَلَهَا بِعَمَلِهَا)^(٦).

(٤) م.ن : خ ١١٦، ص ١٧٣. يروى عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى ((ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)) (سورة الحج/٧٨) انه قال (رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى ونحن الشهداء على الناس فمن صَقَّ يوم القيامة صَقْنَاهُ وَمَنْ كَذَّبَ كَذَّبَ بِنَاهُ) ينظر : أصول الكافي : ٢١٤/١.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٧٦، ص ٢٥٣.

(٦) م.ن : خ ٨٥، ص ١١٦.

بلاغة الخطاب الرسالي

لقد كانت هداية الناس إلى طاعة الله تعالى الهدف الأساس لمنصب الإمامة، فالإمامة نعمة تفضل بها الله سبحانه على عباده، للحفاظ على الشريعة وتثبيت العقيدة في نفوسهم من بعد النبوة الخاتمة، والحفاظ على القرآن، واستخراج العلوم التي نزل بها، وحمايته من أن يصيبه التحريف الذي أصاب الكتب السابقة بعد انتهاء النبوة الخاتمة.

وقد أضاف تغير المجتمع عما كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليه السلام مهمة جديدة - وإن كانت تصب في مهمته - وهي تصحيح الانحراف في المجتمع، وإعلاء كلمة الحق وفصله عن الباطل لهدايتهم إلى طريقه.

وقد أتاح للإمام عليه السلام تسلمه لمنصب الخلافة الرسمي الوقوف على منبر الرسول ﷺ موصلاً صوته إلى أكبر جمع ليعلي كلمة الحق ويعلمها في خطابه.

وذلك بما خصّ به الإمام عليه السلام - ومن بعده أهل بيته عليهم السلام - من مخاطبة الناس على قدر عقولهم، للتأثير فيهم إقناعاً وإفهاماً لا لإثبات رأي أو التعصب له، أو الانتصار لفكرة ولا لكسب تأييدهم، أو استمالتهم للالتزام جانبه، فكان خطاب الإمام عليه السلام خطاب العقيدة الخالد.

وقد توجه الإمام عليه السلام في خطابه لمخاطبيه بصفته طبيباً لنفوسهم، محاولاً مداواة الجروح التي خلفتها الفتن وتثبيت العقيدة الحق في قلوب مخاطبيه، فالإمام عليه السلام (طبيب دَوَّارٍ بِطَبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يُضَعُّ ذَلِكَ دَيْثُ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنْ قُلُوبِ عُمَى وَأَذَانِ صَمٍّ وَالْ سَةِ بَكُمْ مُتَدَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ)^(١)، وذلك بعد تشخيص الأمراض التي سببها ابتعادهم عن خط الإمامة لكونهم (لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزَنَادِ الْعُلُومِ النَّاقِبَةِ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ)^(٢).

(١) نهج البلاغة : خ ١٠٨، ص ١٥٦.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٠٨، ص ١٥٦.

ولا يمثل خطاب الإمام عليه السلام إلا جانباً من كلامه^(٢)، إلا أنه الكلام الذي يجمعه بمخاطبيه في موقف واحد، ولو حاولنا تلمس بلاغة الإمام عليه السلام في جزء من خطابه المتوجّه به للناس - لا في خطابه كله - لأن خطاب الإمام عليه السلام خطاب إعجازي لا يمكن الوقوف عليه - من خلال المهمة التي توجه بها، لوجدنا أن بلاغته لم تكن بلفظ أو معنى أو أسلوب فحسب*، بل كانت بلاغة خطاب الإمام عليه السلام علماً رسالياً يجمع - إلى ما لا يمكن الإحاطة به - معرفة الإمام عليه السلام بمخاطبيه من جانب وقدرته على هدايتهم من جانب آخر، ويمكننا تلمس جانباً منها في اهتمامه بمخاطبيه بجعلهم الهدف الأساس لتوجيه خطابه، ومطابقة خطابه لمقتضى حالهم^(٣)، ويتضح هذا الاهتمام من خلال زوايا عة:

مراعاتهم في الخطاب:-

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الإمام عليه السلام أميناً على وحيه وحافظاً لسرّه ومصدراً للعلوم كلها، فقد وسع علمه طرق السماء قبل طرق الأرض^(١)، وما طوي عن الجميع غيبه^(٢) قبل ما كانوا يعلمونه، حتى بلغ الإمام عليه السلام في علمه الرسالي إلى درجة يخاف فيها عليهم الكفر، فلا يفضي بعلمه الباطن إلا للخاصة منهم إذ يقول (وَاللّٰهُ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ

(٢) يدور كلام الإمام عليه السلام في النهج على ثلاثة أقطاب: الخطب والأوامر، الكتب والرسائل، الحكم والمواعظ. ينظر: م.ن: مقدمة الشريف الرضي: ٣٥.
* نريد بدراسة بلاغة الخطاب هنا دراستها من جانبيها التوصيلي المقترن بها، أي من حيث ان البلاغة أداء وتوصيل وتبليغ - كما ذكرنا في التمهيد-، ومن أراد التوسع، فهناك دراستان سابقتان عن بلاغة خطاب الإمام عليه السلام، الأولى رسالة ماجستير بعنوان "التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام"، عباس الفحام، ويدرس فيها خطاب الإمام عليه السلام من خلال بلاغته المتركة في التصوير الفني المتمثل بأساليب متعددة (تشبيه، واستعارة، وكناية) أي ما يمثل الأسلوبية القديمة، ودراسة أخرى تجمع خطابه مع خطابات سابقه، إلا أنها تشدّ على خطاب الإمام عليه السلام، وهي رسالة دكتوراه بعنوان "خطب الخلفاء الراشدين" دراسة أسلوبية، إيمان خليفة حامد تدرس خطاب الإمام عليه السلام من خلال (أدبية الخطاب) الأمر الذي ركزت عليه الأسلوبية الحديثة.

(٣) وهو الأمر الذي دارت حوله فيما بعد أبحاث علم البلاغة. ينظر: الأسلوب: ٣٦.

(١) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٨٩، ص ٢٨١.

(٢) ينظر: م.ن: خ ١١٦، ص ١٧٣.

كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ وَلَكِنْ أَخَفْتُ أَنْ تَكْفُرُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَنَا مَفْضِيهِ إِلَى الْخَصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ^(٣)، ولم يكن يريد بالخاصة أو العامة من الناس إلا درجة إيمانهم واعتقادهم بالإمام عليه السلام ومعرفة معرفتهم بحقه، لأنه يعلم أن من الناس من كان قلقاً في إيمانه^(٤)، فكلما ازداد الإنسان تصديقاً للإمام عليه السلام بقلبه ومعرفة بعلمه ازداد اقترباً من علمه، وصار ممن لا يخاف منه على الدين بغلو أو شك، وهو ما وصفه الإمام عليه السلام بقوله (ليحبني أقوام حتى يدخلهم حبي النار، ليبغضني أقوام حتى يدخلهم بغضي النار)^(٥).

وقد جعل الله تعالى قلوب عباده أوعية للعلم تنهل بحسب قربها من الإمام عليه السلام، فمن أحبه واقترب منه كان علمه الهادي، فصفا القلب بحب الإمام عليه السلام الذي تجسّد فيه الكمال الإلهي، ونقاؤه بالاقتداء به، ولذا قال الإمام عليه السلام (إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عُبْدٌ مُؤْمِنٌ أَمْتَدَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ وَلَا يَعْجِي حَدِيثُهُ إِلَّا صُورٌ أَمِينَةٌ وَأَحْلَامٌ رَزِيَّةٌ)^(١)، فلا يصل إلى الإمام -وأهل بيته من بعده- عليهم السلام إلا من كان الإيمان ثابتاً مستقراً في قلبه^(٢).

كان العلم الذي وهبه الله سبحانه وتعالى للإمام عليه السلام مما لا يمكن لعقول الجميع إدراكه إلا الخاصة منهم، فكلام الإمام عليه السلام من كلام الرسول ﷺ الذي (لَهُوَجْهَانِ فَكَلَامٌ خَلَصٌ وَكَلَامٌ عَامٌّ)^(٣)، ويريد النبي ﷺ بهذا الخاص منزلة الإمام عليه السلام، ولذا يخاطبه عند فتحه خيبر (لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلت فيك اليوم

مقالاً لا تمر على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك، وفضل طهورك، يستشفون به)^(٤).

(٣) م.ن : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٦٢، ص ٢٣١.

(٥) أنساب الأشراف : ١٢٠.

(١) نهج البلاغة : خ ١٨٩، ص ٢٨٠.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٨٩، ص ٢٧٩.

(٣) م.ن : خ ٢١٠، ص ٣٢٧.

(٤) المناقب : ١٢٩.

ولم يجد الإمام عليه السلام حملة لكلامه حتى من خاصة أصحابه، إذ كان العلم يضيق في صدر الإمام عليه السلام فيخرج إلى الجبانة ليلقيه قائلاً لكميل (ها إن هاهنا لعلماً جماً وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حملة)^(٥)، وحتى خاصة أصحاب الإمام عليه السلام لم يكونوا في العلم سواء، فكان منهم من وصل إلى درجة من العلم الرسالي حتى أصبح من أهل البيت عليهم السلام^(٦)، ومنهم من خيف عليه الوصول إلى ذلك المستوى من معرفة الحق فقليل فيه (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله)^(٧).

وكان أغلب خطاب الإمام عليه السلام على المنبر موجه إلى العامة من الناس^(٨)، فقد كان الإمام عليه السلام يخشى على الناس من الغلو إفراطاً أو تفريطاً، الأمر الذي وصفه بالقول (سَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانِ مُحِبُّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى عَوِي الْحَقِّ وَمُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى عَوِي الْحَقِّ وَخَوُّ النَّاسِ فِي حَالِ النَّمَطِ الْأَوْسَطِ فَلَا زَمُّهُ)^(٩).

لقد كان الإمام عليه السلام يخشى على الناس من الغلو في علمه، فيجعل مرتبته النبوة^(١٠)، أو إلى أكثر من ذلك بما يخرجهم عن العبودية لله جلّ وعلا، التي تجمعهم وإياهم عند سماعهم لذلك العلم في خطاب الإمام عليه السلام، ولا سيما حين يخبرهم بما سيكون عليه مستقبل الزمان تحذيراً من عواقب أعمالهم، وتنبيهاً لهم للالتزام نهج أهل بيته، فلا نجاة من الفتن إلا بهم، فيجيب الإمام عليه السلام من ينسب إليه علم الغيب بالقول (أَيُّنَ هُوَ يَعْلَمُ غَيْبٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلَّمَ مِنْ نَبِيِّ عِلْمٍ وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا عَدَدَهُ اللَّهُ سُدْبَدَ اللَّهِ يَقُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْكِتَابَ وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي فُسٌّ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي فُسٌّ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ الْآيَةُ فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُدْبَدَ اللَّهِ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ

(٥) نهج البلاغة : قول ١٤٧، ص ٤٩٦.

(٦) ينظر : أصول الكافي : ٤٥٥/١.

(٧) صحيفة الأبرار : ٣٠/١.

(٨) ونريد بذلك ما جمعه الشريف الرضي في النهج، لأن في المستدركات خطباً توضّح شيئاً من منزلته وبعضاً من علومه عليه السلام نحو قوله (أنا صراط الله الذي لم يسلكه هوى، وأنا سبيله الذي نصبني بعد نبيه ﷺ، أنا قسيم الجنة والنار، وأنا حجة الله على الفجار والأبرار). ينظر : مستدرک نهج البلاغة ومداركه : ٨٢-٨٣.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٢٧، ص ١٨٤.

(١٠) ويرد الإمام عليه السلام على من يشك في كونه نبياً بالقول (ويلك إنما عبد من عبيد محمد صلى الله عليه واله). التوحيد، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق : هاشم الحسيني، قم، ١٣٨٧هـ : ١٧٥.

وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ وَتَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا أَوْ فِي الْجَنَّةِ
لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا فَهَذَا عِلْمٌ أَلْغِي الرِّيَّ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ
عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَلَّمَنِيهِ وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَ هُصْدَرِي
وَتَضُمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي^(١)، حيث إن أغلب ما أخبر به الإمام عليه السلام
من مغيبات سبقه النبي ﷺ إلى الإخبار عنها^(٢).

ولم يكن الغلو فقط ما يخافه عليهم، بل كان يخاف على مخاطبيه عدم
تحملهم للعلم الذي يوصله إليهم، وهو ما يوضحه تناقل الإمام عليه السلام
في إجابة أحد سائله عن وصف المتقين حيث وصفهم أولاً بما وصفهم به
الله سبحانه دون التعمق في ذلك الوصف، وعندما سُئل المزيد وأجاب
بخطبة تصف المتقين أدق وصف، كان من اثنين من مخاطبيه موقف على
طرفي نقيض، فقد طارت روح سائله حباً لله وشوقاً إلى ما أعد لها بارئها،
ونفت الشيطان على لسان آخر، فردّ على الإمام عليه السلام أمراً أنفذته
مشيئة الله عز وجل^(٣).

وعلى الرغم من أن خطاب الإمام عليه السلام كان يصل إلى
مخاطبيه كلّ بقدر، فقد اتجه الإمام عليه السلام إلى مراعاة المخاطبين فيما
يطلقه من خطاب، فالإمام يعلم أن الناس ليسوا سواء وانهم أصناف^(٤)،
سواء أكان ذلك في العلم^(٥)، أو في الرأي^(٦)، أو في البيعة^(٧)، أو في أمور
أخرى، وهو الأعلم بما تكنه نفوسهم، فلا يخاطبهم إلا بما فيه صلاحهم
وإصلاحهم في الدارين.

لذا كان الإمام عليه السلام يحرص على أن يكون مخاطبيه الطرف
الأول المرسل للخطاب ليكون خطابه رلاً عليه، إذ كان يتوجه لهم ويحثهم
على السؤال فهو الأعلم قائلاً (أَتُهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقَهُونِي فَلَا نَا
بِطَرْقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطَرْقِ الْأَرْضِ)^(٨).

(١) نهج البلاغة : خ ١٢٨، ص ١٨٦.

(٢) ينظر : فلسفات إسلامية : ٦٥١.

(٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٣-٣٠٦.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٣٢، ص ٧٤-٧٥.

(٥) يقول الإمام عليه السلام لكميل (الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا، وهمج

رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن

وثيق). م.ن : قول ١٤٧، ص ٤٩٦.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٦، ص ٥٨.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٨٩، ص ٢٨١.

لقد كان الإمام عليه السلام على معرفة بسامعيه، ولذا لا يخاطبهم إلا بحسب مداركهم وما تتحمله عقولهم، والأغراض التي تدفعهم للسؤال، لذا نجد جواباً مختلفاً لسؤال يكاد يكون واحداً، فقد سأله أحدهم وصف ربّه، وآخر عن رؤيته له -مع الفارق في نوع السؤال-، فيجيب الأول بخطاب طويل يحول فيه غضبه لما يرى عندهم من جرأة على الله تعالى إلى كلمات تشع بفيض الله جلّ وعلا^(٢)، في حين يجيب السائل الآخر بخطاب موجز ينم عن معرفته بغرض السؤال وكونه غير مغال، حيث يقول عليه السلام (لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُ شَاهِدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ مِّنَ الْأَشْيَاءِ عَوِّ مَلَابِسٍ بَعِيدٍ مِنْهَا عَوِّ مُبَايِنٍ مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ مُرَّ يَدًا بِهَمَّةٍ صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْهَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَّةِ تَعْنُو الْوُجُوهَ لِعَظَمَتِهِ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَفَتِهِ)^(٣)، ومن هنا فقد كان الإمام عليه السلام يخاطب المجتمع بنوعيه مفرطاً ومفرطاً^(٤).

تكييف خطاب الإمام:-

يمكننا تلمس بلاغة خطاب الإمام عليه السلام في تكييف هذا الخطاب تبعاً لمخاطبيه من جانب، وللمقام أو الموقف الذي يستلزمه الخطاب ويحيط بطرفيه من جانب آخر.

فقد شدّ الإمام عليه السلام على تكييف الخطاب بحسب أحوال من يوجه إليه ذلك الخطاب، والصفة التي يتصف بها، وبحسب استعداد المخاطب لتلقي ذلك الخطاب، إذ يوصي ابن عباس الذي أنفذه إلى الزبير ليقتنعه قبل حرب الجمل، بالعودة إلى بيعة الإمام عليه السلام، فيفرّق بينه وبين طلحة في الصفة ويوصيه قائلاً (لَا تُلَقِّينَ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقَّاهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرَّ تُهَيَّرَكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ هُوَ الدَّلُولُ وَلَكِنْ أَلِقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلَيْنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ أَنِّي خَلَلْتُكَ عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ)^(١)، ويشدد على توجيه الخطاب الذي يقنعهم ويلزمهم الحجة^(٢).

(٢) ينظر: م.ن: خ ٩١، ص ١٢٤-١٣٦.

(٣) م.ن: خ ١٧٩، ص ٢٥٨.

(٤) ينظر: علوم نهج البلاغة: ٣٧٢.

(١) نهج البلاغة: خ ٣١، ص ٧٤.

(٢) ينظر: م.ن: كتاب ٧٧، ص ٤٦٥.

وقد كان الإمام عليه السلام يكيف خطابه تبعاً للمواقف والأحداث التي تمر بهم ليواكب تلك الأحداث حرباً كانت أم سلماً. ففي موقف الحرب لا يخرج لقتال حتى يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء فمنه النصر والتوفيق أولاً وآخراً، وليثبت قلوبهم على الإيمان، فعندما رأى إصرار الناكثين على القتال، رفع يديه إلى السماء وقال (اللهم إليك شخصت الأبصار وبسطت الأيدي وأفضت القلوب وتقربت إليك بالأعمال ((ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)))^(٣).

ويسبق ذلك بدعوتهم للجهاد وتعليمهم على فنون القتال بخطاب يصل سلاحهم بجوارحهم نحو قوله (فَقَدِمُوا وَالسِّلَاحَ وَأَخِرُوا الْخَاسِرَ وَعَظُوا عَلَى الْأَضْوَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلْسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَالتَّوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَمُورٌ لِلْأَسِنَّةِ وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَمِينُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرُ دُلْفَاسٍ وَرَايَتُكُمْ فَلَا تُمِيدُ وَهَ وَلَا تُخْذُ وَهَ وَلَا تَجْعَلُ وَهَ إِلَّا بِأَيْبِي شُجْعَانِكُمْ وَ الْمَانِعِينَ الدِّمَارَ مِنْكُمْ)^(٤)، وفي الخطاب نفسه يشوقهم إلى لقاء الأعداء متوجهاً إلى الله تعالى بالدعاء عليهم قائلاً (وَاللَّهِ لَا تَلْ أَشَوْقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا يَارِهُمُ اللَّهُمَّ فَإِنْ رَأَوْا الْحَقَّ فَأَفْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ وَتَثَبَّتْ كَلِمَتَهُمْ وَأَبْلُهُمْ بِخَطَايَاهُمْ).

ويستحثهم الإمام عليه السلام بما يثير همهم ويدفعهم للجهاد، إذ يقول (وَ أَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ وَالسَّلَامُ الْأَعْظَمُ إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ وَالذَّلَّ اللَّازِمَ وَالْعَارَ الْبَاقِيَّ وَ إِنَّ الْفَارَّ لَا يَغُرُّ مَزِيدِي عُمُرِهِ وَلَا مَحْجُوزٌ بِ يَوْمِهِ)^(١)، ويثبت قلوب أصحابه بالقول (وَ اعْمُوا أَنْكُمْ بَعْنِ اللَّهِ وَمَعَ أَنِي عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ)^(٢).

ويكون متأهباً قبلهم للقتال مستعداً للموت إذ يقول (إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ وَالْأَيْبِي فَسُ أَنِّي أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي عَوْ طَاعَةِ اللَّهِ)^(٣).

(٣) الجمل : ٣٤١، (سورة الأعراف/٨٩).

(٤) نهج البلاغة : خ ١٢٤، ص ١٨٠.

(١) نهج البلاغة : خ ١٢٤، ص ١٨١.

(٢) م.ن : خ ٦٦، ص ٩٧.

(٣) م.ن : خ ١٢٣، ص ١٨٠.

وفي أثناء القتال يشد عزمهم ويثير همهم للاستمرار به والمطالبة^(٤)، ويحاول إفهامهم بموقف العدو لكي يكون تصرفهم معه عن بينة، كما في صفين عندما منع أصحاب معاوية عليهم الماء، إذ قال لهم (قَدْ اسْتَطَعْمُوكُمُ الْقِتَالَ فَأَقْرُوا عَلَى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوْوا السُّيُوفَ مِنْ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنْ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُئْمَةٍ مِنَ الْغَوَاةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَرْ حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَذْيَةِ)^(٥).

ولا يوقف خطابه على أصحابه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى خطاب العدو وتخويله على عائد يعود منهم، نحو قوله عليه السلام في تخويل أهل النهروان (فَأَلْفَيْزُ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرَعى بِأَذْلَةٍ هَذَا النَّهْرُ وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْأَعْلَاطِ عَلَى عَوِيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا سُلْطَانَ مُبِينٍ مَعَكُمْ قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمْ اللَّارُ وَاحْتَبَلَكُمْ الْمِقْدَارُ وَقَدْ كُنْتُ تَهْتِكُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبْثِمُ عَلَى إِبَاءِ الْمُلْكِ فَيَنْ صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخْفَاءِ الْهَامِ سُفْهَاءُ الْأَحْلَامِ وَلَمْ أَتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْرًا وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرًّا)^(١).

أما بعد حروب الجهاد فيخص خطبه بمدح للمجاهدين وذم للمقصرين وتأسف على المعادين، وكل ذلك بخطاب حماسي يثير الهمم ويقوي العزائم.

أما إن كان الموقف في سلم فالإمام عليه السلام وكيف خطابه تبعاً للمناسبات التي تجمعها بمخاطبيه، ولا سيما في خطب العيدين فخطاب الإمام عليه السلام خطاب وعظي تغلب عليه صفتا التوجيه والإرشاد بما يخص به ذلك الموقف.

ففي عيد الأضحى يذكر الإمام عليه السلام لهم يوم النحر وصفة الأضحية قائلاً (وَمِنْ تَمَامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتَشْرَفْتُ أَذْنَهَا وَسَلَامَةً عَنْهَا فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَنْقُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ وَلَوْ كَأَنْتَ عَضْبَاءُ الْقَرْنِ تَجُرُّ رَجُلَهَا إِلَى الْمُنْسَكِ)^(٢).

فإذا كان خطابه في عيد الفطر نفّرهم من الدنيا ورغبهم في الآخرة ليكون صيامهم في شهر رمضان طريقاً للزهد بالدنيا والتزام الكفاف فيها، كي لا تنسيهم فرحة العيد الحكمة التي لأجلها سنّ سبحانه الصوم إذ يقول

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٠٧، ص ١٥٥.

(٥) م.ن: خ ٥١، ص ٨٨-٨٩.

(١) نهج البلاغة: خ ٣٦، ص ٨٠.

(٢) م.ن: خ ٥٣، ص ٩٠.

وَاللَّيْلُ دَارٌ مُنِي لَهَا الْفَنَاءُ وَلَا أَهْلُهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ وَهِيَ حُلُوءٌ خَضِرَاءُ وَقَدْ عَجَلْتُ لِلطَّالِبِ وَالتَّابِسَتْ بِقَلْبِ النَّاطِرِ فَارْتَجَلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنْ الزَّادِ وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ الْبَلَاغِ^(١)، ويرد في الوقت نفسه تكييف أجزاء الخطاب وأنواعه - كما مرّ سابقاً في الفصل الثاني - بحسب مخاطبيه وسياق الأحداث.

تقسيم الخطاب تبعاً لمخاطبيه:-

يقسم الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى أصناف عدة تارة بحسب موقفهم من البيعة ليوضح الموقف الأمثل فهمهم (سَاعَ سَرِيْعٍ نَجَا وَطَالِبُ بَطِيءٍ رَجَا وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَانَّةُ)^(٢)، وأخرى بحسب ما آلت إليه الأمور وما ينطق به واقع الحياة^(٣)، وتارة ثالثة بحسب تعدد الآراء في مسألة واحدة لا تعدو كونها أمر جاهلية، فيرى انهم (فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ)^(٤)، لينبهم إلى انقسامهم واختلافهم عما كانوا عليه زمن الرسول ﷺ، ولا سيما انه يحاول تجلية الحق وفرزه عن الباطل، ليتيح لمخاطبيه حسن الاختيار بعد معرفته للصنف الذي ينتمي له وليكون ذلك حافزاً له على العودة لما انحرف عنه.

وقد يتجاوز ذلك إلى تقسيم الخطاب نفسه بحسب حال سامعيه وما يريد حثهم عليه وهدايتهم له، وذلك عندما يكون الموضوع الذي يطرقه أو الداء الذي يعالجه ظاهراً ولا سبيل للقضاء عليه، إلا بسعي من مخاطبيه أنفسهم للقضاء عليه كخطابه في الفقر والغنى، فقد كانت الفترة السابقة والسياسة المالية المتبعة فيها، وما أحدثت من انقلاب اقتصادي^(٥)، كفيلة بخلق طبقتين في المجتمع، طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ولا سيما بعدما جرى تقسيمهم في العطاء إلى أقسام: مهاجرين وأنصار، عرب وموال.

فيقسم خطابه قسمين، قسم يخاطب به الأغنياء لتأديبهم بما يتلاءم مع ما تفكر به عقولهم من تفكير مادي ليحاول من خلاله الارتقاء بهم عن هذا المستوى من التفكير وهدايتهم إلى مساعدة الفقراء ولا سيما الأقارب منهم، بوصف ما يترتب على تلك المساعدة من نتائج مادية، ليكون ذلك

(١) نهج البلاغة : خ ٤٥، ص ٨٥.

(٢) م.ن : خ ١٦، ص ٥٨.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٣٢، ص ٧٤-٧٥.

(٤) م.ن : خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

(٥) الفتنة الكبرى : ١/ ١٩٥.

سبيلاً للارتقاء بأرواحهم، إذ يقول (أَلَا لَا يَعْلَنَ أَدَاكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَىٰ بِهَا
الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّ تَهْدِيًا لَا يَزِيْهُ إِنْ أَمْسَكَهُوَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُوَمَنْ
يَقْبِضُ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تَقْبِضُ مِنْهُمْ يَدُ وَاحِدَةٍ وَتَقْبِضُ مِنْهُمْ عَذَّةُ
أَكْثَرَةٍ وَمَنْ تَلَنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدْرِمُ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَ كَه) (١).

أما القسم الآخر من خطابه فيخاطب به الفقراء لتهديبهم بما يتلاءم
مع تفكيرهم ومنحاهم الذي غالباً ما يكون منحاً روحياً، ليرتفع بهم عن
النظر إلى الأغنياء بتزهيدهم عما في أيدي المخلوقين من رزق، وتوجيه
أنظارهم إلى مسبب الرزق لا إلى أسبابه (٢)، إذ يقول (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْأَمْرَ
يُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرٍ ابْتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَسَمَ لَهَا مِنْ
زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ) (٣).

ويحثهم الإمام عليه السلام على الاقتناع بما هو موجود فهو الأحسن
والأرضى لله، إذ يقول (الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ
إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُوَأِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو
أَهْلٍ وَ مَالٍ وَ مَعَهُ هَيْدٌ هُوَ حَسْبُ هُوَ إِنْ الْمَالُ وَالْبَنِينَ حَرِثَ الثُّمُنَا وَالْعَمَلَ
الصَّالِحَ حَرِثَ الْآخِرَةَ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ) (٤).

ويتجاوز الإمام عليه السلام ذلك إلى تقسيم مخاطبيه بشكل صريح
بحسب معرفتهم بسياق الأحداث والمواقف التي يريد إسهادهم عليها، ثم
توجيه الخطاب المناسب لكل فئة، ففي خطابه للخوارج بعد إنكارهم
للحكومة، يسبق خطابه بسؤالهم عن شهد صفين منهم، ويعلل ذلك بقوله
عليه السلام (حَتَّى أَكَلِمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ)، فيحاجج من شهدها منهم ليلقي
الحجة عليهم بتذكيرهم بأقوالهم التي لم ينصاعوا فيها لطاعة الإمام عليه
السلام وبأسلوب مباشر، فيقول (أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً
وَ غِيْلَةً وَ مَكْرًا وَ خِيَعَةً إِخْوَانُكُمْ وَأَهْلُ دَعْوَتِكُمْ اسْتَقَالُوا وَ اسْتَرَا حُوا إِلَى كِتَابِ
اللَّهِ سُدَّ أَهْفَالُ الرَّأْيِ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَ التَّنْفِيسُ عَنْهُمْ فَقُلْتُ لَكُمْ هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ
إِيمَانٌ وَ بَاطِنُهُ عُدْوَانٌ وَأَوَّلُ مَرْحَمَةٍ وَ آخِرُهُ دَامَةٌ فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ وَ الزَّمُوا
طَرِيقَتَكُمْ وَ عَزُّوا عَلَى الْجَهِّ إِبْدَى وَاجِدِكُمْ وَ لَا تُلْتَفِتُوا إِلَيَّ لَعَنِي تَعْقِلُ إِنْ أُجِيبَ

(١) نهج البلاغة : خ ٢٣، ص ٦٥.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٢٢٥، ص ٣٤٧.

(٣) م.ن : خ ٢٣، ص ٦٤.

(٤) م.ن : خ ٢٣، ص ٦٤.

أَضَلَّ وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمْ وَهَذَا^(١)،
ويوضح الأمر لمن غاب عن ذلك ولم يشهده ليزيل الاختلاف بينهم.

التدرج في الخطاب:-

التدرج أسلوب اتبعه التشريع الإسلامي، فلم تفرض أحكامه دفعة واحدة، ولم يثقل المسلمون بالفروض والواجبات قبل استشعار ضرورة القيام بها، ولم يكلف بكافة الفروض منذ بدء الدعوة، "بل جاءت منسجمة وقابليات المسلمين على التطبيق وموائمة لظروف الرسالة الغراء"^(٢)، ولذا يتدرج الإمام عليه السلام في خطابه ليتلاءم ذلك الخطاب مع مستوى تفكير مخاطبيه.

ومن ذلك تدرجه في وصف الفتن وسبيل القضاء عليها، فالفتنة التي كانوا يعيشونها لم تحدث فجأة زمن عثمان، بل كانت نتاجاً لفتن عديدة، ومن هنا فقد عالجها الإمام عليه السلام بخطابات عدة، ابتداءً من أول ظهور لها وانتهاءً بالآثار الناتجة عنها.

فقد أوضح الإمام عليه السلام لمخاطبيه ابتداء الفتن بقوله (إِنَّمَا بَدَأَ وَفُتِنَ الْفِتْنُ أَهْوَاءُ تُنْبِغُ وَأَحْكَامُ تُدَبِّدُ عُرْيُ خَالَفَ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رَجَالٌ رَجَالًا عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ لَخَصَّ مِنْ مَزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفْ عَلَى الْمُرْتَدِّ لَيْسَ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ لَخَصَّ مِنْ لَيْسَ الْبَاطِلُ انْقَطَعَتْ عَذُّهُ أَلْسُنُ الْمُعَادِي هِينَ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْنٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْنٌ فَيُمَزَّجَانِ فَهُوَ ذَلِكَ يَسْتَوِلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو أَلْ هِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى)^(٣)، حيث يذهب الدين شيئاً فشيئاً ولذا كان رسول الله ﷺ يقول (أول

ذهاب الدين ترك السنة، يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة)^(٢).

والفتنة لا تظهر للعيان مباشرة بل (تَدْبَأُ فِي مَدَارِجٍ خَفِيَّةٍ تَوْتَوُّلُ إِلَى فِطَاعَةٍ جَلِيَّةٍ تَشْبَابُهَا كَشَبَابِ الْغُلَامِ وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السِّلَامِ يَتَوَارَثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُتْهِ وَدَأْوُلُهُمْ قَادِدٌ لِأَخْرِهِمْ وَأَخْرِهُمُ مُقْتَدٍ دِبَاوْلِهِمْ)^(٣).

(١) نهج البلاغة : خ ١٢٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) من الفقه السياسي في الإسلام، محمد صالح، دار الحياة، بيروت، ١٩٧١ : ٨٠.

(٣) نهج البلاغة : خ ٥٠، ص ٨٨.

(٢) سنن الدارمي : ٥٧/١.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٥١، ص ٢١٠.

إن الفتن تجعل الوضع ظلاماً، ولا أمل بالنجاة منها إلا بالتمسك بأهل البيت فهم بمنجاة، إذ يقول الإمام (نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ وَلَسَدٌ فِيهَا بِعُغَاةٍ)^(٤)، ولا سبيل للخروج منها إلا بالاستضاءة بالسراج المنير وهو الإمام عليه السلام، إذ يقول الإمام (إِنَّمَا مَثَلِي بِكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا)^(٥)، فالإمام عليه السلام هو المتصيّ للفتن التي تمكّن من القضاء عليها، فيقول (فَإِنِّي فَقَأْتُ عَنَ الْفِتْنَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِيَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَوِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ عَهْبُهَا وَاشْتَدَّ كَلْبُهَا)^(٦).

ويتلاءم تدرج الإمام عليه السلام في خطابه تبعاً لما يريد معالجته فيهم، إذ لم يكن تدرج الإمام عليه السلام في معالجة أمراض عصره فحسب، بل أمراض كل عصر، إذ كان الإمام يخاف عليهم من الفتنة التي بدأت ولن تنتهي إلى يوم القيامة^(١).

ففي الوقت الذي يتدرج فيه الإمام في معالجة الفتن بخطابات متفرقة لخفض تلك الفتن وتستتر القائمين بها، نجد أن الإمام يخصص خطاباً كاملاً واضحاً وصريحاً – إن لم يكن بخطابات عّة- لعلاج سمة الكبر عندهم لكونها أصل المعصية ودليل الابتعاد عن الطاعة، ولظهور تلك السمة فيهم وإصرارهم عليها، لكونها تعمّ المجتمع بأسره، محاولاً علاج استكبارهم عن طاعة الله وتحذيرهم من العصبية التي كانت سبباً في معصية إبليس لخالفه وإحباط عمله بعد أن عبد الله ستة آلاف سنة^(٢).

وعندما يريد الإمام عليه السلام دعوتهم للتخلق بسمة الزهد، ولا سيما عندما يرى تكالب الناس في إقبالهم على الدنيا، وإجابتهم لما كان يغريهم به معاوية من أموال فيجذبهم إلى صفّه، فيخصّص الإمام عليه السلام خطابه مبتدئاً بحثهم على إفراغ قلوبهم وإعمال فكرهم، ويفتد ما يفعله معاوية، ويضع أمامهم في الخطاب نماذج يقتدون بها في الزهد، فيبدأ برسول الله ﷺ، ومعه أنبياء الأمم السابقة (موسى، وداود، وعيسى) حتى ينتهي إلى نفسه بصفته مثلاً أعلى، لتحكي مدرعته التي كان يرقعها صورة ذلك الزهد إذ يقول (وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعْتُ مِرْعَتِي هَهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ

(٤) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٨.

(٥) م.ن : خ ١٨٧، ص ٢٧٨.

(٦) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٧.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٦٤، ص ٢٣٥.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٨٠-٣٠٢.

رَاقِعَهَا وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلَا تَنْبِذُ هَذَا عَنْكَ فَقُلْتُ اغْرُبْ عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ
يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى^(٣).

ويتساقق تدرج الإمام عليه السلام في خطابه مع ما يرى من حال مخاطبيه، ففي الجهاد يبدأ بدعوتهم وإثارة همهم، فإن وجد منهم إعراضاً عنه رغبهم فيه، وإن قبل باعوجاج أقامه محاولاً إقناعهم، حتى إذا وصل الأمر إلى التخاذل عن نصرة الحق بدأ بمحاجبتهم بمواقفهم السابقة ومقابلتها بموقفه متدرجاً في خطابه كتدرجه في دعوته لهم وموقفهم منها نحو قوله (اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فإِذْ لَمْ تَنْفَرُوا وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشْهُهُ وَدُكُغِيَابٍ وَعَدِيْدٌ كَارِباً)^(١).

ويتصاعد خطابه بالتدرج ليصف ما يتوقع منهم في الحرب، ثم يدعوهم للالتزام أهل البيت، ويقارن موقفهم بالأخبار الذين قاتلوا معه تحت إمرة النبي ﷺ لعلّه يكون حافزاً يدفعهم إلى الجهاد. أما عندما يصبح عصيانهم له بشكل معلن مؤثر في المجتمع، وعلى مسمع من الجميع كخروجهم عن طاعته بقولهم (إِنْ سِرْتُ سِرّاً مَعَكَ)، وعندما يكون التقاعس منهم مراوغة وتضليلاً، يعلن الإمام عليه السلام وصفهم بشكل مباشر (طَعَانِيْنَ عَالِيِيْنَ دَلِيْلِيْنَ رَوَاغِيْنَ)^(٢).

وقد كان تدرج الإمام عليه السلام في خطابه الجهادي جزءاً من سياسته العادلة، فلا يباغتهم بسيف ولا يبادرهم بقتال، بل يدعوهم ويحاول إرسال رسائل عدة لحقن الدماء ويؤخر القتال حتى وإن سرى الشك في صفوف جيشه في موقفه من القتال بصفيين، محاولاً أن لا يبدأهم بقتال عسى أن يهتدوا، وفي هذا يقول الإمام عليه السلام (فَوَاللّٰهِ مَا أَبَالِي دَخْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللّٰهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تُلْدَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوْا إِلَيَّ ضَوْئِي وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كُنْتُ تَبُوءُ بِأَتَائِمِهَا)^(٣)، ولذا يجعل الإمام عليه السلام آخر الدواء الكي^(٤).

(٣) م.ن : خ ١٦٠، ص ٢٢٩.

(١) نهج البلاغة : خ ٩٧، ص ١٤١.

(٢) م.ن : خ ١١٩، ص ١٧٦.

(٣) م.ن : خ ٥٥، ص ٩١.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٦٨، ص ٢٤٣.

ويمتد تدرج الإمام عليه السلام، ولا سيما في خطابه الجهادي ليجتمع في خطاب واحد لا في خطابات عدة كما سبق، حيث نلمس تدرجه في إثارة شعور مخاطبيه واستنهاضهم حتى يصل إلى القمة^(١)، فيبدأ بإخبارهم الحدث ثم يتوجه إلى إثارة حميتهم ونخوتهم في الدفاع عن المرأة، ولكن دون ان يخرج عن وصف حقيقة ما حدث بالقول (وَلَقَدْ بَلَغِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا)^(٢) وَقَلَايِدَ هَوْرُ عُنْهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أَرْ يَقْلَهُمْ دَمٌ)، ثم تظهر دهشته وحيرته من تفرقهم عن الحق وتمسك أعدائه بالباطل (فَيَا عَجَبًا عَجَبًا وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقُلُوبَ وَيَجْلِبُ إِلَيْهَا مَنِ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرَّقُوا عَنْ حَقِّكُمْ)، حتى يصل إلى البرم بهم بعد ان جرّ عوه مرّ تخاذلهم عن نصرة الحق، فيقول عليه السلام (يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ خُلُومِ الْأُطْفَالِ وَغُفُولِ رَبْلَتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرْكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ كَدَمًا وَأَعْتَبْتُ سَدَمًا قَاتَلَكُمْ اللَّهُ)^(٣).

ترتيب أجزاء الخطاب:-

يتميز خطاب الإمام عليه السلام بترتيب أجزائه ترتيباً محكماً، متسلسلاً فيما يعرضه من أمر مع تدقيق الوصف فيه والربط بين جزئياته، إذ يبدأ الإمام عليه السلام الخطاب كما سبق ذكره في الفصل الثاني- بمقدمة، يخصّها بذكر الله عزّ وجلّ وحمده والثناء عليه، ولكن بتنويع ذلك الحمد بما يتوافق مع مضامين خطابه وما يختتم به وبترتيب يحكم شد أجزاء الخطاب وأحكام ربطها.

فيصف الحمد تارة بذكر السبب الموجب له من عزّ وكبرياء ليسا لسواه بقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ الْعِزُّ وَالْكَرِيَاءُ وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ لَوْ أَنَّ حَقَّهُ وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَمًا عَلَى عِزِّهِ وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ)^(١)، وقدرة الله تعالى لا يملكها سواه^(٢)، وتفرد لا يكون لسواه، نحو قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ وَالْغَلْبُ جُذُهُ وَالْمُتَعَالِي جَاهُهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التَّوَامِ وَالْآلِيهِ

(١) ينظر: الخطابة وفن الإلقاء: ٣٥.

(٢) القلب: السّوار المصمت.

(٣) نهج البلاغة: خ ٢٧، ص ٧٠.

(١) نهج البلاغة: خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٢) ينظر: م.ن: خ ١، ص ٣٩.

الْعِظَامِ الَّتِي عَظَّمَ جُلْمُهُ فَعَفَا وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى مُتَّبِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ وَمُذْ شِئْهُمْ بِحُكْمِهِ بِلَا اقْتِدَاءٍ وَلَا تَعْلِيمٍ وَلَا اخْتِذَاً لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ وَلَا إِصَابَةِ خَطَأٍ وَلَا حَظْرَةٍ مَلَا^(٣)، وأخرى بتعظيم الخالق^(٤)، وأخرى بتنزيهه عن الوصف نحو قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ وَسَاطِحِ الْمِهَادِ بِدَوْمِ سَبِيلِ الْوَهَادِ^(٥)) وَمُخْصِبِ النَّجَادِ لِيَأْوِلَ إِلَيْهِ أَيْدَاءُ وَلَا لِأَزْلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ خَوَّتْ لَهُ الْجَبَاهُ وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاءُ حَذَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهَا إِذْ بَاقَهُ لَمْ يَمُنْ سَبَّحَهَا لَا تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْأُتُودِ وَالْحَرَكَاتِ وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ^(٦)، وقد يكون الحمد بذكر فضل الاستعانة به، ليكون الحمد نفسه هداية للاستعانة بالله عز وجل فلا ضلالة بعدها، وشهادة بوحدانيته تعالى^(٧).

وقد يقترن الحمد بالصلاة على رسول الله المصطفى ﷺ محاولاً أن يحيط خطابه ببعثة النبي ﷺ، تارة بوصف ترتيب النبي ﷺ بين سائر النبوات، وأخرى بوصف منزلته، وأخرى بتوضيح صفته، وفضل الصلاة عليه والدعاء له^(١)، وأخرى بوصف حال الناس قبل البعثة^(٢)، وما كان عليه العرب^(٣)، والإشادة بفضله^(٤)، وما استحق عليه من اجر، وأخرى بوصف الأنبياء ثم بوصف النبي ﷺ وأسرته^(٥)، وأخرى بالدعاء له نحو قوله (اللَّهُمَّ أَفِئْ لِي مَقْصَمًا مِنْ عَذْلِكَ وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ اللَّهُمَّ أَعِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ وَشَرَفَ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَعْطِهِ السَّلَامَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَاحْشُرْ لِي فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ حَآيَا وَلَا لَهْمِينَ وَلَا تَلَكِّدِينَ وَلَا تَلَكِّدِينَ وَلَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ وَلَا مَفْتُونِينَ^(٦)).

ثم ينتقل إلى الغرض الأساس الذي يريد الخوض فيه بحسن تخلص لم يشهد له مثيل — وهو الأمر الواضح في جل خطابه —، ثم يختم الإمام

(٣) م.ن : خ ١٩١، ص ١٨٣.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٩٠، ص ١٢٢-١٢٣.

(٥) الوهاد : جمع وهدة، ما انخفض من الأرض.

(٦) نهج البلاغة : خ ١٦٣، ص ٢٣٢.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٢، ص ٤٦.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٧٢، ص ١٠١.

(٢) ينظر : م.ن : خ ٢، ص ٤٦-٤٧.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٢٦، ص ٦٨.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٣٣، ص ٧٧.

(٥) ينظر : م.ن : خ ٩٤، ص ١٣٩.

(٦) م.ن : خ ١٠٦، ص ١٥٤.

عليه السلام خطابه بذكر الله جلّ وعلا بآية من آيات القرآن المجيد^(٧)، أو حكمة مستقاة من تلك الآيات بخاتمة تختصر وتوجز ما مر من ذكر الغرض، وسوق ذلك كله بتسلسل منطقي يشدّ الفكرة، ويوحّد أجزاءها، ويجعل أجزاء الخطاب متماسكة، فما سبق يكون مفتتح لما يأتي بعده، وما بعده نتيجة لما قبله وبالعكس، وهذا الترتيب يتفق مع تفكير الإنسان، إذ يبدأ بالفكرة جزءاً جزءاً لينتهي إلى ربطها في كلّ متكامل، أو يبتدئ بكلها ثم يتدرج في ذكر جزئياتها.

ويتساق ترتيب الإمام عليه السلام مع تدرجه الإمام عليه السلام فيما يدعوهم له في خطاب تصاعدي متسلسل يراعي فيه الموقف النفسي لسامعيه والتسلسل الزمني للأحداث^(٨)، بما يتوافق مع أجزاء الخطاب، وخطبته (القاصعة) خير مثال على ذلك^(٩).

وينطبق هذا التسلسل على خطابه طويلاً كان أم قصيراً، كما ينطبق على أجزاء ذلك الخطاب، ففي الخطبة (الغراء) للإمام عليه السلام والتي يصف فيها التقوى-مثلاً- نجد تسلسل خطاب الإمام عليه السلام وتصاعده تصاعداً تدريجياً، ونتمسك ذلك في كل جزئياته.

فعند تذكير الإمام عليه السلام لمخاطبيه بالتقوى يتدرج معهم في وصفها فمن سماعها إلى استشعارها إلى العمل بها، إلى الحذر من عواقب التخلي عنها، إلى إجابة داعيها إذ يقول (فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ سَمِعَ فَحَسَّ وَافْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ وَوَجَلَ فَعَمَلَ وَحَازَرَ فَبَادَرَ وَأَقْبَنَ فَأَحْسَنَ وَعُيِّرَ فَاعْتَبَرَ وَحُذِرَ فَحَذِرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ وَأَجَابَ فَأَنَابَ وَرَاجَعَ فَتَابَ وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى)^(١٠)، وينتقل في خطابه من دنيا إلى أخرى، ومن حياة إلى موت، فإن وصف خلق الإنسان بدأ من منشئه في ظلمات الأرحام لينتهي به في قبره، ليصوّر بعد ذلك مما لا تراه العيون وتغفل عنه النفوس^(١١).

ويستمر تسلسل جزئيات خطاب الإمام عليه السلام حتى في خاتمته فيختم خطاباً له يدعوهم فيه للزهد في الدنيا بحثهم على الاستكانة والإشفاق والخوف من الله تعالى بوصفها سمات أساس للمؤمنين، وبما يتجاوب مع

(٧) ينظر: م.ن: خ ١٢١، ص ١٧٨.

(٨) ينظر: الإسلام والفن: ١٤٩.

(٩) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٣٠٥.

(١٠) م.ن: خ ٨٣، ص ١٠٩.

(١١) ينظر: م.ن: خ ٨٣، ص ١١٢-١١٣.

النفس نحو قوله (إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِيدُونَ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَلِيفُونَ)^(٥)، بل اننا نجد هذا الترتيب في جزئيات خطاب الإمام عليه السلام حتى في سؤال يتوجه به إلى الله تعالى، فيبدأ بما يريده الإنسان وما ينبغي السعي له، فالشهادة مفتتح السعادة والوصول إلى مرافقة الأنبياء جزاء من الله تعالى، ولذا يختتم الإمام عليه السلام خطابه بالقول (نَسْأَلُ اللَّهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ)^(١)، "و هذا هو الترتيب اللائق من المؤدب الحاذق، فان المرتبة العالية لا تنال دفعة دون نيل ما هو أدنى منها"^(٢).

وفي سياق خطاب الإمام عليه السلام يبرز عاملا المكان والزمان في تحديد السياق^(٣)، وهما من العوامل المؤثرة التي لا يتوقف أثرها عند الخطاب فقط^(٤)، وغالباً ما يفترض أحدهما وجود الآخر^(٥)، إن لم نجدهما متلازمين.

ويبرز المكان لأهميته في حياة الإنسان، وتغير مواقف مخاطبي الإمام عليه السلام بتغير الأماكن التي تجمعهم به خير دليل على أهمية المكان، فهناك من عرفه بالحجاز وأنكره في العراق^(٦)، إذ يعد المكان من العوامل المؤثرة في حياته وفكره.

ف نجد وصف الإمام عليه السلام لمخاطبيه مقترباً بذكر المكان، ولا سيما في خطابه الجهادي، فيخاطب أهل العراق ويصف تركهم لقتال أهل الشام وقد شارفوا على النصر^(٧)، مفنداً مزاعمهم ويرد على ما كانوا يسوقونه من افتراءات محاولين التعلل بها، لتكون عذراً يقابل تخاذلهم وتراجعهم عن نصرته الحق، لذا يقول (أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ)^(٨) وَمَاتَ فِيْهَا وَطَالَ تَأْيُيْهَا وَوَرِثَهَا أَبٌ كُھ. أَمَّا وَاللَّهِ مَا أَتَيْكُمْ اخْتِيَاراً وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً وَلَقَدْ بَلَغِي

(٥) م.ن: خ ١٥٣، ص ٢١٥.

(١) نهج البلاغة: خ ٢٣، ص ٦٥.

(٢) شرح البحراني: ٢٢٦/١.

(٣) ينظر: نظرية البنائية: ٢٣٦.

(٤) ينظر: أصول النقد الأدبي: ٨٣-٨٥.

(٥) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي (تلازم التراث والمعاصرة)، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٣: ١٨٢.

(٦) نهج البلاغة: خ ٣١، ص ٧٤.

(٧) ينظر: شرح البحراني: ٣٤٣/١.

(٨) أمّلت: أسقطت وألقت ولدها ميتاً.

أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَيَّ يَكْفِي قَاتِلَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أَعَلَى اللَّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ كَلَامًا وَاللَّهُ لَكِنَّهَا لَهْجَةً غَبِثَتْ عَنْهَا وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا^(١)، ولم يكن التراجع موقفهم أول الأمر^(٢)، إلا أن تخاذلهم هو الذي ساقهم إلى ذلك التكذيب.

ويختلف خطاب الإمام عليه السلام لأهل البصرة ووصفه لهم^(٣) عن خطابه لأهل الكوفة الذين كان ابتداء التخاذل فيهم، والخوارج من قرائهم، وكان اعتماده عليهم في حروب الجهاد^(٤)، إذ يخاطب أهل الكوفة بالقول (يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ مُنِيتُ مِنْكُمْ بَيِّنَاتٍ وَادَّعَى صُؤُومُ أَسْمَاعٍ وَبُكْمُ ذُؤُومٍ كَلَامٍ وَعُصْيُ ذُؤُومٍ أَصَارٍ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ تَرَبَّتْ أَيْكُمُ يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَبَّ عَنْهَا رِعَانُهَا كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخٍ)^(٥)، ويتجاوز ذلك إلى خطاب ذلك المكان دون أهله مشيراً إلى أهمية ذلك المكان فيخص بخطابه الكوفة (كَأَنِّي بِكُمْ يَا كُوفَةُ نُمَدَّيْنِ مَدَّ الْأَيْمِ الْعُكَاطِي تَعْرَكُ بَيْنَ النَّوَازِلِ وَتُرْكَبُ بَيْنَ الْبَازِلِ وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَذْهَمًا أَرَادَ بِكُمْ جَبَلٌ سَوْءًا إِلَّا أَتْلَاهُ اللَّهُ بِسُلْغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ)^(٦)، ومثل ذلك قوله (مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبَضُهَا وَأَبْسُطُهَا إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلَّا أَذْهَبُهَا أَصِيرُكَ فَقَبَّحَكَ اللَّهُ)^(٧).

لذا نجد اقتران ذم أهل المكان في خطاب الإمام عليه السلام بالمكان نفسه في بعض المواضع فيكون ملفتاً لأنظارهم إلى خصوصية ذلك المكان وأثره في ساكنيه، فيذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل بقوله (كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ رَغَفَاجُكُمْ وَعُقِرَ فَهَرُكُمْ)، منتقلاً بعد ذلك إلى ذم البلاد في الخطاب نفسه بقوله (بَلَاءُكُمْ أَنْتُمْ بَلَاءُ اللَّهِ تُرَبَّةٌ أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَاءِ وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ وَبِهَا تَسْعَةُ أَغْلَرِ الشَّرِّ)^(٨).

ولا يقف وصف المكان على ذلك، بل نجده في خطابه يميز بين دارين، دار الدنيا بوصفها دار فناء والناس فيها على سفر إلا أن عمل الإنسان محدد بها ليأتي الموت فاصلاً ينقله إلى دار الآخرة بوصفها دار

(١) نهج البلاغة : خ ٧١، ص ١٠٠.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٠٧، ص ١٥٥.

(٣) م.ن : خ ١٤٨، ص ٢٠٦.

(٤) ينظر : شرح البحراني : ٢٣٣/١.

(٥) نهج البلاغة : خ ٩٧، ص ١٤٢.

(٦) م.ن : خ ٤٧، ص ٨٦.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٢٥، ص ٦٦.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٣، ص ٥٦-٥٥.

بقاء ينال فيه الإنسان الجزاء لما عمل في الدنيا، ومثل ذلك وصفه عليه السلام للسماء والأرض ففي كليهما أناس، فإن كانت الدنيا مادية يرونها بأعينهم فهناك خلقٌ ممّا لا يمكن رؤيته أو وصفه^(٢).

ونجد عامل الزمان وتغيره في خطاب الإمام عليه السلام عاملاً آخر، لمعرفة الإمام عليه السلام بحركة التاريخ وتقلب الدهر، ولا سيما "في بعده المسيطر على الإنسان والحياة، حيث لا يكون بمقدور البشر التأثير على حركته والتحكم في وحداته، إنما هو يمضي حسب القانون الكوني الذي وضعه الله تعالى"^(٣).

ويوضح الإمام عليه السلام انقلاب موازين الأمور مقترنةً بتبدل الزمان، وأثره في تغيير الناس، وازدياد تشبثهم بالحياة فيقول (أُتِّهَ النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عُدُوٌّ زَمَنٍ كُذِّبُوا فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا وَيَزِدُّ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا لَا نَنْفَعُ بِمَا عَلَّمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهَلْنَا وَلَا تَخَوْفُ قَارِعَةً^(٤) حَتَّى تَحُلَّ بِنَا)^(٥)، فيذم الزمان بنسبة صفتي الجور والشدة له ليشير إلى "ضعف الدين والنواميس الشرعية التي هي سبب نظام العالم وبقائه وسبب الحياة الأبدية في الدار الآخرة"^(٦).

ويشدد الإمام عليه السلام على أن الأمم تسير خلف أمم سابقة، وستتبعها أمم أخرى وتحذو خلفها حذو النعل بالنعل، ويوضح الإمام عليه السلام ذلك بالقول (إِنَّ اللَّهَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ لَا يَغْوِدُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ وَلَا يَقْبِي سَرْمَدًا مَا فِيهِ آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ مُدَّةً شَابِهَةً أُمُورُهُ مُتَظَاهِرَةً أَعْلَامُهُ)^(٧)، وانهم يتكلمون برجع قول سابق (إِنَّمَا تَسِيرُ وَنَ فِي أَثَرِ بَنِي وَتَتَكَلَّمُ وَنَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَالِكُمْ)^(٨)، إذ يمثل التاريخ ذاكرة البشرية فهو إسقاط الخبرة البشرية على خط الزمن المتتابع^(٩).

ويتبين أثر الزمان في خطاب الإمام عليه السلام بماضٍ يذكرهم به لأخذ العبر والدروس والموعظة منه، إذ يقول الإمام عليه السلام (أَوَّلَسْتُمْ

(٢) ينظر : م.ن : خ ٩١، ص ١٢٤-١٣٦.

(٣) الزمن في حركة العاملين، حسين الشامي، دار الإسلام، لندن : ١٩-٢٠.

(٤) قارعة : من الخطب يقرع من ينزل به أي يصيبه.

(٥) نهج البلاغة : خ ٣٢، ص ٧٤.

(٦) شرح البحراني : ٢٥٩/١.

(٧) نهج البلاغة : خ ١٥٧، ص ٢٢١.

(٨) م.ن : خ ١٣٨، ص ٢٦٦.

(٩) ينظر : البناء الفني في الرواية العربية في العراق، شجاع العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤ : ٦٩.

أُنبَاءُ الْقَوْمِ وَالْأَبَاءَ وَإِخْوَهُمْ وَالْأَقْرَبَاءَ تَحْتَدُّ وَنَ امْتَلَنَتْهُمْ وَتَرَكَبُوا قَتْلَهُمْ
(٤) وَتَطْدُونَ جَانَّتَهُمْ فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا لَا هِيَّةَ عَنْ رُشْدٍ يَهْدِي سَالِكَةً فِي
غَوْ مِضْمَارٍ هَلْ كَانَتْ الْمَغْنَى سِوَاهُ وَكَانَ الرُّشْدُ فِي إِحْرَارِ نُفْسِهَا (٥).

مثلما يعيدهم الإمام عليه السلام إلى زمان الجاهلية السابق للنبوّة،
وينهاهم عن الاتصاف بصفات أهل ذلك الزمان، إذ يقول (وَلَا تَكُونُوا
كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُوْنَ وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ كَقَيْضٍ بَيْضٍ (٦) فِي
أَدَاخٍ (٧) يَكُونُ كَسْرُهَا وَزُرّاً وَيُخْرِجُ حِضَانَهَا شَوّاً) (٨)، ثم يحيلهم إلى زمان
النبي ﷺ وما كان فيه من خير للبشرية أجمع، ليتيح لهم الوصول إلى فساد
الزمان الحالي (٩)، كما يحيلهم إلى القصص القرآني والنبوات السابقة لأخذ
العبرة منهم والافتداء بنهجهم والاتعاظ بمصير مخالفينهم (١٠).

وقد يسبق الإمام عليه السلام الأحداث — وهو أعلم بها — فينتقل بهم
إلى زمان المستقبل لتحذيرهم من العواقب لمستقبلية، وما يصيب الإنسان
من جرّاء غفلته عن ذكر الله بانهماكه في نعم الدنيا ولذاتها (١١)، وليضع
أمامهم عاقبة النهج الذي يسرون عليه (١٢)، إذ يقول (وَإِذْ هُمُ سَيَاتِي عَايِمٌ مِّنْ
بَعْدِ زَمَانٍ لَّيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِّنَ الْحَقِّ وَلَا أَظْهَرَ مِّنَ الْبَاطِلِ وَلَا أَكْثَرَ
مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأُيِّنَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةً أَتُورَ مِنْ
الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقٌّ تِلَاوَتِهِ وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا فِي
الْبِلَاءِ دَسِيقٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ) (١٣)، وليخلق لديهم
وعياً بسبيل النجاة للتمسك به، "إذ كانت الرسائل السابقة عينية في
تشريعها وزمكانية في توجهها، أما الرسالة الخاتمة، فلقد نزلت ابتداء
إنسانية عالمية متجاوزة في خطابها الزمان والمكان لتستوعب كل الأمكنة
مع اختلاف المجتمعات وتطورها" (١٤)، فيصور لهم فتنة بني أمية و

(٤) قتلهم : طريقته.

(٥) نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١١١.

(٦) كقيض بيض : قشرة البيض اليابسة.

(٧) أداخ : مبيض النعام في الرمل تدحوه برجلها تبيض فيه.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٦٦، ص ٢٤٠.

(٩) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٢٩، ص ١٨٧.

(١٠) ينظر : م.ن : خ ١٩٢، ص ٢٨٥-٣٠٢.

(١١) ينظر : شرح البحراني : ٦١٣/١.

(١٢) وهو ما وضعه الشريف الرضي معنواً بالملاحم.

(١٣) نهج البلاغة : خ ١٤٧، ص ٢٠٤.

(١٤) ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة، سامر إسلامبو، الأوائل، سوريا، ط ١، ٢٠٠٢ :

يحذرهم منها ويبين لهم عواقبها وما تجره عليهم^(٧)، أو يحيلهم على الموتى من أهلهم وذويهم السابقين لهم، مما لا يعلمون بعاقبة أمرهم وما آل إليه حالهم، ويصفهم بالقول (حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا وَأَنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ^(٨)) فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ وَمِنَ الثَّرَابِ أَكْفَانٌ وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا وَلَا يُبَالُونَ مُنْدَبَةً^(٩))^(١)، وما ينتظرهم عند البعث في الآخرة^(٢)، محاولاً هدايتهم إلى طريق الحق الذي لا سبيل للاهتداء إليه إلا خلف راية الإمام عليه السلام.

ومن هنا يبرز عاملا الزمان والمكان بوصفهما عنصرين أساسيين لهما اثر متبادل في مخاطبي الإمام عليه السلام، وما يحيط بهم من أحداث، ليكون لهذين العاملين دور أساس في ترتيب أجزاء الخطاب وربط جزئياته، مشدداً على نسبية هذين العاملين.

تنويع الخطاب الرسالي:-

يوجّه الإمام عليه السلام خطابه الرسالي لمخاطبيه مع تنويع ذلك الخطاب بحسب الغرض الذي يطرقة وما يدعوهم إليه، فيوجّه الإمام عليه السلام أغلب خطابه بضمير المخاطب الجمعي، فإن كان في خطاب الجهاد ليخلق فيهم الحس الديني والمشاركة الفعلية نحو قوله (وَلَقَدْ سَفَى وَحَاوَحَ^(٣)) صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْوَةٍ تَحُورُ وَهُمْ كَمَا حَارَوْكُمْ وَتَزِيدُ وَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَرَأَوْكُمْ حَسّاً بِالنِّصَالِ وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ^(٤)).

وإن كانت دعوته لأداء فريضة خاطبهم بخطاب الجمع يشدد فيه على أهمية الجماعة والانخراط في عقدها لحماية الإسلام نحو قوله بعد دعوتهم لأداء الفرائض (أَفِيضُوا فِي تَكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَارْجِعُوا فِيْمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ وَاقْتُلُوا بِهَدْيِي ذِيكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ وَاسْتَنْتُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ^(٥))^(١)، وليخلق فيهم الحس الجماعي،

(٧) ينظر: نهج البلاغة: خ ١٤٧، ص ٢٠٦-٢٠٥.

(٨) الأجداث: القبور.

(٩) نهج البلاغة: خ ١١١، ص ١٦٦.

(٢) م.ن: خ ٨٣، ص ١٧٦.

(٣) وحاح: جمع وحوحة، صوت معه بحج يصدر عن المتألم والمراد حرقه الغيظ.

(٤) نهج البلاغة: خ ١٠٧، ص ١٥٥.

(٥) نهج البلاغة: خ ١١٠، ص ١٦٣.

ويحثهم على المشاركة الفاعلية، زيادة على الدافع الديني عند موعظته لهم^(٢).

إلا ان الإمام عليه السلام قد يوجّه خطابه بضمير المتكلم الجمعي فيضع نفسه معهم مع عصمته ونزاهته عند محاولته تشخيص أمراض المجتمع، تعبيراً عن مشاركة الإمام عليه السلام لمخاطبيه همومهم وشكواه ممّا كان يعانيه المجتمع، ولحثهم على تجاوز مساوئه نحو قوله (أَتُهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَدْنَا فِي دَهْرٍ عَذُوٍّ وَزَمَنٍ كَدُوٍّ^(٣) يُعَدُّ فِيهِ الْمُدَّسُ مُسِيئاً وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عِلْمُهُ وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهَلْنَا وَلَا نَخَوْفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا)^(٤)، فيوجه خطاباً يجمعه بمخاطبيه ويحثهم ولكن بطريق غير مباشر.

ويتساق هذا التنويع في خطاب الإمام عليه السلام مع تدرجه فيه، فيبدأ بتوجيه الخطاب بشكل غير مباشر، مستخدماً ضمير الغائب ليصل إلى توجيهه بضمير الخطاب بشكل مباشر، فإذا ما أراد لفت أنظارهم عن الدنيا بالتفكير بما فيها لما يوصله بالآخرة، فلا يجعل الإنسان الدنيا همّه، خاطبهم بضمير المفرد على الرغم من كونهم جمع فيكون خطابه قريباً من نفوسهم نحو قوله (فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرٍ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفْتَ قَسْكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الثُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا وَزَخَارِفِ مَا لَظَرِ هُ)^(٥)، وإذا أراد ذم المتخلفين عنه بدأ بشكل غير مباشر بقوله بما لا يسيء إلى كرامة أحد أو يخدش مشاعره (غرب رأي امرئ تخلف عني)^(٦)، فيذم من تخلف عنه، ويحكم عليه بعدم إصابة رأيه^(١)، مستخدماً أسلوب القرآن ذاته الذي نزل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمَعُوا كَلِمَاتِي لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ)^(٢).

ويحاول الإمام عليه السلام خلق وازع في نفس الإنسان الذي أتاح الله سبحانه له اختيار طريق الهداية بعد أن وضع أمامه البينات التي توصله

(٢) ينظر: م.ن: خ ١١١، ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) كنود: كفور.

(٤) نهج البلاغة: خ ٣٢، ص ٧٤.

(٥) م.ن: خ ١٦٥، ص ٢٣٩.

(٦) م.ن: خ ٤، ص ٥١.

(١) ينظر: شرح البحراني: ١/١٨٣.

(٢) قال الصادق عليه السلام (نزل القرآن بكلمة أعني واسمعي يا جارة). أصول الكافي:

٦٢٢/٢.

لها، ولا سيما عند دعوتهم لتقوى الله وطاعته وعبادته، ذلك أن تقوى الله حالة تبدأ باستشعار الإنسان لها^(٣)، ومثلها طاعة الله عز وجل فيكون السير بها لمن جعلها شعاراً دون دثاره^(٤)، ومثلها عبادة الله جل ذكره إذ يوصيهم الإمام عليه السلام بقوله (فَعَبِّوْا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ وَآخِرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ)^(٥).

لذا قد يخاطب الجمع بخطاب المفرد وبوصف غير مباشر محاولاً خلق واعظ في نفس الإنسان يسير به نحو ما يرضي الله وليشعر كل فرد منهم بالمسؤولية عما يصدر منه، فيكون ناصحاً لنفسه^(٦)، ليعينه الله عليها^(٧) لأنه (مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى فَبِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَعْوَاهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ)^(٨)، ويرد مثل هذا الخطاب المفرد عند دعوة الإمام عليه السلام لهم للزهد في الدنيا، وترك الاغترار بها كقوله (فَلَا يَغُرَّتْكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ فَبِكَ وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَرَبُوا الْإِقْلَالَ وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتَبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجُهُ عَنْ وَطْنِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَلِكِ لَا يَتَعَاظَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ حَمَلًا عَلَى الْمَلِكِ وَامْسَاكًا بِالْأَلْمَلِ)^(٩).

ونجد تنويع الخطاب واضحاً في خطاب الإمام التنبهية المعبر عن صوته الرسالي، وذلك بحسب ما يراه الإمام عليه السلام من حال مخاطبيه وما يدعوهم له ويحثهم عليه، فعندما تكون دعوته دعوة عامة، ولنواحي مختلفة يخاطبهم بعبارة (أيها الناس)، ونجد مثل ذلك في خطابه إن وجد منهم ابتعاداً عن الحق وإيغالاً في الباطل، وابتعاداً عن الطاعة^(١٠).

أمّا عندما يدعوهم الإمام عليه السلام إلى تقوى الله تعالى وطاعته يخاطبهم بقوله (عباد الله)، ليذكرهم بما دعاهم له سبحانه في كتابه، وليجلي العمى من أبصارهم ويزيل الكبر عن نفوسهم بتذكيرهم بأنهم في مقام العبودية لله سبحانه عباد مخلوقون لأجل عبادة الله الواحد وتقواه وطاعته

(٣) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٣٢، ص ١٩٠.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٩٨، ص ٣١٢-٣١٣.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١٩٨، ص ٣١٢-٣١٣.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٦٤، ص ٩٥.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٨٧، ص ١١٨.

(٨) م.ن : خ ٩٠، ص ١٢٣.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٣٢، ص ١٩٠.

(١٠) ينظر : م.ن : خ ٢٨، ص ٣٢٣.

تارة، ولينبهم إلى عظمة الموت الذي سيعيدهم إلى الله تعالى، وليوصيهم بالتقوى فالتزود بها حق لله عليهم، وهو ما يتضح من خلال الكلام الذي يلي ذلك الخطاب^(٣).

وإذا رأى الإمام عليه السلام منهم غفلة عن نعم الله تعالى وابتعاداً عن أداء حقها، ولا سيما ما جعلها الله للإنسان أسباباً لاستشعار تلك النعم وهي الحواس، وسبيلاً لأداء حق شكرها بالطاعة خاطبهم بها لتنبيههم إلى استخدامها بالوجه الصحيح بالقول (أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْعَافِيَةِ وَالْمَتَاعِ)^(٤).

وإذا رأى الإمام عليه السلام منهم إغلاً في الغفلة وحباً للدنيا مع تركهم العمل الذي أمروا به للآخرة خاطبهم بالحالة التي يجدها عندهم (أَنَّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ وَالتَّارِكُ وَالْمَأْخُذُ مِنْهُمْ)^(١)، وإذا رأى منهم تمادياً في الغفلة مع كبر السن وظهور الشيب خاطبهم بالقول (أَنَّهَا الْيَفْنُ الْكَبِيرُ الرَّفِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ)^(٢).

أما إذا رأى اختلاف الأهواء واقتراقهم عن خط الأمام عليه السلام وتراجعهم عن نصرة الحق مع ما يراه من اجتماع أبدانهم، حاول استنهاضهم بالخطاب (أَنَّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَذَانُهُمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ)^(٣).

ونجد مثل هذا التنويع في خطاب الإمام عليه السلام في تنويعه بين المفرد والجمع، وتكييفه تبعاً لما يرى الإمام عليه السلام من حالهم وما يريد حثهم عليه، وذلك بتنويع الخطاب بين المفرد والجمع في الوقت الذي يوجه خطابه إلى جمع لا مفرد، فإن كان خطابه تنبيهاً لهم من الغفلة وحثهم على التقوى، خاطبهم بالمفرد لينبهم إلى أن التقوى شعور فردي داخلي لا يعلم به إلا الخالق في بعض أفعال الناس لان النية أساس قبول العمل، والإنسان مأمور بالتزود من التقوى في الدنيا، وسيحاسب عليها في الآخرة، فهو مسؤول عن نفسه في الآخرة فلا قريب ينفعه، ولا أخ يدافع عنه، نحو قوله توافقاً مع الخطاب القرآني في تفسير قوله تعالى ((يَا أَيُّهَا

(٣) ينظر : م.ن : خ ٨٣، ص ١٠٧.

(٤) م.ن : خ ٨٣، ص ١١٤.

(١) نهج البلاغة : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(٢) م.ن : خ ١٨٣، ص ٢٦٧.

(٣) م.ن : خ ٢٩، ص ٧٢.

الإنسان ما غرَّك بر بك الكريم) (٤) بقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) (٥) ليكمل بعده الخطاب. وفي خطاب الإمام عليه السلام في توحيد الله جلَّ وعلا وتنزيهه عن الخلق يخاطبهم بقوله (أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ وَالْمُذْنِبُ الْمَرْعِيُّ) (٦)، لحثهم على التفكير في آيات الله ليزيل الشرك والإلحاد من نفوسهم. إلا أن تنويع الخطاب الرسالي وإن اقترن بتكييفه مع حال مخاطبيه وما يدعوهم له، إلا أن هناك عبادات جماعية تصب في فلسفة الحياة وتؤدي بصورة جماعية، زيادة على أثرها في المجتمع بأسره أو على فرد واحد، فالجهاد فريضة تؤدي بشكل جماعي ويعم أثر التخاذل عنه على المجتمع بأسره، فيخاطبهم بالقول (أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمُ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ) (١)، محاولاً تنبيههم إلى تلك الحالة التي يجدها فيهم لهدايتهم إلى الحق، ولا سيما إن كان التخاذل وتفرق الأهواء حالة تعم المجتمع ولا تخص أفراداً منه.

المقام الإرسالي:-

يقف الإمام عليه السلام في خطابه منطلقاً من مقام الولاية الرسالي الذي خص به و أهل بيته عليهم السلام حيث يقول الإمام عليه السلام في رد الظلم عنه (أَمَّا الْإِسْتِدْبَارُ أَدْعَا يُبْهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْوَانُ نَسْباً وَالْأَشْيُونُ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَطُغْيَانُهَا كَأَنْتَ أَثَرُهُ (٢) سَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ وَالْحَكَمُ لِلَّهِ وَالْمَعْوَدُ لِلَّهِ الْقِيَامَةُ) (٣).

وللإمام عليه السلام مقام آخر وهو مقام العبودية الخالصة لله يقف فيه ليوجه منه خطابه للخالق عز وجل بخطاب يختلف تماماً عن خطابه لمخاطبيه، ففي خطابه تتجسد العبودية المطلقة بازاء الربوبية، فيقف في مقامه الإرسالي مقام الأفراد والتوحيد الخالص لله عز وجل الذي يجعله واقفاً بين يدي الله عز وجل وقفة عبداً خالص العبودية لله تعالى، وسلم خطابه من كل ما يغنيه عن الله جلَّ ذكره أو يدفعه للشرك به، وبرء قلبه من كل ما يبعده من شك أو كفر أو رياء أو عصبية، وفي هذا المقام ينطلق

(٤) (سورة الانفطار / ٦).

(٥) نهج البلاغة : خ ٢٢٣، ص ٣٤٤.

(٦) م.ن : خ ١٦٣، ص ٢٣٣.

(١) نهج البلاغة : خ ٢٩، ص ٧٢.

(٢) الأثرية : الاختصاص بالشيء دون مستحقه.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٦٢، ص ٢٣١.

لسانه ببلاغة إعجازية لا تحد بوصف، لتكون علماً سماوياً لا يتسنى لأحد من أهل الأرض مهما اخلص طاعته لله تعالى أو جاهد في سبيل مرضاته. وإذا ما حاولنا تصور مقدار علم الإمام عليه السلام تحيّرت عقولنا عن إدراكه، وإحساسنا بالعجز عن معرفته، وعدم القدرة على وصف ذلك العلم وتلك البلاغة، فلا نستكثر على الإمام عليه السلام ما نراه من معرفته بسامعيه واهتمامه بهم — وهو ما حاولنا تلمسه في جانب من خطابه —، وهو دليل على قدرة الإمام التوصيلية المقترنة ببلاغة خطابه، فخطاب الإمام عليه السلام بلاغة إعجازية.

فلو عدنا إلى الفصاحة عند الإمام عليه السلام لوجدناها عنده سمة للسان و(زينة الكلام)^(١)، وهو ما يمكن التفاضل فيه إذ يقول (نحن افصح وانصح واصبح من سائر بطون قريش)^(٢)، فإن كانت الفصاحة مما يمكن اكتسابه كما يصفها الإمام بالقول (ما لبس رجل بعد تقوى الله لباساً احسن من فصاحة)^(٣)، إلا انها عند الإمام عليه السلام خصيصة ملازمة له وأهل بيته ومتوارثة عن رسول الله ﷺ الذي كانت فصاحته توفيقاً وإلهاماً من الخالق عز وجل وآية من آياته، فلم يتكلف الكلام ولم يرتاض له^(٤).

أما بيان الإمام عليه السلام فهو الذي ينطق العجماء ذات البيان^(٥)، إلا ان بيان الإمام عليه السلام نطقاً من عنده، ولا تأييداً لرأي خاص به، أو تعبيراً عن تجربة خاضها، بل كان الإمام ينطق بما قاله الله سبحانه وتعالى، ويعبّر عما أراده^(٦)، ويعظ بما وعظ به، ويحثهم قائلاً (انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ وَاقْبَلُوا صِيحَةَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْزَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ)^(٧)، فالإمام عليه السلام يأمر بما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه واله وسلم وينهى عما نهى عنه، ويحلّ ما احله الله ورسوله، ويحرم ما حرم الله ورسوله ﷺ.

(١) يروى عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم سؤال (ما الجمال في الرجل؟ قال : فصاحة لسان). قواعد البلاغة مصطفى النوراني، مكتبة أهل البيت، طهران، ط ١، ١٤٢٢ : ٥٠.

(٢) نهج البلاغة : قول ١٢٠، ص ٤٩٠. ولذا يقول الإمام زين العابدين عليه السلام (خصّصنا بخمس بصباحة وفصاحة وسماحة ورجاحة وحظوة). بهج الصباغة : ١٣/١٤.

(٣) انساب الأشراف : ١٨٧.

(٤) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣١٦-٣١٩.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ٤، ص ٥١.

(٦) ينظر : أصول الكافي : ١٨٩/١.

(٧) الجليّة : أي الأعداء الجليّة، والعذر هنا مجاز عن سبب العقاب في المؤاخذه عند مخالفة الأوامر الإلهية.

(٨) نهج البلاغة : خ ١٧٦، ص ٢٥١.

وفي خطاب الإمام عليه السلام تفسير لظاهر القرآن، وتوسع في معانيه، وتعمق لما وراء آياته^(٣)، واستخدامها بالمعنى الأمثل الذي نزلت فيه، وفي خطاب الإمام عليه السلام وصف لسمات زخر بها القرآن ليجمعها خطاب الإمام عليه السلام، فمن وصف المتقين^(٤)، إلى وصف المنافقين^(٥)، إلى وصف الصادقين^(٦)، وبلاغة الإمام عليه السلام إثارة للعلم الإعجازي الكامن فيها الكامن في آيات الكتاب مما لا يعلمه سوى الله ورسوله ﷺ، ولا سيما في خطابه التوحيدي الذي يصف به خلق الله تعالى للسموات والأرض وتدرجه في ذلك الخلق، كقصة خلق آدم عليه السلام^(٧)، ليصل بخطابه إلى إثارة دفائن عقولهم وحثهم على التفكير في إعجاز القرآن من خلال بلاغة الإمام عليه السلام وإعجازه لهم بالقول.

وتجتمع فصاحة الإمام عليه السلام وبيانه مع بلاغته، فالبلاغة "ملكة تعطي لصاحبها القدرة على إنتاج الخطاب البليغ"^(٨)، والبلاغة عند الإمام عليه السلام "إفصاح قول عن حكمة مستغلقة، وإبانة عن مشكل"^(٩)، إذ تتلخص في تركيز واقتصاد ودقة ومعنى^(١)، فالبلاغة عند الإمام عليه السلام إيجاز في اللفظ وقرب دلالاته على المعنى^(٢)، والإيجاز هو "إيضاح للمعنى بأقل ما يمكن من اللفظ"^(٣)، وهو ما تميزت به البلاغة النبوية^(٤)، فالفاظ النبي محمد ﷺ أن "جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها"^(٥)، ولذا نقل عن النبي محمد ﷺ قوله " (إننا معاشر الأنبياء

(٣) ينظر : م.ن : خ (٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣)، ص ٢٣٨-٢٤١.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٩٣، ص ٣٠٣-٣٠٥.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١٩٤، ص ٣٠٨.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٢١٠، ص ٣٢٧.

(٧) ينظر : شرح البحراني : ١/ ١٢٠.

(٨) البلاغة العربية قراءة أخرى : ٧٢.

(٩) كتاب الصناعتين : ٥٨.

(١) وقد قال الإمام الصادق عليه السلام (ثلاثة فيهم البلاغة : التقرب من معنى البغية، والتباعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير). البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي : ١٤.

(٢) ولهذا "يكاد تعريف البلاغة يرادف عند بعضهم لفظ الإيجاز ولا يعدوه". الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ١٩٢.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)، مكتبة محمد علي، مصر، ١٩٦٩ : ٢٠٣.

(٤) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٧٣-٣٧٤.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٥٢/١.

بكاء) أي قليلو الكلام" ^(٦)، ولذا وصف الإمام عليه السلام النبي صلى الله

عليه وآله وسلم بقوله (كَلَامُهُ بَيَّانٌ وَصَمْتُهِ لِسَانٌ) ^(٧).

والإيجاز عند الإمام عليه السلام لا يعني قصر الخطاب ولا يمت بصلة لطوله، فقد كان الإمام عليه السلام يطيل في خطابه حتى العصر، ولا سيما في تعظيمه للخالق عز وجل إن رأى وجهاً لذلك، فيعجب الناس من حسن خطابه ^(٨).

لقد كان كلام الإمام عليه السلام موجزاً بقلّة لفظ وعمق معنى ودقة وصف حتى وصفت بعض خطبه بأنها "كلمة جامعة" ^(٩)، وبعض أقواله كقوله (قيمة كل امرئ ما يحسنه) ^(١٠)، إذ وصف كلامه بأنه "فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ومجزئة مغنية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، وغير مقتصرة من الغاية" ^(١١).

على أن إيجاز الإمام عليه السلام في خطابه لا يعني نفي التكرار عن خطابه، فقد حرص الإمام على اطلاع الناس على مجريات الأمور وإيضاح ما يمر بهم من أحداث، ولاختلاط الحق بالباطل فقد كان انتهاء الحدث لا يعني انتهاءه عندهم، بل تمتد آراؤهم إلى الحدث السابق فتحاول تأويله على غير ما هو عليه، ليكون مفتتحاً لفئة أخرى، ولما عهدوه فالفتن تبدأ كلاماً لتتطور إلى أحداث ومواقف، وكانت سياسة معاوية والمغريات التي يقدمها مدداً لهذه الفتن.

ولذا فقد كان الإمام عليه السلام حريصاً على القول في ذلك، لما يراه في صدورهم، وما يصل إلى سمعه من همسات تدور بينهم، بما يتوافق مع مناسبة الخطاب، وما يرى من حال السامعين، فنجد الإمام عليه السلام في خطابه بعد انتهاء أمر البيعة، يصف لهم أمرها ^(١٢)، وبعد الجمل يفند من وقف بازائه في حرب الجمل ^(١٣)، وفي صفين يعيد تكرار ما حدث في الجمل، وبعد الحكمين يعيد تكرار أمر الحكمين ^(١٤)، وهو يحاول تفنيد

^(٦) البيان والتبيين : ١١٤/١.

^(٧) نهج البلاغة : خ ٩٦، ص ١٤١.

^(٨) ينظر : أصول الكافي : ١٦١/١.

^(٩) ينظر : نهج البلاغة : كلام الشريف الرضي، خ ٢١، ص ٦٢.

^(١٠) م.ن : قول ٨١، ص ٤٨٢.

^(١١) البيان والتبيين : ٨٣/١.

^(١٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٣٦، ص ١٩٤.

^(١٣) ينظر : م.ن : خ ١٥٦، ص ٢١٨.

^(١٤) ينظر : م.ن : خ ١٢٧، ص ١٨٤.

الأقوال التي تصل إليه من أعدائه بشكل صريح تعلن ليخرس الألسنة التي تتلقفها وتزيد عليها^(٥).

ولا نجد الإيجاز عند الإمام عليه السلام بتغيير ألفاظ الخطاب، بل إننا نرى اللفظة الواحدة تحوي معاني عميقة، فكلام الإمام عليه السلام ألفاظ قليلة تشتمل على معاني عميقة تشع حكمة وبلاغة وسمواً^(٦)، وتلاحمها في خطابه يعطي معاني اعمق، ويتساق الإيجاز مع دقة الوصف في خطاب الإمام عليه السلام، فيزيد الإيجاز دقة، دون ان يتنافى معه.

ونجد دقة وصف الإمام عليه السلام في خطابه فيما كان يصف من وصف معنوي، فيحث الإمام عليه السلام مخاطبيه -على سبيل المثال- على العمل الصالح، ويدقق في وصف ما يقودهم إلى ذلك العمل، فيبدأ بأول ما يمكن أن يبدأ به المرء وهو السماع والوعي، ويدقق في جزئياته حتى يصل إلى العمل، نحو قول الإمام (رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى وَنُصِيَ إِلَى رَ شَادَفَدَلْ وَأَخَذَ بِحُجْرَةٍ هَادِفَنَجَا رَاقِبَ رَ بُّهُوَ خَافَ ذَنْبَهُ فَهَقَّتْمْ خَلِصًا وَعَمِلَ صَالِحًا أَكْتَسَبَ مَذْخُورًا وَاجْتَنَبَ مَحْذُورًا وَرَمَى عَوْضًا وَأَخْرَزَ عَوْضًا كَابِرَ هَوَاهُ وَكَذَّبَ مُنَاهُ جَعَلَ الصَّدُوقَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ هَوَاتِهِ رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْخَوَاءَ وَلَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ اغْتَنَمَ الْمَهْلَ وَبَادَرَ الْأَجَلَ وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ)^(٧).

ولا تتوقف الدقة في خطاب الإمام عليه السلام عند وصف معنوي، بل يتجاوز ذلك إلى الوصف المادي، فيصف في خطاب كامل أجزاء خلق من خلق الله تعالى وهو الطاووس -مثلاً-، ويدقق الوصف فيه بوصف ما هو مادي للارتقاء إلى ما هو معنوي، ممّا لا يمكن إدراكه بحس وذلك ليوصلهم إلى العجز عن وصف الخالق الذي لا يحد بمكان أو زمان ولا يوصف كوصف الإنسان، فأقل أجزاء الطاووس كما يصفه الإمام عليه السلام (قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامُ أَنْ تُدْرِكَ هُمُومُ الْأَلْسَانَةِ أَنْ تَصِفَ هُفْسُ بَدَنِ الْبَنِي بَهَرِ الْعُقُولِ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُمُودًا مُكُونًا وَمُؤَلَفًا مُلُونًا وَأَعْجَزَ الْأَلْسَانُ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَتْ بِهَا عَنْ تَأْيِيدِ نَعْتِهِ)^(٨)، محاولاً الارتفاع بهم عن النظرة المادية التي تركزت في الناس بفعل انقلاب

(٥) ينظر: م.ن: ٨٤، ص ١١٥.

(٦) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٢٢.

(٧) نهج البلاغة: خ ١٧٦، ص ١٠٣.

(٨) م.ن: خ ١٦٥، ص ٢٣٨.

الأمور إلى النظرة البعيدة عن الحس للارتقاء بهم ، ومن ما يرون من جمال إلى ما لا يمكن تصوّره في الجنان فـ(كُلُّ شَيْءٍ عِندَ مَنْ الشُّبَّانِ سَمَاءٌ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَ مَنْ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ)^(١)، ولذا يصف لهم الإمام عليه السلام في الدنيا ما تراه أعينهم في دار الفناء ويصعب وصفه عليهم، لتقوية إيمانهم بالخالق الذي أعدّ لهم في دار الجزاء والبقاء ما لم يتهيّأ لأحد معرفته، إلّا من رسخ الإيمان في قلبه.

ويدقّق الوصف ولا سيما فيما يراهم يتناسونه، وهم الأولى بتذكره فلا واعظ مثله وهو الموت، ولذا يدقّق في وصف المراحل التي يمرّ بها الإنسان بعد ان يذكّرهم بالسابقين ممن عملوا للدنيا وتركوها^(٢)، فيصف الإنسان في أواخر أليمه، وينتقل في وصفه مما تراه أعينهم وتتناساه قلوبهم من تعيّر الحال عند المرض وانشغاله بنفسه^(٣)، إلى تعيّر ألوانه وموت جوارحه وبدنه^(٤)، ليصل به إلى قبره^(٥)، ثم يتجاوز ذلك إلى وصف ما لا تراه أعينهم بعد الموت من البعث والمعاد وما ينتظر الإنسان من مواقف وأحوال^(٦).

وهذا التدقيق في تناول المعاني لا يملكه إلا الرجال الذين خصهم الله سبحانه وتعالى بتسبيحه فلا تلهيهم عنه تجارة ولا يشغلهم بيع (يَأْمُرُ وَنَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُ وَنَبِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَذْكُرُوا الشُّبَّانِ وَالشُّبَّانِ إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَوْ شَاهُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَانَتْ أَعْيُنُهُمْ غُيُوبٌ أَهْلُ الْبَرَزِخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الشُّبَّانِ حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ)^(٧)، وهم الإمام والأئمة من أهل بيته عليهم السلام، فهذه البلاغة يعجز عنها من سواهم.

على ان التدقيق في الوصف لا يعني صعوبة فهم خطاب الإمام عليه السلام، بل كانت لخطابه معانٍ واضحة من ظاهر اللفظ يفهمها الجميع، "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه،

(١) نهج البلاغة : خ ١١٤، ص ١٧٠.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٣٢، ص ١٩٠.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٢٢١، ص ٣٤١.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٠٩، ص ١٦٠-١٦١.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١١١، ص ١٦٦.

(٦) ينظر : م.ن : خ ٨٣، ص ١٠٧-١١٤.

(٧) م.ن : خ ٢٢٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله" ^(١)، وكلما ازداد قربهم من الإمام عليه السلام ومعرفتهم بحقه، ازداد علمهم وفهمهم لمعاني خطابه العميقة وتوسعت علومهم تبعاً لذلك.

ويمكن الإيجاز في خطاب الإمام عليه السلام من خلال الأوجه التي يحملها الخطاب الواحد، فكلام الإمام فيه عبق من كلام النبوة الخالد ^(٢)، فعند وصيته لهم بالتزام الجادة الوسطى -على سبيل المثال- في قوله (الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ الْجَانَّةُ عَلَّاهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ النَّبُوَّةِ وَمِنْهَا مَنَفَذُ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ) ^(٣)، فإنه يريد لمن لا يصل فيه إلا لمعانٍ مباشرة بأن خط الإمام عليه السلام هو الاعتدال الذي لا يميل الإنسان معه عن الحق بانتقاص ولا يرتفع عنه إلى مبالغة وغلو، أما من رأى حق أهل البيت عليهم السلام وأمن بمعجزاتهم وتفرّد بهم بما خصّهم به الباري عز وجل في كتابه من آيات، إذ جعلهم الله تعالى بامثالهم لأوامره وطاعتهم شهداء على الناس ^(٤)، فسيصل إلى أن الإمام وأهل بيته عليهم السلام هم الطريق الوسطى التي يطلب الإمام عليه السلام التزامها بقوله (خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَأَلْزَمُوهُ) ^(٥)، وأنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى طريق الاعتدال إلا بالتمسك بهم عليه السلام، فالإمام عليه السلام -ومن بعده أهل بيته عليهم السلام- هو الطريق الوسطى الذي جمع بفضائله وخصائصه "بين الأضداد وألف بين الأشتات" ^(٦).

وعلى الرغم ممّا اشتهر به العرب من الفصاحة والبيان اللذين يمكن عنهما العلم الوحيد لهم ^(٧)، إذ كانت معجزة الرسول صلى الله عليه وآله

(١) البيان والتبيين : ٨٣/١.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٣٢٧.

(٣) م.ن : خ ١٦، ص ٥٨.

(٤) ينظر : الألفين : ٧٩. وهو الوارد في قوله تعالى ((وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم)) (سورة البقرة/١٤٣). وفي هذا يقول الإمام علي ومثله الإمام الصادق عليهما السلام (نحن النمرة الوسطى، بها يلحق التالي، واليه يرجع الغالي). نهج البلاغة : قول ١٠٩، ص ٤٨٨.

(٥) م.ن : خ ١٢٧، ص ١٨٤.

(٦) نهج البلاغة : مقدمة الشريف الرضي : ٣٦.

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

وسلم من جنس ما عرفوا به ^(٣)، إلا أنهم جمعوا إلى ما عرفوا به ما وصفهم به القرآن الكريم في آياته من الدهاء والذكراء والمنكر واللدد عند الخصومة ^(٤).

ولو عدنا إلى البلاغة عند الإمام علي عليه السلام لوجدناها تتجاوز القول إلى معانيه، ويصف ذلك الإمام عليه السلام بقوله (ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة) ^(٥)، إذ كانت البلاغة عنده صفة ينتقي على أساسها رسله ^(١)،

أما بلاغة خطاب الإمام عليه السلام فقد كانت -زيادة على ما سبق- قولاً بالحق في زمن قلّ الناطقين فيه بالحق ^(٦)، ونطقاً بالصواب الذي وصف به نطق المتقين ^(٧)، بلسان صالح لم يعطه الله إلا لأحب عباده إليه (قَدْ أَلْزَمَ فَسَدُهُ الْعَدْلَ فَكَأَنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِ فَيُؤَيُّ الْهَوَى عَنْ فَسَدِهِ يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ) ^(٨)، فخطاب الإمام عليه السلام وصف للحق الذي لم يشك فيه يوماً ^(٩)، ولم يضعف عن قوله، فلم يداهن في كلام أو يماري في خطاب، مثلما لم يحل بينه وبين قتال من خالف الحق إدهان أو إيهان ^(١٠)، وكيف يضعف من كان وقوفه لنصرة الحق وإعلاء كلمته، واجتماع ذلك مع بيان الإمام عليه السلام وفصاحته، وإقامة العدل ونشره، فكان كلامه فقهاً أشاد به أعداؤه قبل أنصاره ^(١١)، وقد كانت بلاغة خطاب الإمام عليه السلام بلاغة إعجازية لم يشهد لها العرب ولم يسبق لها - إلا من رسول الله صلى

^(٣) قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام (إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام - وأظنه قال الشعر - فأثامهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم واثبت الحجة عليهم). أصول الكافي : ٤٠/١.

^(٤) ينظر : البيان والتبيين : ٨/١.

^(٥) كتاب الصناعتين : ١٨٠.

^(٦) وقد اختار الإمام عليه السلام الطرمح رسولاً لمعاوية لبلاغته، فبعثه بكتاب له فاعجب معاوية بفصاحته وبلاغته، فأجابه الطرمح عن إعجابه : لو بلغت باب أمير المؤمنين عليه السلام لوجدت الأدباء والفصحاء والبلغاء الفقهاء النجباء الأتقياء الأصفياء، ولرأيت رجالاً سيماهم في وجوههم من أثر السجود. صحيفة الأبرار : ٣١٣.

^(٧) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢٣٣، ص ٣٥٤.

^(٨) ينظر : م.ن : خ ٤، ص ٦٦.

^(٩) ينظر : نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١١٨.

^(١٠) ينظر : م.ن : خ ٤، ص ٥١.

^(١١) ينظر : م.ن : خ ٢٤، ص ٦٦.

^(١٢) ينظر : م.ن : قول ٤٢٠، ص ٥٥٠، ويرد معاوية على من وصف الإمام عليه السلام بالعي - تملقاً له - بالقول (أما قولك العي فوالله لو أن ألسن العرب جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفاها لسان علي). بهج الصباغة : ٢٦/١.

الله عليه وآله وسلم-، وهي تتجاوز اللفظ إلى معاني الحق والعدل، "فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة" ^(٥)، وهو مما لا يتاح لأحد إلا لمن خصّه الله عزّ وجل بالرسالة، فقد كان الإمام عليه السلام "إذ كان مشرّع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثاله هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا، وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبق من الكلام النبوي" ^(٦)، وخطاب الإمام عليه السلام ينطق بالكلم والعلم الرسالي الذي أعطي له ^(٧)، فبلاغة الإمام عليه السلام تسديد وتوفيق من الله سبحانه من جانب، ووراثه عن رسوله الكريم محمد ﷺ من جانب آخر ^(٨)، وما عرف به من قدرة واقتدار على فهم وإفهام الشعوب والقبائل على اختلاف لغاتها، زيادة على ما أفاضه من غريب لم يعرفه العرب من بلاغة معجزة ^(٩).

^(٥) البيان والتبيين : ٨٣/١.

^(٦) نهج البلاغة : مقدمة الشريف الرضي : ٣٤.

^(٧) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أعطيت جوامع الكلم وأعطي علي جوامع العلم).

مصادر نهج البلاغة وأسانيده : ١٧٢.

^(٨) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٧٧.

^(٩) ينظر : م.ن : ٣٤٨-٣٤٩.

تلقي الخطاب

لقد كان خطاب الإمام عليه السلام رسالة موجهة إلى مخاطبيه لا تقف عند حد تبليغ الخطاب، بل يتجاوز ذلك إلى تمكين مخاطبيه مما يوجهه إليهم من خطاب ذلك "ان فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع"^(١).

وقد اقترن توصيل الرسالة في القرآن بتبليغها، وبلاغة الإمام عليه السلام بتوجيه خطابه الرسالي لمخاطبيه، وتبليغهم عن الله تعالى ما بلغهم به رسوله ﷺ^(٢)، تذكيراً وتنبيهاً وإفهاماً - لا تبشيراً وإعذاراً وإنذاراً كالأنبياء-، لقيادة المهتدين منهم في سبيل النجاة^(٣)، ولذا كان يقول الإمام عليه السلام (تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَلْيِغَ الرِّسَالَا تِ وَأَتَمَّ الْعِدَاتِ)^(٤)، فهو وصي النبي ﷺ وخليفته في أرض الله وعباده، وبه امتداد الرسالة الخاتمة التي كان الخطاب وسيلة لتبليغها في عصر الشفاهية، كما هو وسيلة الرسائل السابقة التي بها تقدمت البشرية، فقد نشأت اللغات البشرية في صورة صوتية تنطلق من الأفواه وتتلقفها الأسماع ثم تفسرها الأذهان^(٥).

ونجد في خطاب الإمام عليه السلام متابعة تلقي ذلك الخطاب ومدى التزامهم به^(٦)، حيث يتصل تلقي الخطاب بإرساله، وفي الإرسال الشفاهي يكون السماع هو الجهة الخاصة بتلقي الخطاب، والأذن جهاز استقبال الصوت الذي يصدر منه الخطاب، فالصوت الإنساني "اثر سمعي ينشأ من اتصال جسم بأخر"^(٧)، وله قيمته السمعية^(٨).

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٦٣/١.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢٠، ص ٦٢.

(٣) ينظر : م.ن : خ ٣٣، ص ٧٧.

(٤) م.ن : خ ١٢٠، ص ١٧٦.

(٥) دلالة الألفاظ، ابراهيم أنيس، مكتبة الانجلو، مصر، ط ٣، ١٩٧٢ : ١٩٣.

(٦) فإن كان في كتاب فن الشعر لأرسطو ما عدّ تصويراً لاستجابة المتلقين وبالتالي لنظرية التلقي باهتمامه على فكرة التطهير ومثلها عند البلاغيين العرب القدماء. ينظر : نظرية التلقي مقدمة نقدية، روبرت هولب، ترجمة : عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط ١، ١٩٩٤ : ٦٥. فإن خطاب الإمام عليه السلام كان أساس لفث أنظار العرب إلى دور التلقي والاستجابة الصادرة عنه.

(٧) أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٦ : ٣٠.

(٨) ينظر : البناء الصوتي في البيان القرآني، محمد حسن، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨ : ٦.

ويهتم الإمام عليه السلام بالسماع اهتماماً بالغاً، إذ كان أول وأفضل متلقٍ من رسول الله ﷺ، إذ يقول (اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَلْتَبَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ) (٣)، ولا سيما بعد ما خصه الرسول ﷺ بالدعاء لأذنه بالوعي (٤)، ولذا يقرن الإمام عليه السلام بين تعليم النبي ﷺ له ودعائه بالقول عن علمه انه (عِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ بِذِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعَلَّمْنِيهِ وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِدَّ مُصَدِّرِي وَتَظُمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي) (٥). ولم ينس الإمام عليه السلام شيئاً بعد ذلك سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سواء أكان سماعه لما كان الرسول ﷺ يبادر به الإمام ويصفه بالقول (وَمَا أَقْبَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفَرَّ عَفْوَ أَذَنِي وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ) (٦)، أم لأسئلة يوجهها الإمام عليه السلام لصاحب الرسالة، ويحفظ ما يجيبه عليها، فيصفه الإمام عليه السلام بالقول (وَكَا أَنْ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُ) (٧).

وقد تمكن الإمام عليه السلام بقوة إيمانه من سماع ما يسمعه الرسول ﷺ (١)، مثلما سمع الملائكة وهي تدور حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاته إذ يقول (وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسّاً مُصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي فَضَجَّ بِلَلِّ الْكُرِّ وَالْأَفْنِيَّةِ مَلَأُ يَهْبِطُ وَمَلَأُ يَعْرُجُ وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْهَاتَ مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَدَّثَ نَارَ نِيَاهُ فِي ضَرِيحِهِ) (٢)، فكان الإمام عليه السلام أول المنتفعين بالاستماع إلى رسول الله ﷺ المعبرين بالآيات إذ يقول الإمام (وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ الدَّمِ يَسْمَعُ النَّاعِي وَيَحْضُرُ الْبَاكِي ثُمَّ لَا يَغْتَبِرُ) (٣).

والسمع مفتتح الطاعة وباب الإجابة (٤)، ولذا نجد اهتمام الإمام عليه السلام بالسماع وتشديده على أهميته، فيندفع الإمام عليه السلام إلى تنبيه ذوي النعمة من سكرتهم بالقول (أَفِقْ أَتُهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ) (٥)، وتحذير

(٣) نهج البلاغة : خ ١٣١، ص ١٨٩.

(٤) وذلك عند نزول قوله تعالى ((وتعيبها أذن واعية)) (سورة الحاقة/١٢). ينظر : شرح ابن أبي

حديد : مجلد ٢، ٤٠٢/٧.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٢٨، ص ١٨٦.

(٦) م.ن : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(٧) م.ن : خ ٢١٠، ص ٣٢٨.

(١) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٢، ص ٣٠١.

(٢) م.ن : خ ١٩٧، ص ٣١١.

(٣) م.ن : خ ١٤٨، ٢٠٦.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١، ص ٤٥.

(٥) م.ن : خ ١٥٣، ص ٢١٤.

الغافل من غفلته بقوله (فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَتُّهَا الْمُسْتَمِعُ وَالْجَدَّ الْجَدَّ أَتُّهَا الْغَفْلُ) ^(٦)، وينكر الأمر على من (مُتَمَرِّدًا كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَن سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقَرَأَ) ^(٧).

ولا يقتصر اهتمام الإمام عليه السلام في خطابه على حاسة السماع، بل يشارك الخطاب القرآني في تشديده على حاستي السماع والنظر معاً، فقد كان يوجه خطابه لأبصارهم وأسماعهم معاً بقوله (أُولِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ) ^(٨)، وذلك للدور الكبير الذي تلعبه إذ يقول الإمام عليه السلام (كُلُّ شَيْءٍ عِندَ اللَّهِ سَمَاعٌ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَ اللَّهِ عِيَانٌ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ) ^(٩)، لتنبههم إلى ما انعم الله به عليهم وتذكيرهم بأداء ما فرض عليهم من حق بازائها.

والسمع كما ثبت علمياً - أكثر تعقيداً من البصر ^(١٠)، إلا أن البصر اصدق في الوصول إلى الحق، ولذا يقول الإمام عليه السلام (أَمَّا إِذَا هُتِيبَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ)، ويتبعها بالقول (الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ) ^(١١)، أي "ان ما تسمعه يحتاج إلى الشاهد والدليل، أما ما تراه فهو دليل بنفسه" ^(١٢).

وقول الإمام عليه السلام وإن كان موجهاً لكل زمان غير مقتصر على زمانه، إلا أن تشديد الإمام عليه السلام على ذلك دليل على كثرة الآراء والتقولات في عصره التي لا سبيل للقضاء عليها إلا بالسماع المباشر للإمام عليه السلام الذي تراه أعينهم، مثلما ترى سبقه للعمل بالحق قبل دعوتهم إليه.

ويشدد الإمام عليه السلام على السماع الواعي ومثله النظر، ولذا يقول الإمام عليه السلام (وَمَا كُلُّ نَفْسٍ بِلَبِيبٍ وَلَا كُلُّ نَفْسٍ بِسَمِيعٍ وَلَا كُلُّ نَفْسٍ بِبَصِيرٍ) ^(١٣)، وعلى أن لا يوقف الإنسان حواسه على ما يسمع

(٦) م.ن : خ ١٥٣، ص ٢١٤.

(٧) م.ن : خ ١٢، ص ١٨٧. وفي القرآن وصف لأمثالهم بقوله تبارك وتعالى ((ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون)) (سورة يونس/٤٢).

(٨) نهج البلاغة : خ ٨٣، ص ١١٤.

(٩) نهج البلاغة : خ ١١٤، ص ١٧٠.

(١٠) ينظر : القرآن إعجاز يتعاضم، شاکر عبد الجبار، الحوادث، بغداد، ط ١، ١٩٨٥ : ١٤٨-١٤٩.

(١١) نهج البلاغة : خ ١٤١، ص ١٩٨.

(١٢) فلسفات إسلامية : ٦٨٤.

(١٣) نهج البلاغة : خ ٨٨، ص ١٢١.

أو يبصر في الدنيا، بل يجعل ذلك طريقاً للوصول إلى الآخرة (وَإِنَّمَا الشُّيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْي لَا يُبْصَرُ مِمَّا وَرَاءَ هَا شَيْئاً وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُ هَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ وَرَاءَ هَا فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَالْأَعْي إِلَهٌ شَاخِصٌ وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُدْزَوٌّ دَوَّالٌ أَعْي لَهَا مُدْزَوٌّ^(١)).

ولا يمثل السماع أقصى عملية التلقي، بل انه مبتدؤها، فالوعي والتفكير هو الهدف الأساس الذي جعل الله السماع منفذاً مادياً له، لذا يخاطبهم الإمام عليه السلام بقوله (جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَ تَلَهُ)^(٢)، ولم يكن ما يسمعون الإمام عليه السلام بجديد عليهم، بل كان تذكيراً بما أنساهم الشيطان ذكره، لذا يرى (إِنَّ أَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكَيرَ وَقَبْلَهُ^(٣)).

ومن هنا يأتي تشديد الإمام عليه السلام على السماع الواعي لا السماع فحسب بقوله (رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ حُكْمًا فَوَعَى)^(٤)، ليكون الإنسان بصيراً (فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ وَطَرَّ فَأَبْصَرَ)^(٥)، ومعتبراً فيقول الإمام عليه السلام (رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ)^(٦)، لذا ينكر على جاحدي ولايته من الناكثين والمارقين والقاسطين^(٧) عدم سماعهم لآيات الله أو حتى عدم وعيها والتي أصبحت في عصر الإمام عليه السلام مكتوبة (كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَ تَقُولُ تِلْكَ الْكُلُّ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّهِ لَا يُرِ يُونُ غُلُورًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوا وَوَعَوْ هَا وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الشُّيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زُرْجُهَا)^(٨).

ويدعوهم الإمام عليه السلام إلى الانتفاع من مواعظه، وما يذكره من دروس وعبر بإشغال الحواس وتفعيلها للسير في طريق الحق، إذ يقول (فَلْيَنْتَفِعِ أَمْرٌ وَدِفْسُهُ فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ وَطَرَّ فَأَبْصَرَ وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ ثُمَّ سَلَكَ جَدِّدًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي وَالضَّلَالِ فِي الْمَهَاوِي وَلَا يُعِينُ عَلَى فُوبِهِ الْغُورُ آتِبَتَعَسُفٍ فِي حَقٍّ أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نَطْقٍ أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ)^(٩).

(١) نهج البلاغة : خ ١٣٣، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) م.ن : خ ٨٣، ص ١١٠.

(٣) م.ن : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٤) م.ن : خ ٧٦، ص ١٠٣.

(٥) م.ن : خ ١٥٣، ص ٢١٣.

(٦) م.ن : خ ١٠٣، ص ١٤٩.

(٧) ينظر : شرح البحراني : ١/ ١٧٧.

(٨) نهج البلاغة : خ ١، ص ٤٩-٥٠.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٥٣، ص ٢١٣.

وتلازم دعوة الإمام عليه السلام لمخاطبيه مع دعوته للإبصار دليل على ان خطابه كان خطاب روعي يتوجه به إلى حواس قلوبهم ليجد صدها يتردد فيها قبل ان يصل إليها صوت الإمام عليه السلام فتستجيب نفوسهم لذلك الصوت وترتفع عما تراه في الدنيا إلى ما رُوي عنها في الآخرة، وما خفي عنها في علم الغيب فيكون الإيمان ثابتاً فيها مستقراً لا تزلزله شكوك، ولا تهزّه تقولات.

ومن هنا يشترط الإمام عليه السلام ما يقابل خطابه الروحي عند مخاطبيه، وذلك بأداء حق حواسهم، فالمتقون (غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ)^(٢)، ويصف لهم طريق الانتفاع من مواعظه وأمثاله (يَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً وَآرَاءَ عَازِمَةٍ وَالْأَبَابَ حَازِمَةً)^(٣)، فالأسماع يشترط لها الوعي، والقلوب التزكية، ليكتفي الإنسان بالسماع في الدنيا والانتفاع بالمواعظ، ولا سيما فيما كان يدعوهم له الإمام عليه السلام، وما كان يصفه عن دار الآخرة مما يفوق السمع عيانه^(٤).

ويقترن وعي الإنسان بقلبه الذي يعد موطن فطرة الله التي فطر عليها الخلق جميعاً وهي (كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ)^(٥)، بعد ان اخذ ميثاق العبودية عليهم في عالم سابق لعالم الأجساد^(٦)، وخلقها مزودة باستعداد لسلوك سبيلي الخير والشر، إلا ان الله عز وجل حبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر^(٧).

ان الله سبحانه وتعالى (جَابَلَ الْقُلُوبَ عَلَى فِطْرَتِهَا شَقِيحًا وَسَعِي يَنْهَى)^(٨)، فالقلب موطن الفضائل والرزائل الخلقية^(٩)، وله (مواد من الحكمة وأضداداً من خلافها)^(١٠)، فإذا حافظ الإنسان على فطرته سليمة من الشوائب، خالية من الحجب، بتأدية كل جارحة من جوارحه لما فرض

(٢) م.ن : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

(٣) م.ن : خ ٨٣، ص ١٠٩.

(٤) م.ن : خ ١١٤، ص ١٧٠.

(٥) م.ن : خ ١١٠، ص ١٦٣.

(٦) ينظر : شرح البحراني : ٣١٥/١.

(٧) في قوله تعالى ((ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق

والعصيان)) (سورة الحجرات/٧).

(٨) نهج البلاغة : خ ٧٢، ص ١٠٠.

(٩) ينظر : شرح البحراني : ٥٣١/٢.

(١٠) نهج البلاغة : قول ١٠٨، ص ٤٧٨.

عليها ^(٦) كان قلبه سليماً وبقي على عهده القديم " من توحيد صانعها وبراءته عن الكثرة " ^(٧)، فيزوده الله تعالى بما يسدد خطاه ^(٨)، ويعينه على سماع صوت الحق، فيكون الإنسان عندها عاقلاً، ولا أكمل الله العقل إلا فيمن أحبه، ولا تظهر تلك المحبة إلا بمقاتلة الهوى، ودون ذلك " فالإنسان دائماً في صراع ملائكي وشيطاني حتى يتغلب أحدهما عن الآخر باختيار الإنسان " ^(٩).

ومن هنا لم تكن أسماع مخاطبي الإمام المادية هي المقصودة بخطابه فحسب بل قلوبهم، ويشدد الإمام عليه السلام على ذلك بوصفهم بأوصاف متضادة توضح عدم توجيه حواسهم الوجهة الصحيحة بقوله (مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحَ وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحَ وَنُسَاكاً بِلَا صَلَاحَ وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحَ وَأَقْيَاطاً نُوماً وَشُهُوداً غُيًّا وَلَظَرَةً عَمِيَاءَ وَسَامِعَةً صَمَاءَ وَلَطِيقَةً بَكَمَاءَ) ^(١٠)، ليدل على خلوها من الفائدة الروحية التي خلقت لها لعدم انتفاعهم بالمواعظ والعبر ^(١١)، والتي لا يكون الانتفاع بها إلا بقلب سليم، فحکم الإمام عليه السلام (حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُمُو السَّلَامَةُ) ^(١٢).

ولذا فقد كان الإمام عليه السلام يطلب منهم إحضار آذان القلوب لسماع خطابه فيقول (إِنَّمَا مَثَلِي بِكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا فَاسْمَعُوا أَتُهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضِرُوا أَدَّ أَنْ قُلُوبَكُمْ تَفْهَمُوا) ^(١٣)، ويطلب في خطاب آخر منهم وجوب التوقف عن الكلام والإنصات للإمام

^(٦) ينظر : أصول الكافي : ٦٠/٢ - ٦١.

^(٧) ينظر : شرح البحراني : ٥٢٤/١.

^(٨) يقول الإمام الصادق عليه السلام (ما من قلب إلا وله أذنان، على إحداهما ملك مرشد وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يجره، الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يجره عنها، وهو قول الله عز وجل ((عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)) (سورة ق/١٧-١٨)، وفي رواية أخرى قوله (ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه، أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، وأذن ينفث فيها الملك، فيؤيد الله المؤمن بالملك، فذلك قوله ((وأيدهم

بروح منه))) (سورة المجادلة/٢٢). أصول الكافي : ٢٨٩-١٨٨/٢.

^(٩) الشيطان على ضوء القرآن، عادل علوي، المؤسسة الإسلامية، قم، ط ١، ١٤٢٣ هـ : ٣٩.

^(١٠) نهج البلاغة : خ ١٠٨، ص ١٥٦.

^(١١) ينظر : شرح البحراني : ٥٠٧/١.

^(١٢) نهج البلاغة : خ ١٣٣، ص ١٩٢.

^(١٣) م.ن : خ ١٨٧، ص ٢٧٧-٢٧٨.

بالإقبال إليه بأفئدتهم بقوله (أَمْ سَكُوتًا عَنِ الْكَلَامِ وَأَنْصَتُوا لِقَوْلِي وَأَقْبَلُوا بِأَفئِدَتِكُمْ)^(٥)، ليكون الوعي طريقاً للعمل بطاعة الإمام عليه السلام. فقد كان خطاب الإمام عليه السلام خطاباً روحياً خالداً يخاطب به حواسهم الباطنية لا الحاسة الخارجية، إذ تتصل حواس الإنسان بعقله، حيث يهيمن العقل البشري على عملية إنتاج الصوت "بواسطة إشارات وتعليمات يرسلها عن طريق الجهاز العصبي الى أعضاء النطق أو إلى جهاز السمع"^(٦)، وإلى سائر الحواس والأعضاء، والعقل حاسة القلب^(٧)، والحواس نوافذ له، "فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح"^(٨)، ولذا قد يعبر عن القلب بالعقل^(٩)، ولذا يعد القلب إمام الجوارح ولا غنى لها عنه، ولذا يقول الإمام عليه السلام (نَظَرُ قَلْبٍ اللَّيِّبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ)^(١٠).

فخطاب الإمام عليه السلام موجّه إلى قلوبهم لتنقيتها، وتنبيهها وإيقاظها من غفلتها، حتى ما كان يخاطب به عقولهم، فالعقل وإن امتلك القدرة على الإدراك أو تمييز الأشياء والتحكم في عمل الحواس إلا أن القلب إمام تلك الجوارح والقائد لها^(١١)، فالعقل يدرك الخير والنفع مثل إدراكه للشر، إلا أن لحكامه شبيهة بأحكام الرياضيات، إلا أن للأهواء والرغبات تأثير أكبر ممّا للأحكام من تأثير^(١٢)، لذا فإن قوة الإرادة والاندفاع لعمل الخير مصدرها القلب فهو الذي يعرف طريق الحق ويدفع صاحبه للسير فيه والثبات على الإيمان والتراجع عنه، ولذا (فَمَنْ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِراً فِي الْقُلُوبِ وَمِنْهُمَا يَكُونُ عَوَارِئاً بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ)^(١٣)، والقلب مستقر الإيمان، ولذا فإن "الطرق

(٥) م.ن : خ ١٢٢، ص ١٧٨.

(٦) التفكير الصوتي عند الخليل، حلمي خليل، دار المعرفة، مصر، ط ١، ١٩٨٨ : ١١.

(٧) يقول الإمام الصادق عليه السلام في وصف الإيمان الذي فرضه الله تعالى على حواس الإنسان وجوارحه (فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره). أصول الكافي : ٦٠/٢.

(٨) م.ن : ١٩١/١.

(٩) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، تركيا، ١٩٨٩ : مادة قل ل ب.

(١٠) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥.

(١١) ينظر : أصول الكافي : ١٩١/١.

(١٢) ينظر : الله يخاطب العقول : ٨٠.

(١٣) نهج البلاغة : خ ١٨٩، ص ٢٧٩.

العقلية عاجزة عن التأثير على عقائد الناس وتحويلها لعجزها عن التأثير على عواطفهم المتحكمة فيهم" (٦).

والقلب يقود الإنسان إلى الطريق الواضح كلما كان سقيه بمياه طيبة، حيث (أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ بَاتًا وَكُلُّ بَاتٍ لَا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ فَمَا طَابَ سَقِيُّهُ طَابَ عَوْدُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ وَمَا خُبْتُ سَقِيٌّهُ خُبْتُ عَوْدُهُ وَمَا مَرَّتْ ثَمَرَتُهُ (١)، وسقاء القلب بالعلم النافع الذي لا يكون إلا الإمام مصدراً له، ولا تفتح مسامع القلب إلا لمن أحبه الله جل ذكره وأراد به خيراً (٢).

لذا فقد جعل الله عز وجل ذكره (جِلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَفْرِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ)، وخص من خلقه عباداً (لِجَاهِهِمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمِهِمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ فَاسْتَنْصَبُوا بُنُورَ يَقْظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ يُذَكِّرُونَ بِأَلِيمِ اللَّهِ وَيُهِوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَلَّةِ فِي الْفُلُوقِ) (٣) لهداية الناس إلى سبيل الله تعالى، فقد خص سبحانه الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كونهم هادين إلى سبيل الله كأدلة للناس (٤) لما علم منهم، فهم (يَهْتَفُونَ بِالزَّوْاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتِمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَذَرُونَ عَذْمَهُ) (٥)، ولذا وصف سبحانه في كتابه الإمامة بالهداية وقيدتها بأمر الله عز وجل (٦).

ويربط الإمام عليه السلام بين السماع والأثر الروحي الذي يترتب عليه، وذلك في وصف الإمام عليه السلام لترتيل المتقين لأجزاء القرآن، وما للترتيل من صلة بين الصوت والسمع وأثر روحي بوصفهم (تَالِيَيْنَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُّ وَهِيَ تَرْتِيلًا يُحْزَنُ بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَيَسْتَتِيرُونَ بِهِ دَوَاءً

(٦) علوم نهج البلاغة : ٣٣٨.

(١) نهج البلاغة : خ ١٥٤، ص ٢١٥. ولذا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً، فكان منها نقيية الماء، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً). بهج الصباغة : ٢١٣/٢.

(٢) ينظر : أصول الكافي : ٢٤٣/٢.

(٣) نهج البلاغة : خ ٢٢٢، ص ٣٤٢.

(٤) ينظر : شرح البحراني : ١٣٦/٢.

(٥) نهج البلاغة : خ ٢٢٢، ص ٣٤٢.

(٦) الرمز في قصة إبراهيم، احمد العبيدي، دائرة معارف الفقه الإسلامي، ط ١، ١٩٩٨ : ٤٠ - ٤١، في قوله تعالى ((وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا)) (سورة السجدة/٢٤).

دَانِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا تَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصَبٌ أَعْيُنُهُمْ وَإِذَا مَرُُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَتَهْيِيقَهَا فِي أَصُولِ آدَانِهِمْ^(١).

ولذا يوجههم الإمام عليه السلام لسماع صوته بصفته رباني الأمة، المتأله والعارف بالله سبحانه^(٢) (فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبِّكُمْ وَأَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ وَاسْتَقِظُوا إِنْ هَفَفَ بَكُمْ)^(٣)، والأمين على الوحي الخازن للعلم الذي يدعو لمبادرته بقوله (فَبَايُواوَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوَيحِ رَبِّهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَشْذَحُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَنَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِزْدَاهِلِهِ)^(٤).

لذا لا يطلب الإمام عليه السلام من مخاطبيه الاستماع إلى صوته المادي فحسب، بل لما يدعوهم له، ودعوته دعوة الحق التي لا يسمعها إلا من وعى منطقته^(٥)، ولذا يحذّرهم من سماع ناطق الدنيا بالقول (لَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا وَلَا تَسْمَعُوا لَطْفَهَا وَلَا تُجِيبُوا لَعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا وَلَا تُقَنِّتُوا بِأَعْلَاقِهَا فَإِنَّ بَرَقَهَا خَلَبٌ وَنُطْقَهَا كَاغِبٌ وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ^(٦) وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ)^(٧)، ويحاول تنفيرهم عنها لإبعادهم عن التعلق بها، محاولاً إسماعهم دعوة الموت بدعوتهم للزهد في الدنيا إذ يقول (أَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ أَذْ أُنْذِرُكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ)^(٨)، لأن حب الدنيا سيمرض أسماعهم ويقف حائلاً دون حصولهم على العلم النافع فيقول الإمام عليه السلام (مَنْ عَاشَرَ شَيْئاً عَنَى بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بَعْنِي غَيْرِ صَاحِبَةٍ وَيَسْمَعُ بِأُذُنِ غَيْرِ سَمِيعَةٍ قَدْ حَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ وَأَمَاتَتِ اللَّيْثُ قَلْبَهُ وَأَوَّلَهَتْ عَلَيْهِ أَفْسُدُهُ فَهُوَ بُلْهًا وَلَمْ يَفِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا دَائِمًا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا وَدَائِمًا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيَّهَا لَا يَذْزَجُرُ مِنَ اللَّهِ بِرَاجِرٍ وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ)^(٩)، ولا سيما أن صوت الدنيا يتجاوب مع سلطان النفس وما تتوق له من ملاذ فيلبي نداءها ويشعرهم بلذة تغييهم عن سماع العلم الصحيح، وتحول دون انتفاعهم بالمواعظ البليغة.

(١) نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٢٨٠.

(٢) ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ٢، ٣٨٩/٧.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٠٨، ص ١٥٧.

(٤) م.ن : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٥) ينظر : م.ن : خ ١٣٩، ص ١٩٦.

(٦) محروبة : منهوبة.

(٧) نهج البلاغة : خ ١٩١، ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٨) م.ن : خ ١١٣، ص ١٦٨.

(٩) نهج البلاغة : خ ١٠٩، ص ١٦٠.

ولم تكن دعوة الإمام عليه السلام لمخاطبيه فيما تتوق له أنفسهم، بل كان يدعوهم إلى ما يتفق مع القلوب السليمة، إذ لم تكن دعوته لدنيا يبصرونها، بل لآخرة مؤجلون عنها، لا يراها إلا من نقت سريرته وصفت نفسه، ولذا يقول الإمام عليه السلام (فَمَنْ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ فُسْدَهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَفْعَلْ فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ ذَا مَثَقَةٍ تَثْبِيَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ)^(٢).

ويقترن السماع عند الإمام عليه السلام بالطاعة، فما الطاعة إلا إقبال على الحق وبعبكسه المعصية، لذا يقول الإمام عليه السلام (وَلَكِنِّي أُضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَذُّهُوَ بِالسَّمَاعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيِ الْمُرِيبِ أَبَدًا)^(٣)، وقد توضّح الحق متجسداً بطاعة الإمام عليه السلام، فدعوته امتداد لدعوة الرسول محمد ﷺ الذي (أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْنَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَتَلَزُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ فَقَفَى بِهِ الرُّسُلَ وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَذُّهُوَ الْعَالِينَ بِهِ)^(٤)، فالإمام عليه السلام حجة عليهم ولا عذر لهم بعدم طاعته إذ يقول (اعْتُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ)^(١)، والسماع له باب للخير^(٢)، لذا كان الإمام عليه السلام يقول (أَلَا تَلْهَهُ دُلَّكُمْ وَحَجِيجُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ)^(٣).

وهذا يؤكد من جانب آخر أن خطاب الإمام عليه السلام لم يكن خطاباً عادياً، ولم يكن مرسله خطيباً عادياً، بل كان خطابه متصلاً اتصالاً مباشراً بمقام الإمامة الذي يرسل خطابه منه إلى مخاطبيه بوصفه العلم الهادي والخليفة الإلهي الذي ينشر العدل بينهم ويحاول الارتقاء بهم إلى أعلى درجات الكمال.

فقد جعل الله تعالى طاعة الإمام عليه السلام هدايةً للعباد وحجةً عليهم وكشفاً لطاعتهم لله تعالى، لأن الطاعة نية في القلب وعمل مخلص بين العبد وربّه، ولا تتم إلا بطاعة الإمام عليه السلام التي تعد تجسيداً لطاعتهم لله وعدم التكبر عنها، مثلما كان الفعل الجهادي في سبيل الله لنصرة الإسلام خلف راية الإمام عليه السلام كشفاً للمتكبرين على طاعة

(٢) م.ن : خ ١٥٦، ص ٢١٨.

(٣) م.ن : خ ٦، ص ٥٣.

(٤) م.ن : خ ١٣٣، ص ٩١.

(١) نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١٢٠.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام (السمع والطاعة أبواب الخير، السماع المطيع لا حجة عليه والسماع العاصي لا حجة له وإمام المسلمين تمت حجتة واحتججه يوم يلقى الله عز وجل)، ثم قال ((يوم ندعو كل أناس بإمامهم)) (سورة الإسراء/٧١)، أصول الكافي : ٢١٢/١.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٧٦، ص ٢٥٣.

الإمام عليه السلام، وإشهاراً للمنافقين منهم وإعلاناً للمطيعين ممن اخلص النية، ولذا فما ورد من استجابة أو رد فعل في خطاب الإمام عليه السلام لم يكن بازاء خطابه، بل بازاء ما يدعوهم له.

وقد تجاوز خطاب الإمام الرسالي دعوة مخاطبيه ووصف تلقيهم لذلك الخطاب والجهة المسؤولة عنه إلى الموانع التي تحول دون تلقي ذلك الخطاب، التي جمعها بما كان يخشاه عليهم ويحذرهم منه بقوله (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْتِيَ أَعْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ)^(٤)، وما كان يحاول تهذيبه فيهم من خلق ليزيل الحسد والحقد والعصبية من نفوسهم، إلى متابعة تلقي خطابه لمعرفة مدى التزامهم بالحق وتفنيد مزاعمهم، ومحاجبة المنكرين له بأقوالهم السابقة، وردود أفعالهم بازاء سياسته، ووصف استجاباتهم^(١)، إذ "ليس لموقف واحد استجابة واحدة"^(٢)، ولا سيما فيما كان يتضح من ذلك في فريضة الجهاد.

فخطاب الإمام عليه السلام ولا سيما خطابه الجهادي خطاب حي يواكب الوقائع ويسجلها، ويربط بين الأحداث وبين مواقف مخاطبيه بازائها، وقد كانت استجابة المجاهدين على أوجها وهو ما يوضحه خطاب الإمام عليه السلام، كان يخاطب أهل الكوفة بقوله (أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ وَالْجُتَى يَوْمَ الْبَاسِ وَالْبِطْ أَنَّهُ يُؤْنِ النَّاسُ بِكُمْ أَضْرَبُ الْمُدْبِرَ وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ فَأَعِينُونِي بِمُلْصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأُولَى النَّاسِ بِالنَّاسِ)^(٣)، وتظهر استجابتهم الإيجابية جلية في ردهم على ذلك الخطاب^(٤).

وقد استبسلوا في حروب الجمل وصفين والنهروان، إلا ان الحد الفاصل بين استجابتهم الجهادية وبين التراجع فيها بعد أمر الحكومة، فقد بدأوا بالتراجع السلبي بعد ان فرغ من أهل النهروان، وانتهى من قتال الخوارج الذين طلبوا الحق فأخطؤوه^(٥)، ومارقوا عن الإمام عليه السلام وخرجوا عن رأيه بقبولهم التحكيم، ثم تراجعهم عن ذلك وندمهم عليه، واعتزالهم الحكومة منادين (لا حكم إلا لله)^(٦)، محاولين إجبار الإمام عليه

(٤) م.ن : خ ٢٨، ص ٧٢.

(١) نهج البلاغة : خ ١٢٧، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) دراسة الأدب العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٨١ : ٣٧.

(٣) نهج البلاغة : خ ١١٨، ص ١٢٥.

(٤) ينظر : الجمل وصفين والنهروان : ٤٢٧.

(٥) ينظر : نهج البلاغة : خ ٦١، ص ٩٤.

(٦) ينظر : م.ن : خ ١٨٤، ص ٢٦٨.

السلام على العودة عن ذنب لم يرتكبه^(٧)، ويصف الإمام عليه السلام بدء انقلابهم عليه بقوله (إِذْ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ حَتَّى نَهَكْتُكُمْ الْحَرْبُ وَقَدْ وَاللَّهِ أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ وَهِيَ لِعَوْنِكُمْ أَنْهَكُ)^(٨).

ويصف الإمام عليه السلام ما يتوقعه منهم (وَ أَيْمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمَسَ الْوَعْيَ وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَدَانْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ)^(٩)، ويحدد كون التخاذل سبب تلك الاستجابة، إذ لم يكن حال استجابتهم هذا منذ البدء.

ولم يكن تراجعهم وعدم استجابتهم أمراً هيناً، إذ كانت تلك الحروب الجهادية نصرة للحق وإزهاقاً للباطل، وما حيرتهم وتذبذبهم في الحق إلا لعدم استقرار الإيمان في قلوبهم، والخروج عن رأي الإمام عليه السلام الذي لا يعرف الحق سواه، ولا يلتمس العدل بسواه، حيث بدأوا بالتذرع بنفاد النبال، وكلاله السيوف، ونصل الأسنة، ثم بدؤوا بالتسلل من معسكر الإمام عليه السلام في النخيلة، وتركه -إلا قليلاً منهم-، بعد أن أمرهم بلزوم توطين أنفسهم على الجهاد^(١٠)، ليوثروا الدعة على احتمال المشقة في سبيل الله تعالى، وليفرغوا إلى الجدل والكلام فيما لا طائل منه^(١١)، فيصفهم الإمام عليه السلام بقوله (كَأَلَمْ تَكُنْ يُوْهَى الصُّمُّ الصِّلَابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمَعُ فِيكُمْ الْأَعْيَاءُ تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ دِيْيَ حَيٍّ إِدْمَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ وَلَا اسْتِرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلِ)^(١٢)، ففترقوا عن الإمام عليه السلام، ليقابلوا الإمام عليه السلام بعدم الاستجابة لدعوته الجهادية، على الرغم مما كانوا يرونه من غارات معاوية وجنوده.

ومنه بدأت معاناة الإمام عليه السلام وتشديده في الخطاب على عدم استجابتهم، يدفعه الحرص الأبوي على هدايتهم الى طاعة الله عز وجل دون إكراههم عليها بحثهم على اختيار طريق الحق الذي أمرهم الله تعالى به، والوصول الى الغاية التي لا يعد خلق الله معها عبثاً^(١٣).

(٧) ينظر: م.ن: خ ٥٨، ص ٩٢-٩٣.

(٨) م.ن: خ ٢٠٨، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٩) نهج البلاغة: خ ٣٤، ص ٧٨.

(١٠) الجمل وصفين والنهروان: ٤٤٧.

(١١) ينظر: الفتنة الكبرى: ١١٢/٢.

(١٢) نهج البلاغة: خ ٢٩، ص ٧٢-٧٣.

(١٣) من كلام الإمام عليه السلام في جوابه لسائل عن القضاء والقدر بقوله (ان الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكروباً، ولك يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق

فقد كان الإمام عليه السلام يتألم ويبكي ويتحسر وهو يتذكر إخوة الجهاد الذي استبسلوا لنصرة الحق بعد ان ملّ علاج دائهم ولم يجد له دواء قائلاً (اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا اللَّاءِ النَّوِيّ وَكَلاَّ تَنْزَعُهُ بِأَسْطَانِ^(١) الرّكبي^(٢) أَيْ الْقَوْمُ إِلَّا فَيَنْدَعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَّعُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ وَهَيِّجُوا إِلَى الْجَهِّ إِدْفُولُهَا وَلَهُ الْفَاحِ إِلَى أَوْلَا يَهْ وَسَلُّوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا وَأَخُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا وَصَفًّا صَفًّا^(٣))، ويتمنى ان يفرق الله عز وجل بينه وبين المتخاذلين بعد ان تشتت عليهم الأمر، فلم يعد ينفعهم نصيح، أو يؤثر عليهم لوم أو تفريع^(٤)، إذ يقول (وَلَوْ دُتْ أَنْ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَالْحَقْنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينُ الرَّأْيِ مَرَّاجِيحُ الْجُلْمِ مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ مَنَارِيكُ لِلْبَغْيِ مَضُوءَا فُئْمَا عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى اللَّئِيمَةِ وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ^(٥)).

لقد كان خطاب الإمام عليه السلام وسيلة توصله بمخاطبيه لهدايتهم، وتأثير ذلك الخطاب على مخاطبيه دليلاً على تلك البلاغة الربانية، ولا سيما في مواعظه التي يعد أثرها امتداداً لأثر مواعظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي كان يلقيها على مخاطبيه^(٦)، ولا سيما ان كلمات الإمام عليه السلام لا تصدر إلا من قلبه "والكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان"^(٧)، و الخطبة (الغراء) خير مثال على ذلك، فيروى "انه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب"^(٨).

أمّا ما نجد في خطاب الإمام عليه السلام من استجابة فانها لم تكن بازاء خطابه، بل استجابة للحق الذي يمثله خطاب الإمام عليه السلام، وطاعة الله تعالى المرتبطة بطاعته، فقد كان لإحدى مواعظ الإمام عليه السلام أثران متعاكسان واستجابتان متناقضتان، لشخصين تأثر أحدهما بالخطاب إلى حد انه صعقت روحه وصعدت إلى بارئها شوقاً لما يصف

السموات والأرض وما بينهما باطلاً ((ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)))

(سورة ص/٣٧)، نهج البلاغة : قول ٧٨، ص ٤٨١.

(١) أسطوان : جمع شطن وهو الحبل.

(٢) الرّكبي : جمع ركيّة وهو الحبل.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٢١، ص ١٧٧.

(٤) ينظر : م.ن : خ ٢٧، ص ٦٩-٧١.

(٥) م.ن : خ ١١٦، ص ١٧٤.

(٦) ينظر : سنن الدارمي : ٤٤/١.

(٧) البيان والتبيين : ٨٣/١-٨٤.

(٨) نهج البلاغة : قول الشريف الرضي : ص ١١٤.

الإمام عليه السلام فيه وكان دليلاً على ما تصنعه المواعظ البالغة بأهلها، ونفت الشيطان على لسان الآخر لدى سماعه الموعظة نفسها^(٤).

ولذا نجد ردود أفعال مخاطبي الإمام عليه السلام واضحة في خطابه الجهادي، إذ نجد فيه وصفا حالهم بمجرد سماعهم للخطاب (إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جَهَنَّمَ إِدْعَاؤُكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُّ عَلَى نِيكُمْ حَوَارِي فَتَعَمَّهُ نَوْنٌ وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَالُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ)^(٥)، إذ كان خطابه يصل إلى أسماعهم دون أن يتجاوزها إلى قلوبهم^(٦)، ولا سيما أن دعوة الإمام عليه السلام لم تكن الصوت الوحيد الذي يسمعون له ليجد صده في أذانهم، بل كانت تقابلها دعوة أخرى إلى حطام الدنيا أثروا الاستجابة لها، فيصفهم الإمام عليه السلام بقوله (ازْدَحَمُوا عَلَى الْخُطَامِ وَتَسْلَحُوا عَلَى الْحَرَامِ وَرَفَعَ لَهُمُ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْيُنِهِمْ وَدَعَاهُمْ رُتُوبُهُمْ فَاقْرَأُوا وَوَلَّوْا وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا)^(٧)، من أئمة الضلالة والمستكبرين عن الطاعة الذين اتخذهم إبليس (مَطَايَا ضَلَالٍ وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ وَتَرَاجِمَةٌ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ اسْتِرَاقًا لِعُقُولِكُمْ وَخُحُولًا فِي عُيُونِكُمْ وَفَنَاءً فِي أَسْمَاعِكُمْ)^(٨).

ولا يفتأ الإمام عليه السلام يحذرهم من الآثار المستقبلية المترتبة على تخلفهم عنه (فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمِ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ وَلَمْ يَجْبُرْ عَظَمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَرْزُلٍ وَبَلَاءٍ)^(٩)، ويحذرهم بوصف ما سيحدث بقوله (أَمَّا وَاللَّهِ لَيُسَلِّطَنَّ عَلَى نِيكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفٌ الذَّلِيلُ الْمَيَالُ يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُزَيِّبُ شَحْمَتَكُمْ إِلَيْهِ أَبَا وَدَحَةٍ)^(١٠)، لتخلفهم عن الحق، وتراجعهم عن لزوم عقد الجماعة الذي يحاول الشيطان حله^(١١)، والفتن التي ستصيبهم من جرّاء انقطاع وصلهم بالإمام عليه السلام وعدم تمسكهم

(٤) ينظر: م.ن: خ ١٩٣، ص ٣٠٦.

(٥) م.ن: خ ٣٤، ص ٧٨.

(٦) ينظر: الفتنة الكبرى: ١٠٨/٢.

(٧) نهج البلاغة: خ ١٤٤، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٨) م.ن: خ ١٩٢، ص ٢٩٠.

(٩) م.ن: خ ٨٨، ص ١٢١.

(١٠) م.ن: خ ١١٦، ص ١٧٤.

(١١) ينظر: م.ن: خ ١٢١، ص ١٧٨.

بأهل البيت عليهم السلام، إذ يقول (أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ وَانْقِطَاعِ وَصَلِكُمْ وَاسْتِعْمَالِ صِدْغِكُمْ)^(١).

ولا يعجز الإمام عليه السلام عن الموعظة، ولا يتراجع عن النصيحة، حتى مع ما يراه من فتور همهم وتخاذلهم حتى بعد طعنه، ففي خفوت صوته وسكون أطرافه بالموت موعظة لهم لذا فقد أوصاهم الإمام عليه السلام بالقول (وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَلِيماً وَسْتُعْقَبُ وَنَ مِنِّي جُنَّةٌ خَلَاءَ سَاكِنَةٍ بَعْدَ حَرَكَ وَصَامَتَةٍ بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعْظَكُمْ هُوِي وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي وَسُكُونُ أَطْرَاقِي فَإِنَّهُ أَوْ عَظٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعِ أَمْرِي مُرْصِدٌ لِلتَّلَاقِي غَدَا تَرَوْنَ أَتِيَامِي وَيَكُ شَفْ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي وَتَعْرِفُونِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ نَوِي مَقَامِي)^(٢).

ومن هنا لم يكن التوصيل عند الإمام عليه السلام تبليغاً فحسب، ولم يقف عند تبليغ، بل كان توصيله تعليمياً وإرشاداً، نصحاً ووعظاً، تفعيلاً وإدماجاً، وتوعية وإفهاماً، تصحيحاً لانحرافهم وتقويماً لمجتمع بأسره لا لأفراد محددين، يصف الحق ويعمل به، يقيمه ويثبته ويدعوهم له، ويتتبع استجابتهم لما يدعوهم له، ويقوم ما كان منحرفاً منها.

لقد كان خطاب الإمام عليه السلام قدرة توصيلية تنم عن بلاغة إعجازية وعلم رسالي، وصرخة حق ضد الباطل، إذ تتجاوز غايته في الخطاب تبليغ مخاطبيه والقاء الحجة عليهم، إلى إفهامهم ولا سيما ان البلاغة "إنهاء المعنى إلى قلب السامع"^(٣)، وتمكينهم من معاني الخطاب^(٤)، وذلك "بالنظر إلى المتلقي وحالاته الإدراكية المختلفة"^(٥).

ولا يوتئى الإفهام إلا أحب العباد إلى الله (يَقُولُ فَيُفْهِمُ وَيَسْكُتُ فَيَسْلُمُ)^(٦)، فالإمام عليه السلام هو الناصح الشفيق والعالم المجرب الذي لا تجر معصيته إلا إلى الندم والحسرة وسوء العاقبة^(٧)، وهو الذي يعلم ما

(١) م.ن : خ ١٨٧، ص ٢٧٧.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٤٩، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) كتاب الصناعتين : ١٢.

(٤) ومن هنا نرى امتداد معاني البلاغة في كتب القدماء الذين نهلوا من خطاب الإمام عليه السلام من سمة للكلام إلى سمة لقائله، وتحولها من إرسال إلى تلقى، ومن اهتمام باللفظ إلى اهتمام بالمعنى، ومن إفهام الكلام لمتلقيه إلى تمكينه من نفسه. ينظر : الصناعتين : ١٢-٦٠.

ومن الجدير بالذكر ان المعتزلة هم واضعو أصول البلاغة، ولا سيما انهم أقرب المؤلفين العرب عهداً بالإمام عليه السلام وأكثرهم انتفاعاً من خطابه. ينظر : النقد الأدبي : ٤٧٣.

(٥) البلاغة العربية قراءة أخرى : ٧٠.

(٦) نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١١٩.

(٧) ينظر : م.ن : خ ٣٥، ص ٧٩.

تكنه قلوب مخاطبيه ولو شاء ان يخبر كل رجل منهم بمخرجه ومولجه
لفعل^(٧)، و لا يعلم ذلك سواه.

إلا ان استقرار خطاب الإمام عليه السلام في قلوب مخاطبيه لا
يكون إلا بأسماع توقف على العلم الذي تنهله من الإمام عليه السلام^(٨)،
وبحسب نقاء تلك القلوب واستعدادها للعمل بما يدعوهم فيه^(٩)، فلا تكتفي
بالإقبال على سماع خطابه، ولا يقتصر تأثيرها على تلقي ذلك الخطاب في
حينه فحسب، بل تحوّل إلى نهج عملي تسير فيه، فخطاب الإمام عليه
السلام خطاب عقائدي غايته تثبيت العقيدة، وجعل الإيمان مستقرّاً ثابتاً، لذا
يقول الإمام عليه السلام (فَطُوبَى لِمَنِ قَلْبٌ سَلِيمٌ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ وَتَجَنَّبَ مَنْ
يُزَيِّرُهُ وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مَنْ بَصَّرَهُ وَطَاعَةَ هَادِئِ أَمْرِهِ وَبَادَرَ
الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَوَابُهُ وَتُقَطَعَ أَسْبَابُهُ وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ فَقَدْ
أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ وَهُوَ فِي تَهَجِّ السَّبِيلِ)^(١٠).

لقد أتيح للإمام عليه السلام -بتوليّه منصب الحكم- ما لم يتح للائمة
عليهم السلام من بعده^(١١)، فكان الخطاب الرسالي وسيلة توصله بمخاطبيه
من أهل زمانه، إلا انها ليست الوسيلة الوحيدة لذلك، فالتوصيل عند الإمام
عليه السلام لم يقف عند خطاب ولا يتوقف عليه، إذ يصف الإمام أهل
البيت عليهم السلام انهم (عَئِثُّ الْعِلْمِ وَ مَوْتُ الْجَهْلِ هُمْ أَلَّا يَنْ يُخْبِرُكُمْ
حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ وَصَمَتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ لَا يُخَالِفُونَ
الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَهُوَ بِهِمْ تَلَهُ دَصْدَاقٌ وَصَامِتٌ نَاطِقٌ)^(١٢)، مثلما لم
يكن خطابه موجّهاً لأهل زمانه فحسب، فخطاب الإمام عليه السلام خطاب
روحي حي يتخطى حدود الزمان والمكان^(١٣).

(٧) ينظر : م.ن : خ ١٧٥، ص ٢٥٠.

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٣، ص ٣٠٣.

(٩) ينظر : م.ن : خ ٨٣، ص ١٠٩.

(١٠) م.ن : خ ٢١٤، ص ٣٣١.

(١١) إلى زمان ظهور الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه وسهل مخرجه، فإن حكمه سيكون
امتداداً لحكم الإمام عليه السلام، وتقويماً لانحراف المجتمع بأسره.

(١٢) نهج البلاغة : خ ١٤٧، ص ٢٠٦.

(١٣) ولهذا بقيت خطب الإمام عليه السلام خالدة وتأثيرها واحداً أيّ كان تلقي الناس لخطاب الإمام
عليه السلام سواء أكان قراءة أم سماعاً.

الإمامة والتوصيل

اقتضت حكمة الله تعالى -وهو الغني عن العالمين- خلق الإنسان لغاية يسعى للوصول إليها بنفسه، وهي الوصول إلى الكمال، بعد أن أوجد فيه استعداداً للوصول إلى تلك الغاية دون سائر المخلوقات، فلم يخلقه عبثاً^(١).

وقد أنزل سبحانه وتعالى الشرائع والأديان لهداية الإنسان وإرشاده ومساعدته على الوصول لهذه الغاية، واصطفى من خلقه رسلاً تفردوا بسمات أهلتهم لتلقي وحى الله تبارك وتعالى، وتبليغ الرسالة، ولإزالة الاختلاف الناشئ بين الناس نتيجة اتخاذهم آلهة مصطنعة أرباباً من دون الله تعالى باتباع قوى أو هوى أو أجداد أو أسماء أو غيرها..^(٢) وتوجيه الخلق وإرشادهم إلى تلك الطرق الموصلة للكمال، فالكمال غاية معنوية لا يمكن إدراكها بمعزل عن توفرت فيهم تلك الكمالات^(٣).

ويحمل الأنبياء عليهم السلام رسالة لتغيير المجتمع وما يحمله من تقاليد وأعراف تتنافى مع الغاية الكمالية التي خلق لأجلها الإنسان، وتتعارض مع الفطرة الإنسانية الصافية التي يهتدى بها إلى الإيمان الصحيح بالله تعالى، لتذكير الناس بنعمة الله عز وجل، وإثارة القوى العقلية التي زودهم الله تعالى بها، وتوجيه أنظارهم إلى آيات خلقه ودلائل إعجازه، فقد بعث الله تبارك وتعالى في الخلق (رُسُلًا مُّوَاتِرًا إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءُهُ لِيَسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَذًى نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالدَّلِيلِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْصُودَةِ)^(٤)، لذا يعدّ إشراق النبوة بداية للعصر التاريخي للبشرية^(٥)، فالأنبياء آباء الحضارة المدنية.

وكما اقتضت حكمته سبحانه أن يبعث في كل أمة رسولاً ليبلغهم شرائعه، فقد جعل لكل نبي وصي يحمل ودائع رسالته ويزيل الاختلاف

^(١) قال تعالى ((أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)) (سورة المؤمنون/ ١١٥).

^(٢) ينظر: الإمامة وأهل البيت، محمد باقر الحكيم، المركز الإسلامي المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤٢٤ هـ: ٣٢.

^(٣) ينظر: المظاهر الإلهية: ١٣-١٤.

^(٤) نهج البلاغة: خ ١، ص ٤٣.

^(٥) ينظر: حركة التاريخ: ٨٤.

الذي يحدث بين الناس بعد تبليغ الرسالة^(١)، في تفسيرها وتأويلها، ويكون حجة لازمة لخلقه لتذكيرهم بما جاء به الأنبياء^(٢).

وقد توالى النبوات حتى بلغت ذروتها برسالة الإسلام الخاتمة ونبوة محمد ﷺ، فقد انعم الله عز وجل على الخلق بأن (تَعَاهَهُم بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنِ الْخَيْرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالَاتِهِ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى تَمُتَ بِذِيْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حُجَّتُهُمْ بَلَاغُ الْمَقْطَعِ عُذْرُهُ وَنُذْرُهُ)^(٣)، فاختره سبحانه من خيرة خلقه ليكون سيداً لرساله وخاتماً لأنبيائه، وإن كان سابقاً لهم في خلقه^(٤)، فقد (إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُدْبَةَ اللَّهِ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوتِهِ مَاخُذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ شُهُورَةً سِمَاءُ مُكَرِّمًا مِيلًا)^(٥)، لتكون شريعته أتم الشرائع واكملها، وان يكتب لها الدوام والاستمرار إلى آخر البشرية.

وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى النبوة الخاتمة بالحكم بين الناس كحالة سياسية واجتماعية خارجية تمثلت في قيام الدولة الإسلامية التي بنيت على أساس حركة التغيير التي قادها الرسول الكريم محمد ﷺ، وهو ما لم يتح للنبوات السابقة^(٦)، فالإسلام رسالة شاملة لجميع جوانب الحياة تنظيماً وتشريعاً ومناهج بما يقود الإنسان والمجتمع إلى التكامل وهي ذات طابع علمي ممتدة في الزمان إلى آخر الزمان^(٧).

لذا لم يكن الإسلام ديناً توحيدياً يجمع الكثرة من القبائل تحت رايته فحسب، بل كان نظاماً سياسياً لم يشهده العرب من قبل وتطوراً في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقلية والأخلاقية^(٨).

وقد حوّلت نبوة محمد ﷺ العرب من قبائل متفرقة تعيش حياة ساذجة إلى دولة ذات نظام سياسي يجمعها الاسلام، ومجتمع مدني حاول تنظيم

(١) قال تعالى ((كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)) (سورة البقرة/٢١٣).

(٢) إذ قال تعالى ((فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم)) (سورة الجاثية/١٧)، وقوله تعالى ((كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم)) (سورة البقرة/٢١٣).

(٣) نهج البلاغة : خ ٩١، ص ١٣٣-١٣٤.

(٤) ينظر : أصول الكافي : ٥٠١/١.

(٥) نهج البلاغة : خ ١، ص ٤٤.

(٦) ينظر : الإمامة وأهل البيت : ٤٢-٤٣.

(٧) ينظر : حركة التاريخ : ٥٧.

(٨) ينظر : الخطابة العربية في عصرها الذهبي : ٢٩.

أحواله وترتيب معاملاته، فالنبي محمد ﷺ هو المبلّغ عن الله تبارك وتعالى والمؤدي عنه تعالى إلى الخلق، ما به بقاؤهم وسعادتهم الأبدية ما دام التكليف قائماً، فهو الزعيم الروحي لهم وهو في الوقت نفسه قائد الدولة السياسي ومنظم شؤون حياتهم، فتطابق مفهوم النبوة الديني الإرسالي مع مفهوم القيادة السياسي.

وكان لا بد من منصب الهي تالٍ لمنصب النبوة يقوم به من يستحق أن يخلف النبي محمد ﷺ ويقوم مقامه في الحفاظ على الشريعة والقيام بالسنة، وقيادة الأمة الإسلامية، والاستمرار الرسالي دون حاجة البشرية إلى نبوات تالية لئلا تعطل حجة الله على المكلفين بها^(٣)، لأن بقاء التكليف واستمراره إلى آخر البشرية مما لا يتناسب مع عمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي يجري عليه ما يجري على سائر الخلق من موت وفناء، لم يكن في الأمة من يستحق هذا المنصب إلا وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي قال فيه رسول الله ﷺ (أنا سيد البشر، وعلي سيد العرب)^(٤).

فقد اختاره الله تبارك وتعالى ليكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقرن طاعته بطاعته ﷺ^(١)، وولياً لأمر المسلمين^(٢)، ويكون أولى بالتصرف منهم في أنفسهم ذاتها، ثم أمر سبحانه وتعالى رسوله

(٣) إذ يقول سبحانه وتعالى ((لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)) (سورة النساء/١٦٥).

(٤) تفصيل أمير المؤمنين، الشيخ المفيد (٤١٣ هـ)، تحقيق: علي الكعبي، دار المفيد، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣ : ٣٤.

(١) يروى عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عز وجل ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)) (سورة النساء/٥٩) انه قال (نزلت في علي والحسن والحسين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في علي (من كنت مولاه فعلي مولاه) وقال (أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله عز وجل ان لا يفرق بينهما حتى يوردهما علي الحوض، فأعطاني ذلك) وقال (لا تعلموهم فهم أعلم منكم) وقال (انهم لن يخرجونكم من باب هدى ولن يدخلونكم في باب ضلالة) ومن بعدهم الأئمة من ذرية الحسين عليه السلام في قوله تعالى ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)) (سورة الأنفال/٧٥). ينظر: أصول الكافي : ٣١٨/٢.

(٢) في قوله تعالى ((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) (سورة المائدة/٥٥).

ﷺ بتبليغ الناس هذا الأمر وجعله معادلاً لتبليغ الرسالة بأكملها^(٣)، وجعل ولايته إتماماً لنعمة الله عز وجل ودينه القويم.

والولاية تعني الأولوية في التصرف والأحقية بالأمر، فهي "تشعر بالتدبير والقدرة والفعل"^(٤)، وفي الولاية تكمن حقيقة الإمامة^(٥)، لذا فإن الإمامة عهد من الله عز وجل^(٦)، وخلافة إلهية خص بها الإمام عليه السلام.

ولما كانت النبوة الخاتمة هي المنظمة لأحوال العرب المشتتة على الزعامتين السياسية والدينية، لذا كان لا بد لمن يتولى منصب الإمامة من تولي هاتين الزعامتين نيابة عن رسول الله ﷺ، فالإمامة رئاسة عامة نيابة عن الرسول ﷺ^(١).

ومن هنا يمكن القول أن للإمامة -كما للنبوة- مستويين:

الأول: مستوى ديني يختص بتوضيح معالم الدين للمسلمين وربطهم بعالم الغيب بالإشراف المطلق من الله سبحانه من خلال إنسان موكل بأمره، وتجسيد القدوة لهم من خلال من اتصف بالكمال الإلهي، و"تطبيق الدين وهداية الناس بمعناها الإكمال -الإيصال إلى المطلوب- إلى الخلق القويم تشريعاً وأدباً وأخلاقاً"^(٢).

الثاني: مستوى دنيوي يختص بإدارة شؤون الدولة الإسلامية وقيادة الدولة

ونظامها السياسي وتنظيم مواردها وأمور المسلمين فيها. وهذا يعني أن الإمامة امتداد النبوة الخاتمة^(٣)، واستمرار الوظائف الرسالية التي كلف بها النبي محمد ﷺ في جميع أبعادها الدينية والدنيوية

(٣) قال الإمام الباقر عليه السلام (كانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى وكانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله عز وجل ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً))). أصول الكافي: ٣٢١/١، (سورة المائدة/٣).

(٤) المظاهر الإلهية: ٦٩/١.

(٥) ينظر: بداية المعرفة منهجية حديثة في علم الكلام، حسن مكي العاملي، الدار الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢: ٢٥٢.

(٦) ينظر: أصول الكافي: ٣٠٧/١.

(٧) ينظر: فلسفات إسلامية: ٣٩٢.

(٨) المظاهر الإلهية: ٢٧/١.

(٩) يخاطب النبي ﷺ الإمام عليه السلام بقوله (لولا إني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة)، وقوله (أنت تؤدي عني، وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه من بعدي). شرح ابن أبي حديد: مجلد ٤، ٩٣/١٣، مجلد ٣، ٧٦/٩ على التوالي.

لتحقيق أهداف الرسالة في هداية البشر إلى الدين القويم، وبسط حكومة الله جلّ وعلا في الأرض^(٤)، ودورها استمرار لدور النبوة في "قيادة المعركة التي يواجهها الأنبياء في المجتمعات الإنسانية، لإزالة كل الأمثلة المزيفة و الآلهة المصطنعة التي يخترعها الإنسان ويبتدعها"^(٥)، ومن هنا كانت الإمامة مهمة توصيلية مستمرة إلى آخر الزمان^(٦).

وقد خصّ الله تعالى ذرية رسول الله ﷺ بالمهمة في حضور متتابع إذ (إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا حَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ)^(١).

وقد جعل الله سبحانه وتعالى مودتهم صلة برسول الله ﷺ، وأجرأ على ما تحمل من أعباء الرسالة، ليعود ذلك الأجر بالنفع على صاحبه^(٢)، لأنه يقودهم لما فيه صلاحهم وإصلاحهم في الدارين، فمهمتهم هداية للحق، وطريق موصل للكمال أما بالاقتداء بهم والتخلق بسماتهم ونهجهم القويم الذي لم يكن إلا طاعة لله عزّ وجلّ وعبودية مطلقة وصلوا بها إلى الكمال، أو بطاعتهم التي لا سبيل لها إلا لمن حاول الاقتداء بالإمام عليه السلام الذي (أَخْلَصَ لِلَّهِ فَاسْتَخْلَصَهُ)^(٣)، وكلا الأمرين موصل إلى الآخر.

ومن هنا نجد تشديد النبي ﷺ على محبة الإمام ومن بعده أهل بيته عليهم السلام ووصلهم^(٤)، فلا يصل إلى هذه المحبة من نظر إلى الإمامة نظرة جزئية قاصرة بما لا يتجاوز مستواها الدنيوي، لأن المستوى الديني مستمر ونافذ إلى آخر الزمان لا يتأثر بفكر قاصر أو نظرة جزئية^(٥)، وهذه الصلة صلة قلبية لا تتأثر من جانب الإمام عليه السلام- بزمان، ولا

(٤) ينظر : بداية المعرفة : ٢٦٨.

(٥) الإمامة وأهل البيت : ٣٤.

(٦) يقول الإمام عليه السلام ((لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته). نهج البلاغة : قول ١٤٧، ص ٤٧٩.

(١) نهج البلاغة : خ ١٠٠، ١٤٦.

(٢) قال تعالى ((قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)) (سورة الشورى/٢٣)، وقال جلّ من قائل (ما سألتكم من أجر فهو لكم) (سورة سبأ/٤٧)، "أي ليس في ذلك أجر لأن منفعة المودة تعود إليكم". المناقب : ٢٧٥.

(٣) نهج البلاغة : خ ٨٧، ص ١١٩.

(٤) قال الإمام الصادق عليه السلام (إن الطاعة مفروضة من الله عزّ وجلّ وسنة أمضاها في الأولين كما يجريها في الآخرين والطاعة لواحد منا والمودة للجميع). أصول الكافي : ٤٠٢/١.

(٥) قال الإمام الصادق عليه السلام (لولا الله ما عرفنا، ولولا نحن ما عرف الله). التوحيد، الصدوق : ٢٩٠. فلا سبيل إلى عبادة الله حق عبادته إلا بهم، إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام (بعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله). أصول الكافي : ٣٦٣/١.

يبعدها مكان، ولا يضرّها جهل أو تجاهل أو تنكر أو إنكار من الناس لمن خُصّ بالمقام الرسالي، إلا أن ذلك يعد قطعاً لرحم رسول الله ﷺ التي أمر بمودتها، ولذا يصف الإمام عليه السلام ما حدث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ وَغَالَتْهُمْ السُّبُلُ وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ وَهَجَرُوا السَّبَبَ الْأَرَفِي أَمَرُوا بِمَوْتِهِ وَقَلُّوا بِالْإِلَهَاءِ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ فَبَنَوْهُ فِي غَوْ مَوْضِعِهِ) ^(١).

ولذا فقد قام الإمام عليه السلام بعد الفاصلة الزمنية بتولي المهام الرسمية للخلافة، واستكمال الدور الرسالي -المتصل بالمستوى الدنيوي- الذي خصّه به الله سبحانه وتعالى ودعا إليه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، لتثبيت عرى الإسلام، وتطبيق الدين الإسلامي وما نزل به القرآن الكريم على اكمل وجه بالتأويل الحق الذي أراده الله سبحانه وتعالى وإحياء السنة وتثبيتها بعد التحريف الذي أصابها لعدم تدوينها، وتثبيت دور الإمام لإثبات الحجج من بعده، فبهم يحيا القرآن ^(٢)، وبما يتجاوز حدود إيصال الرسالة إلى تجسيد مضامينها لتوصيل الناس جميعاً إلى الهداية المطلوبة، فتكون المهمة الرسالية للإمام عليه السلام مهمة توصيلية من جوانب عدة.

وقد أيد الله عزّ وجلّ رسله بمعجزات توجب تصديقهم والإيمان برسالاتهم، فقد كان القرآن الكريم معجزة تحدى رسول الله ﷺ العرب بآيات منه، على الرغم من نزوله بما كانوا يتفاخرون به من شعرٍ وبيان، فالقرآن "كتاب دلّ على صدق متحمّله، ورسالة دلّت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المقدمين، وبينة على طريقة من سلف من الأولين، خوّهم به إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية، فعرفوا عجزهم" ^(٣)، فكان إعجازه لهم بكلام فاق كلامهم وأخلاق تهذب أخلاقهم وتجليها وتكون حلّاً فاصلاً

^(١) نهج البلاغة : خ ١٥٠، ص ٢٠٩.

^(٢) يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله (لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية مات الكتاب ولكنه حي يجري فيمن بقى كما جرى فيمن مضى) أي بوجود الإمام عليه السلام. أصول الكافي : ٢١٥/١.

^(٣) إعجاز القرآن، الباقلائي (٤٠٣ هـ)، صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

بين السحر والكهانة والجهل والخرافة وبين العلم المخزون فيه، فقد كان القرآن اعظم من ان تتحمله عقولهم.

لقد كانت الدعوة الإسلامية تحول عظيم في زمن قصير، ولا سيما فيما كان عليه حالهم، فقد تحولت البشرية إلى عصر جديد اثر الانقلاب الجذري الذي أحدثه القرآن الذي ضم بين دفتيه الرسالة السمحاء، فأخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان و ما تبع ذلك من اثر كبير على جميع نواحي الإنسانية، إذ كان القرآن دستوراً شاملاً لجميع نواحي الحياة وموجهاً للناس كافة: مؤمنين وكفاراً، عرباً وأعاجم، يهوداً ونصارى.

ولم يكن القرآن نصّاً تشريعياً فحسب، بل كان القرآن معجزة خالدة تحوّت العرب، إذ نزل بلغتهم التي يتخاطبون بها وما اشتهروا به من فصاحة لم تستطع الوقوف بازاء بلاغة القرآن، فقد كان القرآن "أبلغ أثر أدبي عرفه العرب عبر العصور، وأوضح كتاب سماوي نزل به الوحي على ابلغ العرب لساناً، وأروعهم أسلوباً، وأطبعهم على البلاغة و البيان"^(١)، فقد اعجب العرب بآيات القرآن وعجزوا أمام بلاغتها بعد ان تحداهم القرآن عن الإتيان بمثل بسورة واحدة منه.

إلا ان بلاغة القرآن لم تكن تقوّفاً فحسب، بل كانت بلاغة معجزة، وعلوماً عميقة، وأخباراً تحكي ماضي الأمم، وتصف حاضرهم وتصور مستقبلهم، ولذا لم يكن فكرهم قادراً على الإحاطة بآياته، أو التعمق في العلوم الكامنة فيها، فقد كان يكتفيهم تعلم تدوين الآيات وكتابتها في أمة لم تقرأ كتاباً^(٢)، ولم يكن لها علم^(٣)، "إذ لا يظهر التأويل الحق إلا بعد أزمان متطاولة ينضج فيها العقل البشري وتستجم آثاره وأدواته"^(٤)، ولا سيما ان طبيعة الحياة "تأبى الطفرة، ولا تسلم إلا بسنة التطور والارتقاء"^(٥).

أما الفصاحة التي فطر عليها العرب فقد مكّنتهم من فهم المعاني الأولى لآيات القرآن الكريم، وما يراد بظاهره، فكانوا يفهمونها ويتأثرون بها، فما إن يسمعوها حتى ترق لها نفوسهم —حتى عند اشد الناس قسوة ومكابرة وعناداً— وتصل إلى قلوبهم وتستميلها، أما باطن القرآن الكريم وما فيه من معاني عميقة، وأسرار خفية، فتوصيله مهمة منوطة بالإمام عليه

(١) أدب العرب في صدر الإسلام : ٤٦ .

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٠٤ ، ص ١٥٠ .

(٣) ينظر : م.ن : خ ١٩٦ ، ص ٣١٠ .

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٠٠ .

(٥) دراسات في نقد الأدب العربي : ٤٤ .

السلام ، فللقُرآن باطن مثلما له ظاهر^(١) ، فالإمام مفتاح العلوم المخزونة في القرآن، والأحكام الكامنة فيه، فالإمام والقرآن إمامان لا يفترقان خلفهما رسول الله ﷺ^(٢) ، فالقرآن (ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقُضِي عَوَائِدُهُ وَلَا تُكْشِفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ)^(٣) ، ومن بعده الإمام عليه السلام^(٤) ، الذي يعد قرآناً ناطقاً فالقرآن (النَّاصِحُ أَلْبَنِي لَا يَغُشُّ وَالْهَائِي أَلْبَنِي لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ أَلْبَنِي لَا يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَذُّهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُتَّى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمَى)^(٥) .

ولذلك نجد في خطاب الإمام عليه السلام وصفاً للمرجع الذي يعود إليه الناس مع القرآن، ولا سيما وان القرآن (حَمَلُ ذُو وَجْهِ)^(٦) ، والإمام عليه السلام هو الناطق عنه، إذ يقول الإمام (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلَكِنْ أَخْبِرْكُمْ عَذُّهُ أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْدَّيْثُ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءٌ دَائِكُمْ وَطَمَ مَا بَ يُكْمُ)^(٧) وهو العالم بعلمه المكنون وحكمه.

ولا يحيل الإمام عليه السلام مخاطبيه إلى سواه، حتى وإن تجاوزت إحالاته حدود الزمان والمكان، فالماضي الحق علمه عند الإمام عليه السلام، والحاضر مفتاحه بيده، لأن انقلاب موازين الأمور وخط الحق بالباطل لا يسمح للناس برؤية الحق وإعادته إلى نصابه إلا من خلال من خص به، والمستقبل نبأه به رسول الله ﷺ وهو الأعلم به^(٨) .

وقد كان خطاب الإمام عليه السلام أول خطاب تتضح فيه عملية التوصيل بعد القرآن الكريم، "فالنص القرآني رسالة لسانية في حد ذاته و لكنه أيضاً شهادة عن رسالة عقائدية"^(٩) ، وقد جاء القرآن بخطاب بلاغي معجز وآيات متساوقة مع الحوادث الداعية لنزولها وبأساليب متنوعة

(١) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ٣٣/١ .

(٢) وقد ورد بروايات عدة. ينظر : محمد وعلي وبنوه الأوصياء : ١١٧-٢١٤ .

(٣) نهج البلاغة : خ ١٨ ، ص ٦١ .

(٤) قال الإمام الصادق عليه السلام (ان الله أب رسول الله حتى قومه على ما أراد، ثم فوض إليه فقال عز ذكره ((ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)) فما فوض الله إلى رسوله ﷺ فقد فوضه تعالى إلينا). أصول الكافي : ٢٩٦/١ ، (سورة الحشر/٧) .

(٥) نهج البلاغة : خ ١٧٦ ، ص ٢٥٢ .

(٦) ينظر : م.ن : كتاب ٧٧ ، ص ٤٦٥ .

(٧) م.ن : خ ١٥٨ ، ص ٢٢٣ .

(٨) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٢٨ ، ص ١٨٦ .

(٩) التفكير اللساني في الحضارة العربية : ١٣ .

وتكييفها بما يتناسب مع عقولهم و مستمدة من بيئتهم المادية لتصوير الواقع تصويراً حياً، وفيه تشديد على أهمية السماع^(٣)، وترتيل آياته^(٤).

يزاد على ذلك ما اشتمل عليه القرآن من أوصاف تخص أطراف العملية من مرسل أول وهو الخالق إلى مرسل إليه وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتحول إلى مرسل لقومه يبلغهم تلك الآيات وفيه وصف لقومه وأحوالهم المختلفة، لذا يمكننا القول إن عملية التوصيل وجدت متكاملة في أول كتاب مدون عند العرب، ولا سيما مع اقترانها بخطاب النبي محمد ﷺ.

والقرآن الكريم يمثل مرحلة انتقال من الارتجال إلى الكتابة، وتصوراً جديداً للعالم العربي إيذاناً بنهاية البداوة وبداية المدنية^(٥)، فقد كان الإسلام ثورة تغيير جذري في شتى مناحي الحياة الإنسانية في أمة لم تعهد نبوات سابقة ولم تعرف القراءة والكتابة^(٦)، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام (إِنَّ اللَّهَ سُبِّحَ أَهْبَعَتْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَئِنْ أَحْدَمَ مِنَ الْعَرَبِ يَفْرَأَ كِتَابًا وَلَا يَتَعَيَّ نُبُوءَةٌ فَسَدَّ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ فَلْتُهُمْ وَأَطْمَأْنَنْتْ صَفَاتُهُمْ)^(٧)، مما أحدث انقلاباً جذرياً، إذ لم يكن العرب أصحاب ثقافة مثل اليونان وإن كانوا أصحاب فصاحة ولسان، وكان القرآن حداً فاصلاً بين الجهل والعلم، ولذا لم يكن خطاب النبي محمد ﷺ واقترانه بتبليغ الآيات النازلة كافياً لإثارة انتباههم إلى عملية التوصيل.

إلا أن التغيير الذي جاءت به النبوة الخاتمة لا يمكن أن يحدث دفعة واحدة وخلال سنوات لم تتجاوز عشرة من عمر الرسالة، فقد بدأ النبي ﷺ ببناء المجتمع وتنظيم حياته بعد ازدياد عدد المسلمين وهجرته إلى المدينة واستقرارهم فيها ثم بدأ بتنظيم أمور حياتهم وإدارتها. وقد كان التغيير الذي أحدثه هائلاً إذا ما قورن بالحالة التي كانوا عليها، إلا أن

(٣) في قوله تعالى ((وتعينا أذن واعية)) (سورة الحاقة/١٢).

(٤) في قوله تعالى ((ورتل القرآن ترتيلاً)) (سورة المزمل/٤).

(٥) ينظر : صدمة الحداثة، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٨ : ٢٣.

(٦) قال تعالى ((هو الذي بعث في الأميين رسولا)) (سورة الجمعة/٢)، ويراد بالأميين العرب سواء أكان المراد أهل مكة وفيهم أرسل النبي محمد ﷺ، أو يكون المراد من الآية عدم نزول كتاب

سابق فيهم، أو عدم قدرتهم على قراءة كتاب. ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير

الطبري (٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، دت : ١٢٠/٢٨.

(٧) نهج البلاغة : خ ٣٣، ص ٧٧.

مرحلة الرسالة قد خصها لنشر الإسلام وتعليم المسلمين القراءة والكتابة لتعلم القرآن وتدوين آياته.

وقد كانت الكتابة هي العلم الذي انشغل المسلمون بتعلمه بعد ان كان مفتتح صناعة الكتابة على يد الرسول ﷺ^(٣)، فلم تمهلهم حروب الجهاد ونصرة الإسلام ولا المدة القصيرة من عمر الرسالة لاحتذاء أساليب القرآن والنهل منها باستثناء اخذ آيات مباشرة بقصد تبليغها.

واستمر ذلك بعد وفاته، فقد كانت المرحلة الأولى للإسلام مرحلة جهاد وفترة انتقال "لاقتلاع جذور الوثنية وغرس العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من المثل الأخلاقية والاجتماعية في القول والعمل"^(١)، وتبعتها مرحلة تدوين القرآن ونشره والانشغال بالفتوحات إلى عهد الإمام علي عليه السلام الذي كان عصره مفتتحاً لعلوم شتى.

وقد كان خطاب النبي محمد ﷺ مختلفاً عن خطاب الإمام علي عليه السلام، إذ كان النبي ﷺ يلقي خطابه في زمن لم يكن للعرب فيه سوى الكلام، أما الإمام عليه السلام فقد كان يلقيه في زمن خرج فيه العرب، واختلطوا بالأمم المجاورة، واتسعت أذهانهم لتقبل الخطاب، ولا سيما مع سعيه لإثارة دفائن عقولهم، ودفعهم للتفكير في كل أمر قبل السير فيه.

وقد كان منصب الإمامة قناة إرسالية ناطقة ومرسلة، وخطاب الإمام عليه السلام يحاول بها استثارة مكامن القرآن وعلومه، والقرآن علم قبل ان يكون كتاباً، وصوت الإمام عليه السلام صوت مستثار ذلك العلم^(٢)، لأن "القرآن كتاب حياة"^(٣)، ومعجزة قائمة إلى آخر الزمان، و"لا زال التحدي قائماً بها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين"^(٤)، ولفت أنظارهم إلى علومه وإعجازه، وحثهم على التفكير بآياته، وقد ابتدأهم الإمام عليه السلام بعلم النحو^(٥)، ليكون مفتتحاً لدراسة القرآن انطلاقاً من لغته الإعجازية، فالإعجاز القرآني علم "جعله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنوان ميراث النبوة فيما حملهم الله إياه واستأمنهم عليه"^(٦)، ولذا كانت دراسات إعجاز القرآن مفتتحاً لعلوم العرب، بكافة

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٣٥٠.

(١) دراسات في نقد الأدب العربي : ٨٧.

(٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٠٥، ص ١٥٢.

(٣) كيف نفهم القرآن، محمد رضا الحسيني، دار الفردوس، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ : ١١.

(٤) الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق، عبد الجليل عبد الرحيم : ٢٤٨.

(٥) ينظر : شرح ابن أبي حديد : مجلد ١، ١٧/١.

(٦) الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق : ٢٤٩.

أنواعها دينية ودنيوية من عقائد وفقه وأخلاق وعلوم النفس والطبيعة والاجتماع وسوى ذلك^(٧)، فقد تجسدت فيه عملية التوصيل^(٨) مرتبطة بخطاب الإمام عليه السلام الذي توجه به إلى مخاطبيه، فكان اجتماع أطراف الخطاب الثلاثة في خطب الإمام علي عليه السلام، وإحاطته بالموقف الذي كان الإمام يكيف خطابه بازائه، ليجمع تلك الأطراف ويوحدها صوت رسالي واحد وتدور جميعها حول مرجع واحد، فالإمام عليه السلام هو المخصوص بالمهمة التوصيلية، وخطابه عليه السلام هو الخطاب البلاغي الإعجازي بعد كتاب الله الذي تجسدت فيه عملية التوصيل، ولكن لأداء مهمة توصيلية.

فالإمام عليه السلام هو العلم الهادي، والقران الناطق عن القران الصامت الذي بنيت على أساسه الدولة الإسلامية، ولذلك فقد أوصى النبي محمد ﷺ أمته بالتمسك به مع القران، لكونه القران الناطق بالحق، فالإمام قران والقران إمام^(٩)، ولذا فقد جعلهما الله حبلاً ممدود من السماء إلى الأرض لا يفترقان، فالإمام حامل لعلوم القران وناطق بها والقران دون إمام صامت^(١٠)، فالقران (إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الْقَفَتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمانٍ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ)^(١١)، ولذا فقد كان خطاب الإمام عليه السلام بلاغة رسالية وتوصيله إعجازاً لا يقل عن بلاغة القران أو إعجازه -وهو الناطق به-.

والإمام هو صاحب العلم الحقيقي، ومصدر العلوم كلها، وهو الأعلم بالسنة والأخص بها، ولاسيما مع كثرة الكذب على الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم^(١٢)، مثلما هو الأعلم بالقران وتأويله، وما تشتمل عليه آياته من قدرة أو هداية أو خلق أو حياة أو موت أو علم أو حكمة.... الخ، و ما

(٧) ينظر : علوم نهج البلاغة : ١٣-١٦١.

(٨) التوصيل عملية قام عليها الخطاب النقدي بوصفها غاية العمل الأدبي التي تجمع طرفيه لتكون لغته سلكاً موصلاً بينهما. ينظر : مقدمة في النقد الأدبي : ٣٠.

(٩) ينظر : الإنسان الكامل في نهج البلاغة، حسن الأملي، المعارف، إيران، ط١، ١٩٩٥ : ١٨٢.

(١٠) يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال (خذوا العلم قبل أن يذهب قالوا وكيف يذهب العلم يا نبي الله وفيما كتاب الله فغضب لا يغضبه الله ثم قال ثكلتكم أمهاتكم أو لم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئاً ان ذهاب العلم ان يذهب حملته). سنن الدارمي، عبد الله بن بهرام الدارمي (٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق : ٧٧/١-٧٨.

(١١) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٣٢٥.

(١٢) ينظر : نهج البلاغة : خ ٢١٠، ص ٣٢٥.

يتصل بمحكم القرآن ومتشابهه وأوقات نزوله، وناسخه ومنسوخه...^(٢)،
فالإمام عليه السلام حلقة وصل بين السماء والأرض.

لذا يشدد الإمام عليه السلام على المرجع بتشديده على اللسان من
جانب بوصفه آلة النطق عند الإنسان ومرتبطة به، فاللسان (بَضْعَةٌ مِنْ
الْإِنْسَانِ فَلَا يُسْعِيهِ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ وَلَا يُمَهِّدُهُ النَّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ)^(٣)، وتشديده
على القائل به من جانب آخر، إذ (إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِيَ وَتُخْطِئُ السَّهْمُ
وَيُحِيلُ الْكَلَامُ)^(٤)، وتوجيههم إلى انتقاء القائل لكثرة الآراء وتعدد مصادر
القول وأئمة الضلالة.

لقد كان خطاب الإمام عليه السلام ارتجالياً، لا يسبق بتحضير أو
تهيئة، وإن أصبح ذلك مما يعد أصلاً في الخطيب^(٥)، إذ كان يشهد بتقرّده
العدو قبل المحب، ويتجسّد ارتجاله ذلك بعدم ترده بآراء حق، أو تلغثه
في خطاب، وعدم تحبسه في جواب، فإن ورده سائل بادره بالسؤال وتبعه
بالإجابة، ليفيض خطابه اعجازاً، فلا يتردد إلا خوفاً على سائله مما يعلمه
في نفسه من عدم تحمل الجواب، كما في وصفه للمتقين^(٦).

وقد كان الإمام عليه السلام سريع البديهة، ولا سيما مع ما خصّ به
الإمام عليه السلام من ذاكرة حافظة تمكنه من إرسال الخطاب، والحافظة
"هي قوة تمكن النفس من حفظ المعاني التي يدركها العقل ثم تأديتها عند
الحاجة"^(٧)، فكان لا يترك سؤالاً إلا وأجاب عنه بخطب يرتجلها دون
تريث ولا تفكير^(٨) ممّا يعجز عنه سواه، والمسائل المنبرية المعقدة التي
عرضت عليه والتي سئل عنها خير دليل على ذلك^(٩)، فكانت بلاغته بلاغة
معجزة متفردة تعبر عن علمه الغزير ومعرفته بما يدور في خلد مخاطبيه،
وهو القادر على مخاطبتهم جميعاً، فتصيب أقواله ولا تخطئ مراميها، ولا
تبتعد عن مقاصدها، ولا يحيل كلامه لسواه، وتستقبل كل نفس خطابه
لتفهمه بما أراد الإمام عليه السلام إفهامها به، وبحسب استعدادها للتلقي.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١، ص ٤٤-٤٥.

(٣) م.ن : خ ٢٣٣، ص ٣٥٤.

(٤) م.ن : خ ١٤١، ص ١٩٨.

(٥) مقدمة في النقد الأدبي : ١٤٤.

(٦) ينظر : نهج البلاغة : خ ١٩٤، ص ٣٠٧.

(٧) علم الخطابة : ١٣٩/٢.

(٨) ومنها الخطبة الخالية من الألف. ينظر : مستدرك نهج البلاغة ومداركه : ٤٤.

(٩) ينظر : حياة الإمام علي عليه السلام، باقر شريف القرشي، دار المرتضى، بيروت، ط ١،

١٩٩٩ : ٨٦/١.

ولذا لا عجب ان يكون "الإمام المرجع الأول لحل جميع المشكلات والمعضلات، والفصل بين الحق والباطل، فلقد كان يسأل ويجيب بالهدى والحق" (٣)، ويشدد الإمام عليه السلام على هذه المرجعية بقوله (وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَ الْهَافِينَ تَنَارَعُ فِي شَيْءٍ فَرَّ ثُوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ فَرَّ ثُوهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ تَحْكُمَ بِكِتَابِهِ وَرَّ ثُوهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ تَلْخُذَ بِسُنَّتِهِ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَتَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَتَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا) (٤)، لتكون من بعده لأهل بيته عليهم السلام، فهم أهل بيت النبوة وموضع نزول الرسالة وانهم (أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَّةُ الدَّالِّيِّينَ إِلَهُهُمْ يَفِيءُ الْغَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ النَّالِي وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوَلَايَةِ وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ) (٥).

وأهل البيت عليهم السلام هم الرجال الذين لم تلهمهم تجارة ولا يشغلهم بيع عن ذكر الله (٦)، فهم (عِبَادُ اللَّهِ جَاهُهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورٍ يَقْطَعُ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ يُذَكِّرُ وَنَبَأُ لِيْلَمِ اللَّهُ وَيُخَوِّفُ وَنَمَقَامُهُ مِمَّنْزِلَةِ الْإِلَهِ فِي الْفُلُوقِ اتَمَّنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمَلُوا إِلَيْهِ طَرِيقَ مُوَبِّشَرُوهُ بِالنَّجَاةِ وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَحَذَرُوهُ مِنْ الْهَلَاكِهْ وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَالْإِلَهِ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ) (١)، ومن وكله الله تعالى إلى نفسه وسار بغير دليل فهو جائر عن قصد السبيل (٢).

ومن هنا فالإمام ومن بعده أهل بيته عليهم السلام هم أهل القرآن (٣)، وأهل الذكر الذين خصّوا بالعلم (٤)، وهم مصدر العلم الحقيقي، والراسخون فيه، وبهم (يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَ يُسْتَجْلَى الْعَمَى) (٥)، وهم المرجع

(٣) فلسفات إسلامية : ٧٠.

(٤) نهج البلاغة : خ ١٢٥، ص ١٨٢.

(٥) م.ن : خ ٢، ص ٤٧.

(٦) في قوله تعالى ((يَسْجُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)) (سورة النور/٣٦-٣٧).

(١) نهج البلاغة : خ ٢٢٢، ص ٣٤٢.

(٢) ينظر : م.ن : خ ١٠٣، ص ١٤٩.

(٣) يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله (ان الله أهلين من الناس)، قالوا يا رسول الله : من هم؟ قال (هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته). سنن ابن ماجه : ٧٨/١.

(٤) يروى عن الإمام علي بن الحسين في قوله تعالى ((فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)) (سورة الأنبياء/٧) انه قال (أمرهم ان يسألونا وليس علينا الجواب، ان شئنا اجبنا وإن شئنا

امسكنا). أصول الكافي : ٢٣٧/١.

(٥) نهج البلاغة : خ ١٤٤، ص ٢٠١.

الأساس للخلق جميعاً، فهم حجة الله على الأرض التي لا تخلو من حجة إلى قيام الساعة.

ومن هنا لم تكن بلاغة خطاب الإمام عليه السلام بياناً فضّل به، ولا فصاحة زينت كلامه فحسب، بل كانت بلاغته علماً رسالياً بإيجاز لا يجانب الصدق ولا يحيد عنه، فبلاغته تسديد من الله جلّ وعلا لكلام متدور متمعن فيه، وقدرة على التوصيل مثل خطاب الإمام عليه السلام جانباً منها.

فالإمام عليه السلام هو المخصوص بالبلاغة الرسالية التوصيلية، المؤتمن على أداء المهمة الرسالية، سواء أكان ذلك بكلام أم خطاب أم دعاء أم...، فخطاب الإمام عليه السلام خطاب إعجازي ينفذ إلى قلوب مخاطبيه، ويثير دفائن عقولهم.

والإمام عليه السلام هو المرجع الأساس للعلم، والناطق به، والمخصوص لنصرة الإسلام، وإعلاء شأنه، وإعزاز المسلمين، "فما ابلغ نصرته له : تارة بيده وسيفه، وتارة بلسانه ونطقه، وتارة بقلبه وفكره، إن قيل : جهاد وحرب فهو سيد المجاهدين، وإن قيل : وعظ وتذكير، فهو ابلغ الواعظين والمذكرين، وإن قيل : فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل : عدل وتوحيد، فهو إمام العدل والموحدين"^(١).

ولذا لم يكن يوقف الإمام عليه السلام ما يجده عند مخاطبيه من جهل وغفلة^(٢)، بل كان يعمد إلى تحويل مخاطبيه إلى مقام إرسالي، والإمام عليه السلام في مقام خطابي، أي تبادل الأدوار ليكون مخاطبيه مفتتح الكلام و منطلق السؤال، وليكون خطابه جواباً لهم متأملاً أن يجد لعلمه طالباً.

ولذا كان العلم الرسالي هو الأساس الذي توجه به إليهم قائلاً (سلوني)، سواء أكان ذلك بعلمه الذي وسع السماوات والأرض، إذ يقول (سلوني قلّي أن تفقوني فلا تطرق السماء أغمم مني بطرق الأرض قبل أن تشدّ برجليها فتدّ في خطامها وتدّ هب بأحلام قومها)^(٣)، أو لعلمه بالفتن وهو الذي فقأ عينها، ولولاه لم يجرؤ أحد على الوقوف بازائها، بوصفه السبيل المنجي منها إلى قيام الساعة^(٤)، أو لعلمه بالقرآن وتأويل

(١) شرح ابن أبي حديد : مجلد ٢، ٣٩٤/٧.

(٢) ينظر : م.ن : مجلد ٣، ١٤٧/٩.

(٣) نهج البلاغة : خ ١٨٩، ص ٢٨٠.

(٤) م.ن : خ ٩٣، ص ١٣٨.

آياته التي لا يعلمها إلا من واكب نزولها، وخصّ بمعانيها، أو لعلمه بالكتب السابقة، وهو القادر على محاجة أهلها وتفنيد افتراءاتهم الباطلة، ذلك العلم الذي تساوق مع العصمة التي خصّ بها للصفات الإيمانية التي تجسدت فيه، والعدل الذي نطق به كل جزء من أجزاء خطابه، ليحيلهم إلى المرجع الذي جعله الله تبارك وتعالى طريقاً واضحاً يسرون خلفه و علماً هادياً يقتدون به، و مصدرأ ناطقاً بالعلم دون سواه.

فقد كان وجود المرجع هو الأساس في خطاب الإمام عليه السلام، فيكون الإمام عليه السلام قطب رحي الخطاب كما هو قطب رحي الوجود^(٥)، ففي خطابه غالباً ما يضعهم بازاء نفسه ليكون الخطاب حلقة وصل بينه وبينهم بوصفه مرجعاً لهم راعياً لشؤونهم وبوصفهم رعية لقائدهم، فيكون طرفي الخطاب داخل الخطاب نفسه لا ليدلهم على صاحب العلم الحقيقي ومصدره فحسب، بل ليشدد في خطابه الروحي على الصلة الروحية التي تجمع مرسل الخطاب بمخاطبيه، ويذكرهم بالرابطة القلبية التي أمر رسول الله ﷺ بها وجعلها صلةً به وهي مودة أهل بيته عليهم السلام^(١)، ولذا يصف الإمام أهل البيت عليهم السلام بالقول (نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَانِ الْعِلْمِ وَيَلْبِغُ الْحُكْمَ لَصِيرُ لَا وَمُدُّ يُنْتَظَرُ الرَّحْمَةِ وَعَؤُ لَا وَمُغْضُ لَا يُنْتَظَرُ السَّطْوَةِ)^(٢)، مثلما يصف محبيهم بالقول (اعْمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ يَصُونُ وَنَمَصُ وَهُوَ وَيُفَجِّرُ وَنَعْيُ وَنُهُيْتَوَاصِلُ وَنَبَالُوَلَايَةِ وَيَتَلَقُّونَ بِالْمَدَبَةِ وَيَتَسَاقُونَ بِكَاسِ رَوِيَّةٍ تَوَيْصُ وَنَبَرِيَّةٍ لَا تَشْوِبُهُمُ الرِّيبَةُ وَلَا تُسَرُّعُ فِيهِمُ الْغَيْبَةُ عَلَى ذَلِكَ عَقْدَ لَحْقُهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ فَعَلَّاهُ يَتَدَّ لُؤُنَ وَبِهِ يَتَوَاصِلُ وَنَ)^(٣).

وقد كان الإمام عليه السلام المرجع الأساس الذي خصّه الله تعالى بقيادتهم في طريق الحق فمفتاحه بيديه^(٤)، فقد كان الإمام عليه السلام "مرجع الصحابة في الفقه، وقدة في الورع، تتفجر الحكمة من بيانه،

(٥) ينظر : م.ن : خ ١١٩، ص ١٧٥-١٧٦.

(١) قال رسول الله ﷺ (أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله وتوالي أولياء الله والتبري من أعدائه)، ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام ما نقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله (أنا المدينة وعلي الباب، وكذب من زعم انه يدخل المدينة لا من قبل الباب، وكذب من زعم انه يحبني ويبغض علياً صلوات الله عليه). أصول الكافي : ٢/٢٦٥، ١٥٥ على التوالي.

(٢) نهج البلاغة : خ ١٠٩، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) م.ن : خ ٢١٤، ص ٣٣١.

(٤) ينظر : م.ن : خ ١٠٠، ص ١٤٦.

وتتدفق البلاغة على لسانه" (٥)، ولذا كان صوت الإمام عليه السلام في خطابه صوتاً روحياً رسالياً خالداً لا صوتاً مادياً، فالإمام هو القناة الرسالية الناطقة بالحق الذي نزل به القرآن الكريم والقائد الهادي والعلم البادي الموصل إلى الحق بسيره في طريق الحق، فإن الله سبحانه وتعالى (لَمْ يَثْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْماً بَإِيَّاءِ آيَةٍ مُحْكَمَةٍ تَرْجُرُ عَذُّهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ فَرَضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَادُّوسَ خَطِّهِ فِيمَا بَقِيَ وَادِحٌ) (١).

وفي خطاب الإمام عليه السلام يشدد على هذه الصلة لتوضيح العلاقة التي تربط بينه وبين مخاطبيه، وذلك تارة بإعطائهم صورة للعلاقة التي تربطه برسول الله ﷺ، أو صلة القرابة التي تجمعهم به، وأخرى بوصف زمنهم الحالي، وثالثة عن المستقبل المتسبب عن التخلي عن صلتهم، فصلة أهل البيت الطريق المنجي لهم من مضلات الفتن، وقد يضع موقعه من الرسالة وموقعهم منها، ليشير منها إلى العلاقة التي افترضها الله عز وجل عليهم (المودة لأهل البيت)، وتشديد النبي ﷺ عليها لتتركز في شخص هو الإمام علي وذريته عليهم السلام من بعده، فهم السبب الموصل إلى الله تبارك وتعالى.

ولذا كان توجهه إليهم بسمات دون أخرى ولا سيما بالعلم الذي أنعم الله سبحانه به عليه، وجعله به حجة على عباده، ولذا كانت مرتكزات الإرسال واضحة في خطاب الإمام عليه السلام بوصفه المرجع، وبوجود المرجع في خطاب الإمام عليه السلام، نجد طرفي الإرسال وبينهما الرسالة في خطاب الإمام عليه السلام أطرافاً ثلاثة تجسد عملية التوصيل، لذا لم تكن سمات الإمام عليه السلام بعيدة عن خطابه الرسالي.

إذ يتوجه الإمام عليه السلام إلى سامعيه بسمات دون أخرى، إذ لم يكن الفخر بها مراده (٢)، وهو الذي كان يسبق جوابه لمن سأل عن علمه بالقول (إني أحثُّ بنعمة ربِّي) (٣)، ولا استمالتهم إليه مقصده، فقد نلمح بعض سمات الإمام عليه السلام ترد في خطابه بشكل غير مباشر بوصفها إشعاعات رسالية لتكون لهم محل اقتداء للتخلق بصفات كان سابقاً إليها متفوقاً فيها، وما يرد منها في موضع إنكار فينتجه لهم لمحاججتهم بها

(٥) عصور الأدب العربي، محمد الكفائي، دار النشر والتأليف، النجف، ١٩٤٩ : ٤٦.

(١) نهج البلاغة : خ ١٨٣، ص ٢٦٦.

(٢) يقول الإمام عليه السلام (ما لابن آدم والفخر : أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حقه). م.ن : قول ٤٥٤، ص ٥٥٥.

(٣) أنساب الأشراف : ٩٨.

لكونها كانت إمامهم وشهدها الجميع، وهذا مما أتى إلى وضوح المرسل بوصفه الطرف الأول من عملية التوصيل.

وقد كان اختلاف العصر وعودة المجتمع إلى ما كان سابقاً لعهد الرسول ﷺ، وتوجه الإمام عليه السلام بصوته الرسالي الخالد، لمعالجة ذلك المجتمع بطّبه، وإصلاحه بدعوة الحق التي حمل لواءها، وجعل خطابه صورة لذلك المجتمع تضع أمامهم ما سبق عهد الرسول صلى الله عليه واله وسلم، وما ساد فيه، وما تبعه، للنهوض بذلك المجتمع، وإعلاء راية الحق، فكان ذلك سبباً في وضوح المخاطب في خطاب الإمام عليه السلام بوصفه الطرف الثاني في عملية التوصيل.

وكان الإمامة النظام المحكم الذي خصّ الله سبحانه وتعالى بها المجتمع، وأنعم الله عزّ وجلّ بها لتكون امتداداً للنبوة الخالدة قدوةً وقيادة، ومن ثم تخصيص الإمام عليه السلام لخطابه لإعادة بناء المجتمع ونظامه المحكم بذلك الخطاب، سواء كانت حكمة أو موعظة أو دعوة أو جهاداً بوصفها الطرف الثالث في عملية التوصيل.

وقد كان الإمام عليه السلام -بوصفه مرجعاً- محوراً يشد أجزاء الخطاب إلى بعضها، ويسري في أنواعه ليصل بينها بعلاقات وثيقة تصل الخطاب بطرفيه، ومن خلال متابعة الإمام عليه السلام للعلاقات التي تربط أطراف العملية من خلال وصفه لسياسته معهم، وتصوير مدى استجابتهم وطاقاتهم، وموقفهم بازائه تارة، وبازاء خطابه تارة أخرى، وبلاغته في أداء مهمة توصيلية تعد امتداد لمهمة الأنبياء التبليغية، كل ذلك جعل عملية التوصيل واضحة في خطاب الإمام عليه السلام، ولا سيما أنه كان وسيلة توصله بمخاطبيه، وبناءً متكاملاً، ونظاماً حيويّاً فاعلاً شكّل جزءاً من مهمته التوصيلية.

الخاتمة

ارتقت الخطابة عند العرب بخطاب الإمام علي عليه السلام الرسالي الخالد الذي كان جزءاً من المهمة التوصيلية التي خصّ بها. وقد حاولت في بحثي دراسة خطب الإمام علي عليه السلام دراسة توصيلية محاولةً التعرف على جانب من قدرة الإمام عليه السلام التوصيلية التي تجلت في بلاغة خطابه وجعلته إعجازياً، وعلى عملية التوصيل بأطرافها الثلاثة (المرسل،

المخاطب، الخطاب) التي تجسدت في ذلك الخطاب بوصفها الأساس الذي قام عليه النتاج النقدي.

وقد أمكن الوصول إلى بعض النتائج منها:-

- كانت الخطابة أول فن تجلت فيه مظاهر عملية التوصيل بشكلٍ حسي واعتمدها النقاد في أولى مؤلفاتهم عند اليونان أو العرب على السواء.

- لقد تزامن الخطاب القرآني مع خطاب الرسول صلى الله عليه و اله و سلم في إيصاله أول تجسيد لعملية التوصيل، إلا إن افتقاد العرب للتدوين أخر تناول العملية التوصيلية إلى ما بعد قرنين من الزمان، فكان اقترانها بالخطابة في أولى المؤلفات دليل على اعتماد تلك المؤلفات على خطابٍ رسالي قريب من عهد التدوين والتأليف.

- كان الإمام علي عليه السلام مبتدأ كل علم، ومفتتح كل حكمة، ولأن العلم الوحيد للعرب هو الكلام الذي نزل فيه القرآن، لذا كان علم النحو أول علم ابتدأ الإمام عليه السلام بتعليمه للحفاظ على سلامة القرآن من جانب وليكون مفتتحاً لبقية العلوم من جانب آخر، ولقد تزامن ذلك مع التدوين الذي بدأ يتسع بعد تدوين القرآن في كتاب ونسخه في مصاحف.

- تجسدت عملية التوصيل في خطاب الإمام عليه السلام وتمثلت بأطراف ثلاثة مرتبطة في ما خُص به خطابه من إقامة الحق وتصحيح انحراف

المجتمع ، فكان النقد مرتبطاً بالبلاغة في أولى المؤلفات النقدية (البيان والتبيين) ارتباطاً ببلاغة خطاب الإمام الرسالي بنقده للمجتمع و محاولة إصلاح انحرافه.

- تجسّد الطرف الأول (المرسل) بدور رسالي فرضه الله تعالى وبسمات قيادية وفضائل مخصوصة انعكست إشعاعات رسالية في خطابه من جانب، وبمرتكزات توجه بها لمخاطبيه من جانب آخر.

- تجسد الطرف الثاني (المخاطب) في التوجه الخطابي للإمام عليه السلام لمن خُصَّ به خطابه واعتلائه منبر الإرسال، وإرسال صوته لإعلاء كلمة الحق وإصلاح المجتمع، الأمر الذي جعل خطابه مرآة صافية تعكس أحوال المجتمع وسمات مخاطبيه، وتجسد الأمراض التي أصابته واستفحلت فيه، وتصف العلاج الناجع لها.

- تجسّد الطرف الثالث (الرسالة) خطاباً رسالياً بُني في نظام محكم، أوجد أجزاء للخطاب (ابتداءً، وغرضاً، وخاتمة) وإن لم يقصد لها الإمام عليه السلام وجمع أنواعه (الديني، والسياسي، والجهادي) ليكون خطاباً خالداً، لا يؤثر فيه كثرة اقتطاع، ولا يداخله شك، ولا ينقضه كلام.

- الفصاحة والبيان سمتان اتسم بهما كلام العرب لذا كانت معجزة النبي محمد ﷺ مواعظ وحكم من جنس ما اشتهروا به، إلا أنها تفردت ببلاغة أعجزتهم عن القول بمثلها، فالبلاغة سمة خُصَّ بها القرآن المعجز والنبوة الخالدة ثم خطاب الإمامة الخالد فكانت بلاغة شمولية لا تُحدّ بلفظ ولا تُخصّ بمعنى ولا تقف عند نظم، بل هي بلاغة إيجاز في القول وعمق في المعنى تزامن مع الإفهام بمعاني الحق الذي رفع رايته الإمام عليه السلام عالياً. لم يكن صوت الإمام عليه السلام صوتاً مادياً يعتمد على فنٍ إلقائي ليتوقّف تلقى مخاطبيه على سماعتهم لذلك الخطاب، بل كان صوته روحياً يصدر عن علم رسالي لا مثيل له ليصل إلى القلوب كيفما كان تلقيها لذلك الخطاب قراءة أو سماعاً، وخطابه رسالياً يفصح عن المهمة التي كُلف بها الأنبياء بمخاطبة الناس على قدر عقولهم.

- الإمامة نظام أحكمه الله تبارك وتعالى، فهي امتداد للنبوة من جانب، وقناة توصيلية عنها من جانب آخر وحفظ للذكر الذي أنزله الله تعالى من جانب ثالث، فالإمام عليه السلام هو الدليل الذي اجتمع مع كتاب الله عز وجل ليكون وصلاً بين السماء والأرض، يعكس الأسوة الحسنة التي أوصى الله

سبحانه بها الناس لنبيه صلى الله عليه واله وسلم في مقام القدوة ويرفع راية الإسلام عالية بقيادته له.

- لقد كان خطاب الإمام عليه السلام الأساس الذي بُنيت عليه أولى المؤلفات النقدية، إلا أن عدم تزامن ابتداء التدوين مع خطاب الإمام عليه السلام ابتعد به عنه، ووجود سلطة أمية ومن بعدها بني العباس في خط مغاير لخط الإمام عليه السلام ابتعد بالبلاغة عما كانت عليه عند الإمام عليه السلام وحولها إلى بلاغة شكلية اعتمد عليها النقد، وكانت وصلاً بين القديم منه والحديث في دراسة النص بعيداً عن مؤلفه.

- لقد هيمنت الإمامة على خطاب الإمام عليه السلام، فكانت صلة جمعت مرسل الخطاب بمخاطبيه، ثم حلقة جمعت أجزاء الخطاب ووصلت بين أنواعه، فجعلت نظامه محكماً وبناءه رصيناً، ولا سيما أن هدف الخطاب عقائدي يصله بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وغايته الوصول إلى قلوب مخاطبيه لإيصالهم إلى ما فيه سعادتهم في الدارين.

- اتضحت أطراف عملية التوصيل في خطاب الإمام عليه السلام من خلال المقام الرسالي الذي بدا واضحاً في خطاب الأمام عليه السلام بوصفه -وأهل بيته من بعده عليهم السلام- المرجع الذي انعم به الله تعالى على خلقه قرآناً ناطقاً وفيصلاً بين الحق والباطل، قدوة للأمة الإسلامية وقائداً لها، علماً بادياً وعالماً هادياً، لتتجلى في خطاب الإمام عليه السلام الرابطة القلبية التي أوصى بها النبي الأكرم ﷺ لتكون وصلاً به من جانب، ونجاة لمن تمسك بها من جانب آخر فيكون خطابه عليه السلام تذكرة لهم وحجة عليهم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أئمة أهل البيت، محمد باقر الصدر، شريعت، إيران، ط ١، ١٤٣٥ هـ.
- الاحتجاج، الطبرسي، الأعلمي، بيروت، د.ت.
- إحقاق الحق وإزهاق الباطل، نور الله الحسيني المسترقي، المطبعة الإسلامية، إيران، ١٩٦٦.
- أدب العرب في صدر الإسلام، حسين الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٩٢.
- الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، حبيب يوسف مغنية، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٢.
- الأدب والدلالة، تودوروف، ترجمة: محمد نديم، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط ١، ١٩٩٦.
- الإرشاد، محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم أبي عبد الله العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (٤١٣ هـ)، الأعلمي، بيروت، ط ٥، ٢٠٠١.
- الإسلام والفن، محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- الأسلوب، احمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، ط ٦، ١٩٦٦.
- الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، د.ط، ١٩٧٧.
- الأسلوبية، بيرو جيرو، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، د.ط.
- أصوات اللغة، عبد الرحمن أيوب، دار التأليف، مصر، ط ١، ١٩٦٣.
- أصوات اللغة العربية، عبد الغفار حامد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٦.
- أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الأسوة، إيران، ط ٤، ١٤٢٤ هـ.
- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق، عمان، ط ١، ١٩٩٧.
- أصول النقد الأدبي، احمد الشايب، النهضة، مصر، ط ٧، ١٩٦٤.

- الإعجاز العلمي للقرآن بين الظن والتحقيق، عبد الجليل عبد الرحيم، من بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٩٠.
- إعجاز القرآن، الباقلاّني (٤٠٣هـ)، صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، المكتبة التجارية، مصر، ط٨، ١٩٦٩.
- الألفين، العلامة الحلي (٧٢٦هـ)، كيميا، إيران، ط١، ١٤٢٥هـ.
- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق : طه محمد الزيني، دار الأندلس، النجف، ١٩٦٧.
- الإمامة وأهل البيت، محمد باقر الحكيم، المركز الإسلامي المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.
- الإمام علي بن أبي طالب، عبد الفتاح عبد المقصود، مكتبة العرفان، بيروت، د.ت.
- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سيرة وتاريخ، محمد حسن آل ياسين، المكتب العالمي، بيروت، ط١، ١٩٧٨.
- الإمام علي رجل الإسلام المخلد، عبد المجيد لطفي، النعمان، النجف، ١٩٦٧.
- الإمام علي في الأحاديث النبوية، محمد إبراهيم الموحد، دار الأنصار، قم، ط١، ٢٠٠٢.
- الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، محمد طي، مركز الغدير، إيران، ط٢، ١٩٩٧.
- الأمثال في نهج البلاغة، محمد الغروي، فيروز آبادي، قم، ١٤٠١هـ.
- أمثال القرآن وأمثال الحديث، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق : موسى بياي العليل، مطبعة الجاحظ، بغداد.
- أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق : محمد احمد المحمودي، الأعلمي، بيروت، ط١، ١٣٩٤هـ.
- الإنسان الكامل في نهج البلاغة، حسن الأملي، المعارف، إيران، ط١، ١٩٩٥.
- أهل البيت سماتهم وحقوقهم في القرآن الكريم، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، إيران، ط١، ١٤٢٠هـ.

- أوجه البلاغة الثلاثة، ناصر حلاوي، الأعلام، بغداد، ع ١١-١٢، س ٢٧، ١٩٩٢.
- البحث البلاغي عند العرب، أحمد مطلوب، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢.
- بداية المعرفة منهجية حديثة في علم الكلام، حسن مكي العاملي، الدار الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٦٥.
- البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني، سليمان زادة، إيران، ط ١، ١٣٨٢هـ.
- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩٩.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧.
- البلاغة العربية ووسائل الاتصال، محمد بركات، الآفاق العربية، الأردن، ع ٦، س ٢، ٢٠٠٢.
- البناء الصوتي في البيان القرآني، محمد حسن، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨.
- البناء الفني في الرواية العربية في العراق، شجاع العاني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤.
- بنية الخطاب النقدي، حسين خمري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ١، ١٩٩٠.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، المغرب، ط ١، ١٩٨٦.
- بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري، دار أمير، طهران، ط ١، ١٩٩٧.
- البيان في مداخل الشيطان، عبد الحميد البلالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦، ١٩٨٦.
- البيان والتبيين، الجاحظ، (١٢٥٥هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي، بيروت، د.ت.
- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق : نخبة من العلماء، الأعلمي، بيروت، د.ت.

-تاريخ بغداد، احمد ابن الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

-تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، ابن شعبة الحرّاني، رابطة أهل البيت، إيران، ١٣٧٦هـ.

-التحليل النقدي والجمالي للأدب، عناد غزوان، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.

-التصوير الفني في خطب الإمام علي عليه السلام، عباس علي الفحام، رسالة ماجستير، كلية التربية-جامعة الكوفة، ١٩٩٩.

-تفضيل أمير المؤمنين، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، تحقيق : علي الكعبي، دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

-التفكير الصوتي عند الخليل، حلمي خليل، دار المعرفة، مصر، ط١، ١٩٨٨.

-التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ١٩٨١.

-تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق : محمد عبد الغني، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

-تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق : عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

-التوجيه الادبي، طه حسين، وزارة المعارف، مصر، ١٩٥١.

-التوحيد، كمال الحيدري، جواد علي الكسار، دار فرقد، إيران، ط٣، ١٤٢٤هـ.

-التوحيد، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق : هاشم الحسيني، قم، ١٣٨٧هـ.

-جامع البيان في تفسير القرآن ، ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت، د.ت.

-الجمال، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، تحقيق : علي شريف، مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، ط٢، ١٣٧٤هـ.

-الجمال وصفين والنهروان، أبو مخنف الأزدي (١٥٧هـ)، تحقيق : حسن حميد السنيد، دار الإسلام، لندن، ط١، ٢٠٠٢.

-حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية، بيروت، ط٤، ١٩٩٧.

- حضارة العرب في عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط٢، ١٩٨٩.
- حياة الإمام علي عليه السلام، باقر شريف القرشي، دار المرتضى، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- حياة محمد، محمد حسين هيكل، مصر، ط٥، د.ت.
- خصائص الأئمة، الشريف الرضي (٤٠٦هـ)، تحقيق : محمد هادي الأميني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٤٠٦هـ.
- خصائص أمير المؤمنين، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق : محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة : ٨٨.
- الخطابة، أرسطو، تحقيق : عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠.
- الخطابة، نقولا فياض، إدارة الهلال، مصر، ١٩٣٠.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.
- الخطابة وفن الإلقاء، أشرف محمد موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨.
- الخطبة كنثر فني، عثمان بو غانمي، تونس، ١٩٧٨.
- خطب الخلفاء الراشدين (دراسة أسلوبية)، إيمان خليفة حامد، رسالة دكتوراه، كلية التربية-جامعة الموصل، ٢٠٠٢.
- خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت.
- دراسات في نقد الأدب العربي، بدوي طبانة، مكتبة الانجلو، مصر، ط٤، ١٩٦٥.
- دراسات في نهج البلاغة، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية بيروت، ط٤، ٢٠٠١.
- دراسة الأدب العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨١.
- دلالة الالفاظ، ابراهيم أنيس، مكتبة الانجلو، مصر، ط٣، ١٩٧٢.
- دليل المتحيرين في بيان الناجين، علي آل محسن، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٩٩٤.
- دليل الناقد الأدبي، ميجان الويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠.

- دولة الإمام علي عليه السلام، محسن الموسوي، دار البيان العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣.
- رسائل الجاحظ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٤.
- الرمز في قصة إبراهيم، احمد العبيدي، دائرة معارف الفقه الإسلامي، ط ١، ١٩٩٨.
- الزمن في حركة العاملين، حسين الشامي، دار الإسلام، لندن.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)، مكتبة محمد علي، مصر، ١٩٦٩.
- سنن ابن ماجه، القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، سليمان السجستاني (٢٧٥هـ)، تحق : سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.
- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
- سنن الدارمي، عبد الله بن بهرام الدارمي (٢٥٥هـ)، مطبعة الاعتدال، دمشق.
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.
- السياسة الإدارية في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بين الأصالة والمعاصرة، خضير كاظم، ١٩٩٩.
- سيرة المرتضى، محمد علي الحسني، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٩٦.
- السيرة النبوية، ابن هشام (٢١٣هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد المعروف بابن أبي حديد (٦٥٦هـ)، الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥.
- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني (٦٧٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٢.
- شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، جودت فخر الدين، دار الآداب، بيروت، ط ١، ١٩٨٤.
- الشيطان على ضوء القرآن، عادل علوي، المؤسسة الإسلامية، قم، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- صحائف من نهج البلاغة، محمد جعفر الكرباسي، الجاحظ، بغداد، ط ١، ١٩٩١.

- الصباح، إسماعيل ابن حماد الجوهري، تحقيق : احمد عبد الغفور عطا، دار العلم، بيروت.
- صحيفة الأبرار، ميرزا محمد تقي (١٣١٢هـ)، تحقيق : مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، الأعلمي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- صدمة الحداثة، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٨.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)، دار الفكر العربي، تحقيق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، ط٢، د.ت.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد الزهري (٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ظاهرة القسم في القرآن الكريم، فارس علي، أنوار الهدى، قم، ط١، ١٤١٤هـ.
- ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة، سامر إسلامبو، الأوائل، سوريا، ط١، ٢٠٠٢.
- العبد الصالح، محمد فاضل المسعودي، التوحيد، إيران، ط٢، ١٤٢٤هـ.
- عبقريّة الإمام علي، عباس العقاد، دار التربية، بغداد، ٢٠٠١.
- عصر الانطلاق (الخلفاء الراشدون)، محمد سعد أطلس، الأندلس، بيروت.
- عصور الأدب العربي، محمد الكفائي، دار النشر والتأليف، النجف، ١٩٤٩.
- علم الأصوات العام، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، لبنان.
- علم الخطابة، لويس شيخو، الآباء اليسوعيين، بيروت، د.ت.
- علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتب، دمشق، ٢٠٠١.
- علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٧٩.
- علوم نهج البلاغة، محسن باقر الموسوي، دار العلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- علي ميزان الحق، محمد حسين فضل الله، إعداد : صادق اليعقوبي، دار الملاك، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- العين، خليل الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الميلاد، قم، ط١، ١٤١٤هـ.
- الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٦٦.
- فصول في اللغة والنقد، نعمة رحيم العزاوي، المكتبة المصرية، بغداد، ط١، ٢٠٠٤.

- فضائل الصحابة، احمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- فلسفات إسلامية، محمد جواد مغنية، دار التعارف، بيروت، ١٩٧٨.
- فكر ابن خلدون العصبية والدولة، محمد الجابري، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- فن الخطابة، احمد الحوفي، دار النهضة، مصر، ط٤، ١٩٧٢.
- فن الخطابة والتبليغ الاسلامي، شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.
- فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- الفن ومذاهبه في النثر، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٥.
- في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، الدار الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، دار العلم، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.
- في النقد والأدب، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨٦.
- القراءة وتوليد الدلالة، حميد الحمداني، المركز الثقافي، المغرب، ط١، ٢٠٠٣.
- القرآن إعجاز يتعاضم، شاعر عبد الجبار، الحوادث، بغداد، ط١، ١٩٨٥.
- القضاء والنظام القضائي عند الإمام علي (ع)، محسن باقر الموسوي، الغدير، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٨.
- قضية البنيوية، عبد السلام المسدي، المطبعة العربية، تونس، ط١، ١٩٩١.
- قواعد البلاغة، مصطفى النوراني، مكتبة أهل البيت، طهران، ط١، ١٤٢٢.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير (٦٣٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرّد (٢٨٥هـ)، المعارف، بيروت.

- كيف نفهم القرآن، محمد رضا الحسيني، دار الفردوس، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ : ١١.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي (تلازم التراث والمعاصرة)، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٣.
- اللغة في الأدب الحديث، جاكوب كورك، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون، بغداد، ط ١، ١٩٨٩.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (٦٣٧هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط ١، ١٩٣٩.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٦٠هـ)، تحقيق : لجنة من العلماء والمحققين، الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- محاضرات في الصوت والمعنى، رومان ياكبسون، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤.
- محمد وعلي وبنوه الاوصياء، نجم الدين العسكري، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٥٩.
- مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديماً وحديثاً، فائق متى إسحاق، مكتبة الانجلو، مصر، د.ت.
- مراعاة المخاطب في كتاب سيبويه، كريم حسين، المورد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع ٣، مجلد ٣٠، ٢٠٠٢.
- مستدرک الحاكم، النيسابوري (٤٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦.
- مستدرک نهج البلاغة ومداركه، الهادي كاشف الغطاء، الأندلس، بيروت.
- مسند احمد، احمد بن حنبل (٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت.
- مصادر نهج البلاغة، عبد الله نعمة، دار الهدى، بيروت، ١٩٧٢.
- مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الخطيب، الأعلمي، بيروت، ١٩٧٥.
- مطالب السؤل في مناقب آل الرسول، ابن طلحة الشافعي (٦٥٢)، دار الكتب، النجف، د.ت.
- المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية، فاضل الصفار، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.

- معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (عليهم السلام)، محمد الكاشاني، مكتبة الصدوق، إيران، ١٣٨٨ هـ.
- معالم الفكر الرسالي المسؤول، احمد ناصر، الثقافة الرسالية.
- معايير تحليل الأسلوب، ريفاتير، ترجمة : حميد الحمداني، دراسات سال، الدار البيضاء، د.ت.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، تركيا، ١٩٨٩.
- مقدمة في النظرية الأدبية، تيري ايغلتن، ترجمة : إبراهيم جاسم العلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- مقدمة في النقد الأدبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات، بغداد، ١٩٧٨.
- مكانة المتلقي في نقد القرن الرابع الهجري، بشرى موسى، الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢١٤، س٤، ١٩٩٩.
- ملاح من عبقرية الإمام، مهدي محبوبة، الزهراء، بغداد، ١٩٦٧.
- الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق : محمد بدران، مصر، ١٩٥٦.
- مناظرات الرسول المصطفى ص والإمام علي مع اليهود والنصارى، محمد علي دخيل، دار المرتضى، بيروت، ٢٠٠٢.
- من الفقه السياسي في الإسلام، محمد صالح، دار الحياة، بيروت، ١٩٧١.
- المناقب، الخوارزمي (٥٦٨ هـ)، مؤسسة النشر، قم، ١٤٢١ هـ.
- المنطق، محمد رضا المظفر، إسماعيليان، قم، ط١١، ١٣٨٣ هـ.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥.
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، الاستقلال، مصر، ط٣، ١٩٧٥.
- النص الأدبي تحليله وبنائه، إبراهيم خليل، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٥.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٣، ١٩٨٧.
- نظرية التلقي مقدمة نقدية، روبرت هولب، ترجمة : عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط١، ١٩٩٤.
- نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث، سحر كاظم الشجيري، رسالة ماجستير، كلية التربية - جامعة بابل، ٢٠٠٣.

- نظرية المنهج الشكلي، ترجمة : إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٢.
- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هند حسين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١.
- النقد الأدبي، احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، د.ت : ٢٦.
- النقد الأدبي عند اليونان، بدوي طبانة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦.
- نهج البلاغة، ضبط وتعليق : صبحي الصالح، أنوار الهدى، إيران، ط ٣، ١٤٢٥هـ.
- الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، ١٩٩١.